استراتيجية الفتوحات الإسلامية

(٢)

سقوط المدائن

ونهاية الدولة الساسانية

أحمد عادل كمال

رقم الإيداع ٢٣٧١٢/٢٠٠٥

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الكتاب: سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية
استراتيجية الفتوحات الإسلامية

الكاتب: أحمد عادل كمال

طبعة القاهرة ٢٠٠٦
عدة طبعات سابقة ببيروت

الغلاف : صالح وحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

«سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية» هو الكتاب الثالث في مجموعة كتب استراتيجية الفتوحات الإسلامية، وقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ثم طبعات أخرى متتالية من بيروت، وهذه الطبعة هى الطبعة الأولى من القاهرة، وقد ظهر الكتاب الأول من هذه المجموعة «الطريق إلى المدائن» ثم الكتاب الثانى «القادسية» من القاهرة ٢٠٠٤ وسبقهما الكتاب الخامس «الفتح الإسلامى لمصر» صدر ٢٠٠٣ لم يكن سبق صدوره من قبل.

ويجئ هذا الكتاب - سقوط المدائن - عما كان بعد معركة القادسية. كانت القادسية في شهر رجب ١٥هـ-٦٣٦م وكان جيش المسلمين ٣٢٨٠٠ في مواجهة ٢٠٠٠٠٠ (١٢٠٠٠٠ للقتال و ٨٠٠٠٠ للخدمات) وبلغ شهداؤها نحوا من ستة آلاف - يقوده سعد بن أبى وقاص، وبعدها بسبعة أشهر سقطت المدائن في صفر ١٦ هـ-مارس ٦٣٧م، فكان حدثا مدوياً إذ كانت العاصمة الفعلية للدولة الساسانية التي يحكمون منها دولتهم التي امتدت جغرافيا حتى حدودها مع الهند ومع الصين، هذه الدولة كانت قبل سنوات ثلاث تقتسم الشرق الأوسط مع الدولة الكبرى الأخرى - دولة الروم البيزنطيين - وهي التي منيت أيضا بهزيمة ساحقة في اليرموك قبل القادسية بأربعين يوما. كانت هزيمتها أمام المسلمين ودينهم الجديد الذي أنشأ منهم أمة الإسلام وأقام دولته بدءا من عصر رسول الله ﷺ ثم من بعده خلافة أبى بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

وتقدم المسلمون حتى دخل سعدبن أبي وقاص إيوان كسري بعد أن فر منه (يزد جرد الثالث) آخر ملوكهم، فر إلى حلوان على مسافة ٢٢٠ كيلو متراً واتخذ المسلمون من الإيوان مصلى وسط ما به من تماثيل ولوحات.

وتجمع للفرس في جلولاء على مسافة ١٥٠ كيلو متراً من المدائن جيش يقوده مهران، وجيش آخر في تكريت على مسافة ٢٢٠ كيلو متراً من المدائن محملين بمعنويات هزائم كبرى وملك يفر.

دارت المعركة التالية في جلولاء وتمت هزيمة الفرس في ذى القعدة ١٦ هـ نوفمبر ٦٣٧م بعد سقوط المدائن بتسعة أشهر ، وكانت تكريت أيضا في الشمال قد سقطت ثم الموصل ونينوي وهيت وقرقيسياء والجزيرة ، وامتدت الفتوح عام ١٦ هـ وعام ١٧هـ، وفي ١٩هـ كانت فتح الفتوح في نهاوند التي لم يجتمع للفرس بعدها جيش .. وتوالى سقوط الأهواز واصبهان وكرمان وهمذان والرى ودنباوند وقومس وجرجان وطبرستان وآذربيجان والباب .. إلخ ، كل ذلك حدث بتخطيط ومشروعية هما ما عنينا بشرحه في هذا الكتاب مع تبيانه بعشرين خريطة .

هذا الحدث الفرد الذي ليس له مثيل في تاريخ كرتنا الأرضية ، في قصر زمنه واتساع رقعته ودوام أثره كان يستحق استجلاء أمره وكيفية حدوثه وتأثير رسالة الإسلام في نفوس من قام به .

ألا يدعو هذا إلى العجب بعد ذلك أنه مازال يعيش على الأرض من لم يؤمن بهذه الرسالة ؟! إنه هدى الله يهدى به من يشاء من عباده. فمن مبادئ الإسلام أن كل إنسان حر فيما يعتقد ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

لقد حاولنا قدر ما استطعنا أن نبين كيف تم ذلك . وموعدنا بعد هذا بإذن الله أن يصدر كتابنا الرابع « الطريق إلى دمشق» عن فتح الشام .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

أحمد عادل كمال

ديسمبر ٢٠٠٥م

مقدمة

هذا كتابنا الثالث عن الفتوح الإسلامية نحو الشرق ، بعد كتابنا الأول «الطريق إلى المدائن» وكتابنا الثانى «القادسية» ، هذه الكتب الثلاثة تمت كتابتها جميعاً فى جهد متصل ، فهى من حيث موضوعها ، ولو أن كلاً منها يعالج فترة من الفترات ، إلا أنها جميعاً سِفْرٌ واحد من حلقات يتمم بعضها بعضاً ويفضى بعضها إلى بعض .

ومنذ وصل «الطريق إلى المدائن» إلى أيدى القرّاء ، كان التجاوب تاماً بين القارئ والمؤلف بصورة جعلت منه أعظم جزاء لهذا الجهد .

لقد درجنا ، منذ بدأنا دراسة هذه الفتوح ، على نهج معيّن ذكرناه تفصيلاً فى «الطريق إلى المدائن» ، حيث تناولنا فى القسم الأول منه كافة الخلفيات اللازمة لدراسة الفتوح ، ثم انتقلنا فى جزئه الثانى إلى حملة خالد بن الوليد لفتح العراق ، بينما خصصنا جزءه الثالث لحملة أبى عبيد بن مسعود الثقفى وحملة المثنى ابن حارثة الشيبانى . وعلى نفس المنوال فى الدراسة والبحث - الذى انفرد به «الطريق إلى المدائن» - تناول الكتاب الثانى تلك المعركة الواحدة الحاسمة «القادسية» بالدراسة والشرح والتفصيل ، بصورة لم تُنشر ولم تُبحث من قبل .

والآن نتابع ذلك الزحف المظفر من بعد معركة القادسية على تخوم صحراء العراق على خط طول ٤٤° شرقاً نحو المدائن عاصمة إمبراطورية بنى ساسان الفارسية ، فيتم اقتحامها فى معركة عبور مثالية ، ثم تستطرد جيوش المسلمين تقتطع أجزاء فارس من بين أنياب الأسد فى معركة ضارية فى أول الأمر ثم لا تلبث الدولة وهى تترنح أن تنهار وتتحول الفتوح إلى ما يشبه السكين يشق قالب الزبد فى سهولة ويسر فى عملية استلام لذلك الميراث الضخم .. وعلى ذلك فقد تم فتح العراق والجزيرة والأهواز (خوزستان) ، وفتحت أقاليم همذان وأصفهان والرى وجرجان وآذربيجان والباب وأرمينية وأقاليم فارس من خراسان وأصطخروفسا ودرابجرد ، ثم كرمان وسجستان ومكران ، وتناولنا ما كان من مصير يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان ، ومصرعه فى مرو وهويفر أمام جيوش الصحابة والتابعين التى تعقبته إلى آخر شبر من دولته (مما يقع الآن فى أفغانستان وفى تركستان الآسيوية) على خط

طول ٦٢° شرقاً، بعد معارك متلاحقة اجتازت ثمانية عشر خط طول نحو الشرق، فضلاً عن ستة عشر خط عرض نحو الشمال... هذا هو موضوع ما بين هاتين الدفتين.

ما حقيقة الباعث الذى بعث المسلمين إلى هذه الإنطلاقة المباركة من شبه جزيرتهم الفقيرة القاحلة؟ وهل صحيح ما يردده المستشرقون بإصرار من أن الفتح كان جرياً وراء المغانم؟ وما عناصر ذلك النجاح وأسبابه التى كفلته للمسلمين؟ هل كان فساد الدولة التى غزوها وضعف جيوشها أمامهم؟ أم هل كانت معجزة من الله أو محاباة منه لعباده المؤمنين؟ هذا وذاك خصصنا له باباً ختامياً فى آخر هذا الكتاب، نضع به النقط فوق الحروف، حتى نكون قد خرجنا من هذه الدراسة، لا بمجرد السرد التاريخى والعرض، ولكن بالعبرة والدرس.

هذا، وبينما كانت هذه الجيوش تفتح مشارق الأرض، كانت جيوش أخرى من إخوة لهم يفتحون الشام ومصر ومغارب الأرض، ومدُّوا سلطانهم إلى ما شاء الله، حتى نظر خليفة المسلمين إلى سحابة فى السماء يدفعها الريح وقال لها: «شَرِّقى أو غَرِّبى فسوف يأتينى خراجك»...

أحمد عادل كمال

مع الأحداث

رسالة الإسلام

قبائل متناثرة هنا وهناك على رمال تلك الصحراء المترامية الفسيحة من جزيرة العرب، لا دولة تجمعها ولا شريعة تنظمها ولا قانون يحكمها ولا حضارة تميزها.. سياستهم أن يغير بعضهم على بعض، فمن استطاع أن يأكل أخاه فقد فاز بما أكل!!

ثم بعث الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق فرفضوه.. وكذبوه وقاوموه وصبوا العذاب على من آمن به ثلاثة عشر عاماً فى مكة، حتى ألجؤوهم إلى ترك ديارهم والهجرة إلى المدينة، حيث استطاعوا أن يقيموا مجتمعاً صغيراً ينتابه التهديد من كل جانب. وشرع الله الجهاد فى سبيله لرسوله والمؤمنين معه، فذادوا عن دينهم وعن أنفسهم وعن مدينتهم، حتى مكن الله لهم وانتشر دينهم فعم أرجاء الجزيرة فى تسع سنوات.

حروب الردة

وما أن انتقل النبى ﷺ إلى رحاب ربه حتى اضطرمت الجزيرة بالردة، فقاومها الخليفة أبو بكر رضى الله عنه حتى قضى عليها عام ١١هـ، وقد بعث لذلك أحد عشر جيشاً إلى مختلف ربوعها. فما أن وضعت حروب الردة أوزارها حتى انبعث المسلمون إلى حركة الفتوح. لقد كان لازماً فتح جبهة جديدة تسدل ستائر النسيان على ما عسى أن كانت تحدثه حروب الردة من آثار فى نفوس درجت على طلب الثأر. ولقد اكتسب المسلمون فى حروب الردة تدريباً وخبرة بالحروب أفادتهم أيما إفادة فى حركة الفتح وظهرت طاقاتهم وقياداتهم وجنديتهم وتبلورت ثقتهم فى نظامهم وقدراته، وبدأت شمس حضارتهم تشع ضوءها ودفأها على الدنيا.

وبعث أبو بكر الصديق رضى الله عنه خالد بن الوليد لفتح العراق، فغزاه بجيش قوامه ثمانية عشر ألفاً، مبتدئاً من الأُبُلة على شط العرب حتى الحيرة. ثم اتجه إلى شمال العراق ففتح الأنبار على شاطىء الفرات ثم عين التمر، كما فتح دومة الجندل وعاد يطهر غرب الفرات من أى قوات معادية من الفرس أو من العرب الموالين لهم، فكانت معاركه بالخنافس والمصيخ والثنى والزميل والفراض، ولكنه قبل أن يُتمَّ مهمته أمره أبو بكر بالانتقال من العراق إلى الشام بنصف جيشه. وقد اعتمد خالد فى حملته تلك، التى تضمنت خمس عشرة معركة، على المفاجأة الاستراتيجية، وعلى أخذِهِ دائماً بتأمين قواته فى كل حركة أو سكنة، مع اعتماده على مخابرات يقظة ومع الإمساك دائماً بالمبادأة والعمل الهجومى، مع قدرة فائقة على تجميع القوات وحشدها وتحريكها فى مرونة وسرعة، كما كانت قدرته على استغلال كل نجاح يوفق إليه للحصول على مزيد من النجاح، وفى كل ذلك كان خالد يأخذ بأحدث ما وصل إليه علم الإدارة وفن القيادة فى عصرنا الحديث الذى تبلورت فيه خبرة البشرية وتجربتها لقرون.

وتوفى أبو بكر رضى الله عنه، فبعث عمر بن الخطاب حملة أخرى إلى العراق بقيادة أبى عبيد بن مسعود الثقفى، لتملأ النقص الذى أحدثه رحيل خالد عن العراق. وخاض أبو عبيد أربع معارك ناجحة ضد الفرس، ولكنه تورَّط فى معركة خاسرة بالجسر استشهد فيها وتبدد جيشه. وقاد المثنى بن حارثة شراذم المسلمين وأعاد تجميعها، وبلغته بعض الأمداد فنظمها فى كفاءة نادرة واستطاع أن يخوض بها معركة كبرى فى البويب كال فيها للمجوس هزيمة منكرة ودحر جيشهم الكبير بقوات قليلة، فانفتحت أمامه أبواب العراق يدخل من أيها شاء، ومخرت قواته شتى أرجاء العراق فى غارات عنيفة ومفاجئة أخذت بأسلوب الحرب الخاطفة وفق مفهومها الحديث، وذلك بهدف الحصول على المغانم واستنزاف موارد الأعداء وإهانة السلطة الحاكمة المستبدة المغلوبة أمام شعبها الميت العاجز، مع كل ما يحدثه ذلك من آثار نفسية. ولكن عبقرية مثل المثنى ما كانت لتفوتها أو يغيب عنها أن تقدمه الكبير كان أكبر من أن تستطيع قواته القليلة الاحتفاظ به، فاتخذ من تلقاء نفسه القرار الذى يتردد القادة والحكام عادة فى أن يتخذوه حتى تفوتهم فرصته.. وقرر المثنى الانسحاب من العراق فى انتظار أمداد جديدة.

معركة القادسية(١)

حشد عمر لهذه المعركة كل الطاقات المتاحة ووجهها إلى القادسية بقيادة سعد بن أبى وقاص فبلغ جيشه شيئاً وثلاثين ألفاً، ووضع خطته على اختيار مكان مناسب على حدود ما بين الصحراء وبين شبكة المجارى والمسطحات المائية تقيهم مخاطر الوقوع فى فخاخ المسالك المائية وتحفظ خط رجعتهم، بينما تحرم عدوهم من تلك المزايا، وأن تكون المعركة حاسمة بحيث تكسر جيش فارس فينفتح ما وراءه من أرض دولته.

وألقى الفرس فى مواجهة المسلمين بكل ما أتيح لهم من طاقة وحشدوا مائة وعشرين ألف مقاتل ومثلهم للخدمات يقودهم رستم. ودارت المعركة بالقادسية بين خندق سابور ونهر العتيق، اليوم الأول «أرماث» الخميس ١٣ شعبان ١٥هـ ١٩ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م، واليوم الثانى «أغواث» ثم الليل «ليلة السواد» واليوم الثالث «عماس» وليلة «الهرير»، ثم اليوم الرابع «يوم القادسية» الأحد ١٦ شعبان ١٥ هـ ٢٢ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م. وانتهت بهزيمة ساحقة للفرس ومصرع رستم.

«ومن هنا نلتقط الخيط لنساير مسيرة المسلمين على أرض المجوس».

(١) معركة القادسية كانت موضوع كتابنا «القادسية».

الباب الأول

نحو المدائن

بُرْس[1]

أوامر من عمر

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد المعركة فى مكاتبات مع عمر بما ينبغى أن يتصرف به. ثم جاء أمر عمر إلى سعد أن يسير من القادسية إلى المدائن. وعهد إليه أن يترك النساء والعيال بالعتيق، وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً لحمايتهم، وأن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم.

تقدم بعد انتظار

وقدّم سعد مقدمته عليها زهرة بن الحوية نحو اللسان (وهو لسان من الصحراء امتد فى الريف كانت عليه الحيرة والكوفة)[2]، وقد كانت قوة فارسية عليها نخيرجان تعسكر به. ولكن معركة القادسية كان لها تأثيرها النفسى، فما سمع بمسير المسلمين إليه حتى انفضّ ولم يثبت وانسحب ليلحق بأصحابه. وبعث سعد عبدالله بن المعتم على ميمنته فى أثر زهرة، ثم أتبعهما بشرحبيل بن السمط على الميسرة، ثم هاشم بن عتبة، وقد جعله خليفته مكان خالد بن عرفطة وجعل خالداً على المؤخرة. ثم خرج سعد وراءهم، وكان خروجهم من القادسية إلى الكوفة لأيام بقينَ من شوال ١٥هـ نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٣٦م. جيش سعد هذا صار الآن كله من الفرسان ليس فيهم غير ذلك، بعد أن غنموا ما كان فى معسكر المجوس من سلاح وكراع ومال بالقادسية. وبطبيعة الحال، لم تكن تلك الخيول التى غنمها المسلمون من المجوس من الخيل العربية الأصيلة، إنما كانت من المقاريف، والفارق كبير بين النوعين من

---

(١) الطبرى ٣ / ٦١٩ س ش س عن محمد والمهلب وسعيد.
« ٣ / ٦٢٠ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه.
(٢) فى الأصل «وهو لسان الصحراء الذى أدلعه فى الريف». وفى المنجد: أدلع لسانه: أخرجه من فمه، والدليع والدلوع: الطريق الواسع والسهل. وفى هذا الوصف ما يعطينا فكرة عن طبوغرافية المنطقة.

حيث الجودة والمقدرة والسرعة[١].

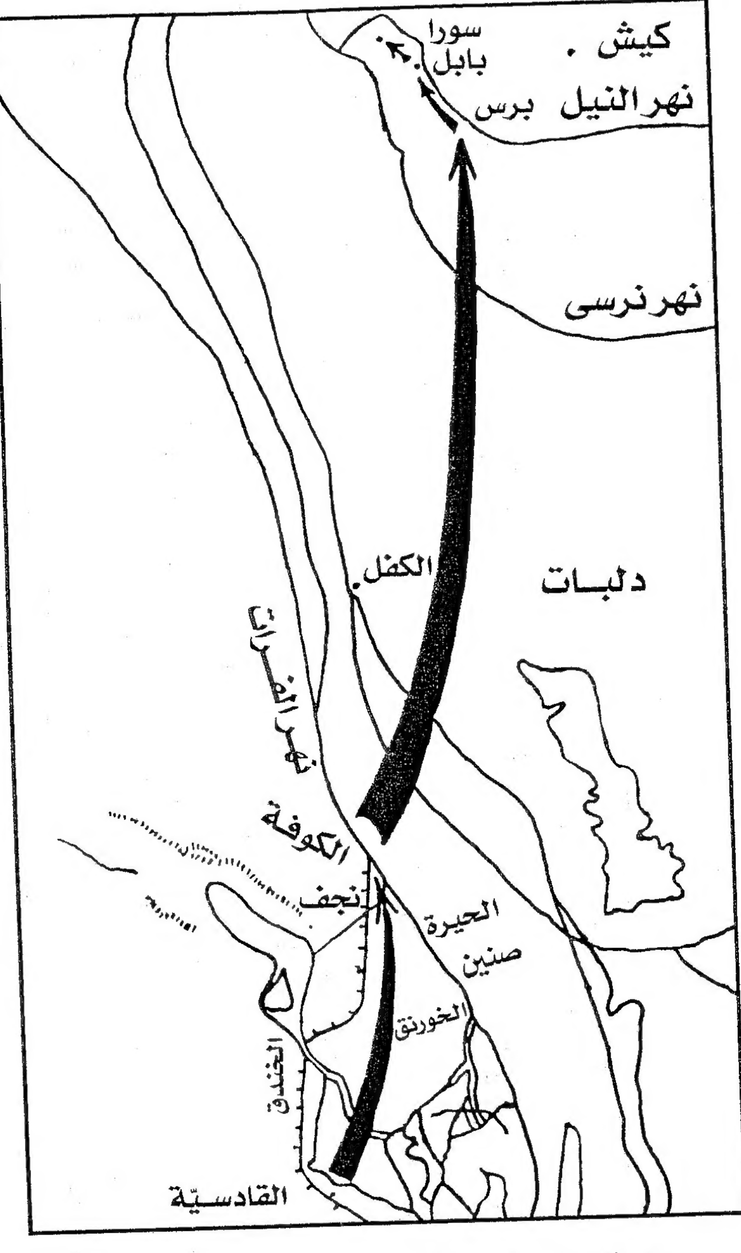
ونزل زهرة الكوفة (والكوفة كل أرض سهلة حمراء يختلط بها الحصى، وبها سميت مدينة الكوفة حين أقيمت على هذا المكان بعد ذلك).

ثم نزل عليه عبدالله بن المعتم وشرحبيل بن السمط، فارتحل زهرة فى الطريق إلى المدائن، حتى إذا وصل إلى بُرْس لقيه بها بصبهرى فى جمع، فلم تكن إلا مناوشة حتى هزمهم وطعن زهرة بصبهرى فوقع فى النهر، ثم هرب ومَن معه إلى بابل حيث كانت بها فلول القادسية وبقايا رؤسائهم، كان بها نخيرجان ومهران بن بهرام الرازى وهرمزان وأشباههم، فأقاموا وعزموا على معركة وقد استعملوا عليهم فيرزان منافس رستم القديم على السلطة فى فارس. ومات بصبهرى وهو فى بابل من طعنته التى طُعِنها فى برس.

وأقبل بسطام دهقان برس وطلب من زهرة عقد ذمة، وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا فى بابل. لم يكن غريباً أن يحدث هذا من دهقان برس، فأهل برس هم الذين غصبهم جنود رستم واعتدوا على نسائهم، فى تحرُّكه بجيشه الكبير من المدائن إلى القادسية.

---

(١) «الطريق إلى المدائن»، الجزء الأول، باب الخيل والفروسية، ص٥٧ - ٦٢.



خريطة (١) من القادسية إلى سورا   المقياس ١ / ٥٠٠ر٠٠٠

بابل

نحو بابل

أقام زهرة فى برس وكتب إلى سعد بمن اجتمع فى بابل من العجم. حينذاك كان سعد قد نزل الكوفة مع هاشم بن عتبة. فقدم سعد، عبدالله بن المعتم، وأتبعه بشرحبيل بن السمط ثم بهاشم، ثم ارتحل بالناس فى آثارهم حتى نزلوا جميعاً ببرس على زهرة، فقدم سعد زهرة إلى بابل ثم عبدالله ثم شرحبيل وهاشماً واتبعهم فنزلوا ببابل على فيرزان.

وتعاهد المجوس فقالوا: «نقاتلهم دستاً قبل أن نفترق»[1]، ولكن ما لبث القتال أن بدأ حتى انهزموا - كما يقول الرواة - فى أسرع من لفت الرداء، فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم هم إلا الافتراق.

جبهة جديدة فى الأبلة

وهنا - وبعد هزيمة الفرس فى بابل - أدرك عمر أن معركة المدائن صارت وشيكة، وكان من الطبيعى أن يقدر استماتة الفرس مرة أخرى للدفاع عنها وحشد كل طاقاتهم لها. لذلك أراد أن يشتت هذه الطاقة، فقرر أن يبعث عتبة بن غزوان فى قوة صغيرة إلى جبهة الأبلة يشاغلهم بها هناك. وكان موطن هرمزان الأصلى منطقة الأهواز ومهرجان قذق شرقى شط العرب وشرقى أسفل دجلة، فاتجه هرمزان نحوها فأخذها واستولى عليها، وخرج فيرزان حتى جاز المدائن وطلع على نهاوند، وبها كنوز كسرى، وسيطر على الماهين. أما مهران ونخيرجان فقد اتجها إلى المدائن للصمود بها، ومضيا حتى عبرا إلى الجانب الشرقى لدجلة من جهة بهرسير وقطعا جسرها. وفى هذا الانسحاب ترك نخيرجان قوة كبيرة بين كوثى ودير كعب[2] عليها شهريار وهو دهقان من دهاقين الباب.

(١) الدست بالفارسية: اليد. يعنى نقاتلهم يداً واحدة.
(٢) فتوح البلدان ٦٤٨.

مبارزة فى كوثى

أقام سعد أياماً ببابل، ثم قدم زهرة حتى ينزل بكوثى[1] على شهريار. وعبر زهرة الصراة، فقدم بكير بن عبدالله الليثى وكثير بن شهاب السعدى أخا الغلاق، فلحقوا بأخريات العجم فيهم فيومان الميسانى وفرخان الأهوازى واشتبكوا بهم فى سورا، فقتل بكير فرخان وقتل كثير فيومان[2]. يدلنا وجود ميسانى وأهوازى على أن هذه القوات كانت من بقايا فرق هرمزان.

ومضى زهرة حتى جاوز سورا ثم نزل وتتابع المسلمون فى أثرهم على شكل القطار المعهود، ابن المعتم ثم شرحبيل حتى نزل هاشم على زهرة، وحين بلغهم سعد قدم زهرة فسار فى اتجاه كوثى. وقد أقامت قوة من المجوس بين الدير وكوثى وفى جوانب كوثى التقت أوائل خيل المسلمين بجيش شهريار، وخرج شهريار عليه درعه وبيده رمحه، ينادى ويقول:

«ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إلىَّ حتى أنكل به!؟»

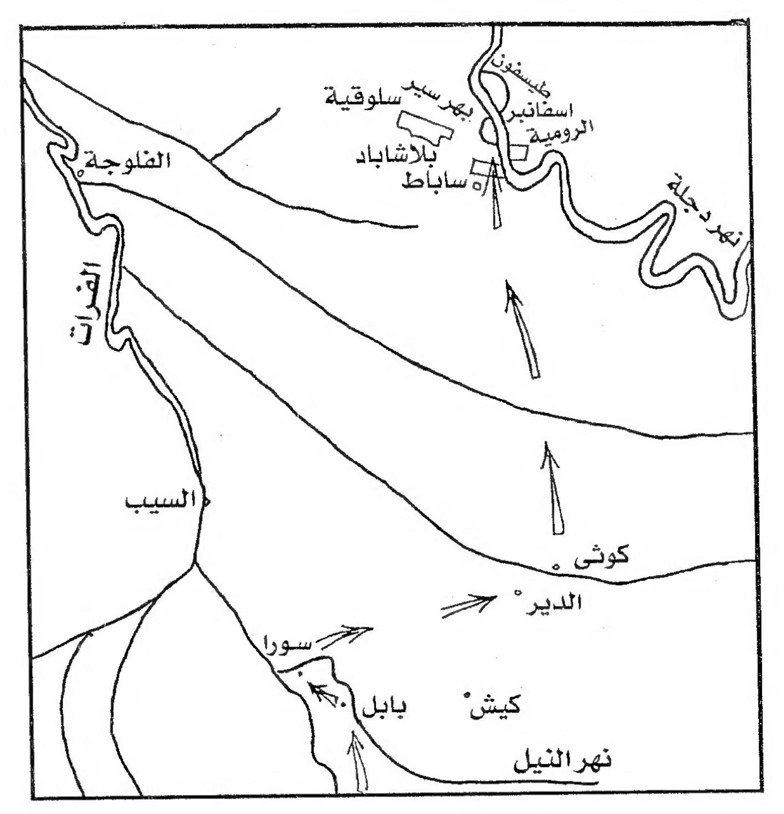
فأجابه زهرة وقال: «لقد أردت أن أبارزك، فأما إذ سمعت قولك فإنى لا أخرج إليك إلا عبداً، فإن أقمت له قتلك - إن شاء الله - ببغيك، وإن فررت منه فإنما فررت من عبد».

فغاظه زهرة بذلك، ثم أمر أبا نباتة بن جعشم الأعرجى، وكان من شجعان بنى تميم، فخرج إليه عليه درع وبيده رمح أيضاً، وكان كلاهما جسيماً (وثيق الخلق) ويبدو أن شهريار كان أجسم.

يقول الرفيل: «.. إلا أن شهريار مثل الجمل! فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه، وألقى نائل رمحه، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ثم اعتنقا (تصارعا) فخرّا عن فرسيهما، ووقع (شهريار) على (نائل) كأنه بيت، فضغطه بفخذه وأخذ الخنجر وأراغ[3] حلّ أزرار درعه، فوقعت إبهامه فى فى نائل (فمه) فحطم عظمها، ورأى منه فتوراً فثاوره (ثار به) فجلد به الأرض، ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف عن بطنه فطعن فى بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسواريه وسلبه، وانكشف أصحابه فذهبوا فى البلاد.

وأقام زهرة بكوثى حتى قدم عليه سعد فأتى به سعداً، فقال سعد: عزمت عليك يا نائل ابن جعشم لما لبست سواريه وقباءه ودرعه، ولتركبن برذونه[4] وغَنَّمَه ذلك

(١) كوثى على أربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة (ابن خرداذبه ١٢٥ وقدامة بن جعفر ١٨٥). وهى تساوى ١٣٣ كيلو متراً، وبينها وبين المدائن ٤٠ كيلو متراً.
(٢) الطبرى ٣ / ٦٢٠ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه.
(٣) أراغ: أراد - مختار الصحاح.
(٤) البرذوّن: الدابة.



خريطة (٢) الزحف إلى بهرسير المقياس ١ / ٥٠٠،٠٠٠

كله[١]، فانطلق فتدرع سلبه ثم أتاه فى سلاحه على دابته، فقال: اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فتلبسهما، فكان أول رجل من المسلمين سور بالعراق» اهـ.

وأقام سعد بكوثى أياماً. ويقول الرواة أنه «أتى المكان الذى جلس فيه إبراهيم الخليل (عليه السلام) بكوثى، فنزل جانب القوم الذين كانوايبصرون إبراهيم، وأتى البيت الذى كان فيه إبراهيم (عليه السلام) محبوساً، فنظر إليه وصلى على رسول الله ﷺ وعلى إبراهيم وعلى أنبياء الله صلوات الله عليهم، وقرأ: (.... وتلك الأيام نداولها بين الناس)».

---

(١) فى رواية البلاذرى بفتوح البلدان ٦٤٨ اختلاف فى أصحاب الواقعة. قال: «فلما جازوا دير كعب لقيهم النخيرجان إليها وبدا فى جمع عظيم من أهل المدائن فاقتتلوا، وعانق زهير ابن سليم الأزدى النخيرجان فسقط إلى الأرض، وأخذ زهير خنجراً كان فى وسط نخيرجان فشق بطنه فقتله». ومن المعلوم عن البلاذرى أن رواياته أزدية يميل بها نحو الأزد.

بهرسير

ومرة أخرى[١] يتحرك قطار سعد، فقدم زهرة إلى بَهُرَسِير، وهى آخر مراحل الطريق، خرج زهرة من كوثى فى المقدمة، وفى ساباط على ثلاثين كيلو متراً من المدائن بطريق بهرسير، استقبله شيرزاد[٢] بطلب الصلح وأداء الجزية عن ساباط، فبعث به زهرة إلى سعد. وأخرج سعد فى أثر زهرة ميمنته ثم ميسرته ثم هاشماً، وخرج فى آثارهم ومعه شيرزاد.

معركة فى مظلم ساباط

وفى مكان اسمه مُظْلِم بضواحى ساباط، التقى زهرة بقوة مجوسية ذكرتها المصادر على أنها «كتيبة كسرى» أو كتائب كسرى، وحملت اسم بوران (بنت كسرى أبرويز وهى عمة يزدجرد الثالث)، وربما أوحى إلينا صفتها واسمها إلى أنها كانت من قوات الحرس الملكى ألقوا بها فى المعركة كآخر سهم بقى لديهم، فهزمها زهرة حول المظلم[٣].

وبلغ هاشم إلى مظلم ساباط، فوقف المسلمون حتى لحق بهم سعد. فى مظلم ساباط كانت بعض الحدائق الملكية، وكان كسرى قد اقتنى فيها بعض الأسود منها أسد اسمه المقرط، كان كسرى قد اختاره من أسود المظلم واستأنسه. واجتمعت كتائب كسرى بوران فى المظلم، وكانوا يحلفون بالله كل يوم «لا يزول ملك فارس ما عشنا». ودارت المعركة وبلغهم سعد وهى دائرة، فأطلق المجوس أسدهم المقرط على صفوف المسلمين. ونزل هاشم عن فرسه وتقدم إلى الأسد بقلب لا يعرف الخوف، كما تقدم إخوان له من قبل إلى الأفيال بالقادسية. وضرب هاشم الأسد بسيفه حتى قتله، وسمى سيفه المتن. وقبّل سعد رأس هاشم

---

(١) الطبرى ٣ / ٦٢٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والنضر عن ابن الرفيل.

(٢) شيرزاد هو صاحب ساباط الذى قاد معركة الأنبار، فطلب من خالد بن الوليد الصلح والأمان على أن يتركه خالد يعود إلى مأمنه، فقبل خالد. وعاد شيرزاد حينذاك إلى المدائن فلامه بهمن جاذويه، واعتذر له شيرزاد بعدم معرفة عرب حصن الأنبار الحرب. كان ذلك عام ١٢هـ. (الطريق إلى المدائن ٢٦٦).

(٣) ربما سمى ذلك المكان بالمظلم من إظلامه بكثرة أشجاره وكثافتها التى تحجب ضوء الشمس. قال ياقوت «لا أدرى لم سمى بذلك». معجم البلدان.

تقديراً له ولما فعل، وانحنى هاشم حباً واحتراماً لعمّه وقائده حتى قبَّل قدَم سعد.

ومما رواه الرواة(١) أن المجوس أحاطوا فى هذه المعركة بالحارث بن هانى الكندى وكادوا يقتلونه، فنادى: «يا حكر يا حكر» بلغة أهل اليمن، يريد حجر بن عدى، فعطف عليه حجر فاستنقذه. وانتهت المعركة كالعادة بهزيمة الفرس، ومن منهم يرى قوماً لا يقف فى طريقهم عدد ولا عدة ولا فيل ولا أسد ثم لا ينهزم!

وقدّم سعد هاشماً إلى بهرسير(٢)، وهى ضاحية من ضواحى المدائن لا يفصل بينهما إلا نهر دجلة، وعليها أسوار تحميها. ونزل سعد إلى المظلم، فسمعه المسلمون يقرأ قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

وانتظر بالمظلم، حتى إذا ذهب هدأة من الليل ارتحل فسار بمن معه نحواً من ٢٥ كيلو متراً حتى نزل بخيله على الناس ببهرسير، فكانوا أفواجاً تترى كلما بلغها فوج وقفوا ثم كبّروا حتى قدم آخرهم.

على أسوار بهرسير

بلغ سعد بهرسير فى اندفاع سريع من القادسية، فلما نزل عليها وأغلقت أبوابها بث خيوله فأغارت على من ليس له عهد فيما بين دجلة إلى الفرات، فأصابوا مائة ألف فلاح من الأراضى ليس لهم عهد ولا ذمة. كان شيرزاد دهقان ساباط مازال ملازماً لسعد، فقال له:

«إنك لا تصنع بهؤلاء شيئاً، إنما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجروا إليك، فدعهم إلىّ حتى يفرق لكم الرأى».

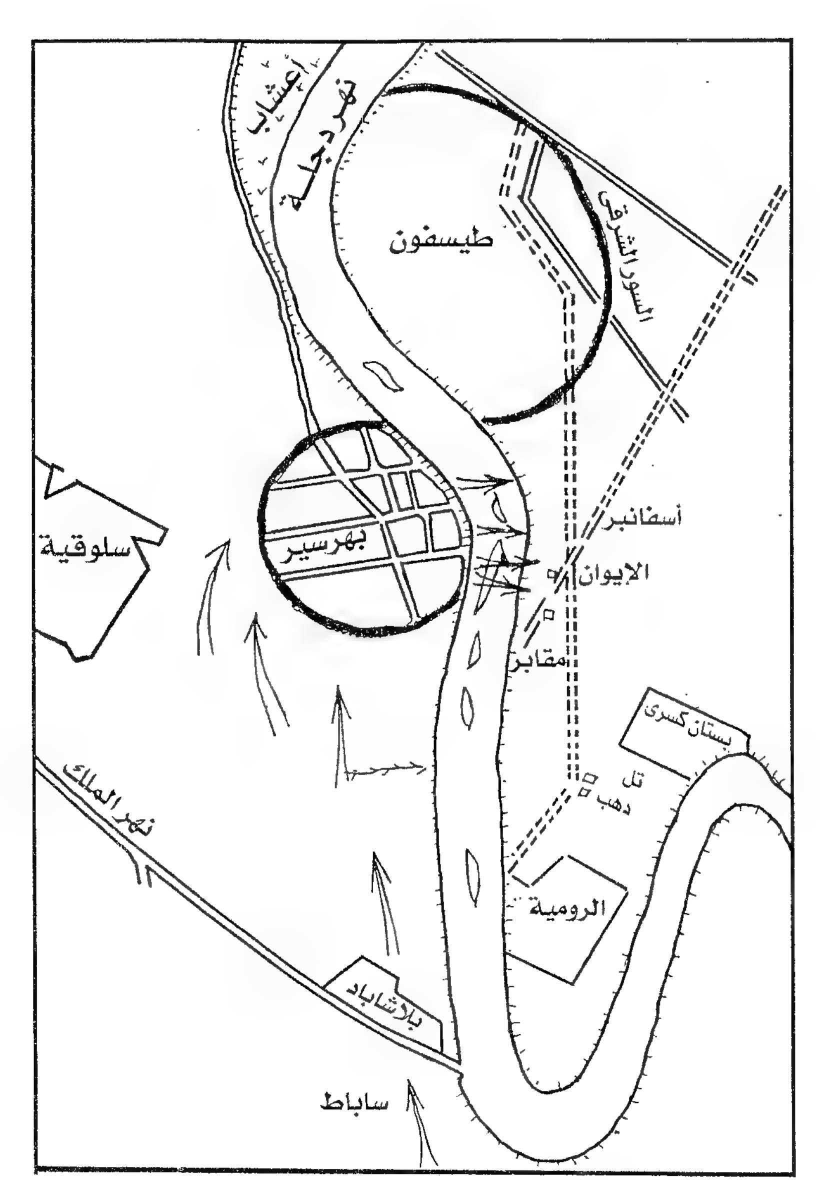
فكتب سعد إلى عمر(٣):

---

(١) أسد الغابة ٥٧٧.

(٢) فى الطبعات السابقة أخذنا موقع بهرسير فى انحناءة نهر دجلة جنوبى اسبانبر على الساحل الغربى عن خريطة العراق الأثرية التى أصدرتها مديرية الآثار القديمة ببغداد، وهى خريطة قديمة ليس عليها تاريخ إصدارها. ثم أصدرت مديرية الآثار العامة ببغداد فى ١٩٧١ المجلد السابع والعشرون من مجلة سومر تناول موضوعاً بعنوان «المدائن – طيسفون» قدم فيه خريطة لخطط المدائن بعد أعمال لبعثة ألمانية وأخرى إيطالية ثبت فيها أن بهرسير كانت تقع غربى دجلة فى مواجهة اسفانبور التى كانت على الضفة الشرقية وأن سلوقية كانت إلى الغرب منهما كما كانت بلاشاباد وساباط جنوبى بهرسير. وعلى ذلك لزم تصويب الموضوع على هذا الأساس.

(٣) الطبرى ٣ / ٦٢٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والنضر عن الرفيل.
الطبرى ٤ / ٥، ٦ س ش س عن المقدام بن شريح الحارثى عن أبيه.



خريطة (٣) بهرسير — المقياس ١ / ١٠٠ر٠٠

«إنا وردنا بهرسير بعد الذى لقينا فيما بين القادسية وبهرسير، فلم يأتنا أحد لقتال، فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام، فرَ رأيك».

فأجابه عمر :

«إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم ، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به» .

فكتب سعد أسماءهم ثم سلمهم إلى شيرزاد فأمرهم أن ينصرفوا إلى قراهم ، وراسل الدهاقين سعداً فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة والمنعة (الحماية) ، فرجعوا على الجزية والمنعة ، ولم يدخل فى ذلك ما كان لآل كسرى ومن دخل معهم . فلم يبق من غرب دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا واطمأن واغتبط بظل الإسلام ، لا ظلم ولا استبداد ولا سجون ولا تعذيب ولا إكراه فى الدين ، وجبوا الخراج إلى سعد فتسلمه منهم .

معركة بهرسير

وأقام سعد على بهرسير وأهلها متحصنون وراء أسوارها وعليها خنادقها وحرسها ، واستعمل سعد لأول مرة فى حرب العراق الأسلحة الثقيلة ، فاستصنع شيرزاد المجانيق فصنع له عشرين منجنيقاً نصبها حول بهرسير وظل يرميهم بها وبالعرادات (من آلات حصار الحصون وهى أصغر من المنجنيق) ويدب إليهم بالدبابات ويقاتلهم بكل عدة ، فشغلوهم بها والمسلمون مطيفون بهم شهرين[1] . وفى بعض الأحيان كان المجوس يخرجون من حصونهم يمشون على السدود المقامة على شطآن دجلة فى عدد وعدة يقاتلون المسلمين ثم لا يصمدون فيرتدون إلى وراء حصونهم . وكان آخر ذلك منهم أن خرجوا يوماً فى مُشاة ورُماة وخيل وتبايعوا على الصبر والثبات ، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا وارتدوا إلى مدينتهم .

فى ذلك اليوم كان على زهرة بن الحوية درع مفصومة ، فقيل له : «لو أمرت بهذا الفصم فسرد ؟»

قال : ولمَ ؟»

قالوا : «نخاف عليك منه» .

قال : «إنى لكريم على الله إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتانى من هذا الفصم حتى يثبت فىَّ !» .

(١) فى فتوح البلدان تسعة أشهر أو ثمانية عشر شهراً حتى أكلوا الرطب مرتين، ولم نأخذ بهذا.

اعتمد زهرة على نظرية الاحتمالات ، فإن احتمال إصابته بسهم من ذلك القطع فى درعة احتمال ضئيل جداً يكاد ينعدم ، ومع ذلك فقد كان زهرة أول من أصيب يومئذ بنشابة فغرست فيه من ذلك الفصم !

المنجنيق

قال بعضهم : «انزعوها عنه» .

قال : «دعونى فإن نفسى معى ما دامت فىَّ لعلىَّ أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة» ، ثم مضى نحو المجوس فضرب بسيفه شهربراز من أهل اصطخر فقتله وانكشف أصحابه[1] .

عسل إفريذين

قال أنس بن الحليس الأنصارى[2] وفلان الهجيمى :

«بينما نحن محاصرو بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم أشرف علينا رسول فقال : إن الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم!»

فبدر الناس (سبقهم) أبو مفزر الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدرى ما هو ولا نحن ، فرجع الرجل. ورأيناهم يقطعون (يعبرون) إلى المدائن. فقلنا : يا أبا مفزر ، ما قلت له؟ فقال : لا والذى بعث محمداً بالحق ما أدرى ما هو ، إلا أن على سكينة ، وأنا أرجو أن أكون قد أنطقت بالذى هو خير!

وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال : يا أبا مفزر ما قلت ، فوالله إنهم لهراب؟

فحدثه بمثل حديثه إيانا . . .

فنادى فى الناس ثم نهد بهم وإن مجانيقنا لتخطر عليهم ، فما ظهر على المدينة أحد ولا

(١) الطبرى ٤ / ٦ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه . .
وقال اللواء الركن محمود شيت خطاب فى كتابه «قادة فتح العراق والجزيرة» : «إنه لم يرد ذكر زهرة فى أى معركة بعد بهرسير ، مما قد يفهم منه أن إصابته كانت جسيمة حتى ذكر بعضهم إنه استشهد بها» .
ولكننا عثرنا على ذكر لزهرة بعد ذلك ، وسيأتى فى بحثنا هذا ، فقد خرج فى المقدمة بعد فتح المدائن للمطاردة وجمع الغنائم التى فر بها المجوس حتى بلغ جسر النهروان وكل وجه على مقدارها . وعاش زهرة حتى عصر الحجاج بن يوسف الثقفى ، وقد كبر وهرم وضعف بصره وقتل وهو على ذلك بساباط فى حروب الخوارج ضد شبيب الخارجى .

(٢) الطبرى ٤ / ٧ س ش س عن سماك بن فلان الهجيمى عن أبيه وعن محمد بن عبدالله عن أنس بن الحليس وعن سعيد بن المرزبان عن مسلم .
الإصابة ٤٥٦ – وقد مر بنا ذكر أنس بن الحليس كرسول يحمل رسالة من سعد إلى عمر بعد القادسية .

خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمّناه ، فقال : إن بقى فيها أحد فما يمنعكم؟ (يعنى لم يبق فيها أحد ، فما الذى يمنعكم؟)

فتسوّرها الرجال وافتتحناها فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها . فسألناهم وذلك الرجل : لأى شىء هربوا؟

فقالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل إفريذين[1] بأترج كوثى. فقال الملك : واويله! ألا إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شىء ألقى على فى هذا الرجل لننتهى ، فأرزوا إلى المدينة القصوى» (انحازوا إلى اسبانبر وطيسفون) .

وقال حبيب بن صهبان : «دفعنا إلى المدائن – يعنى بهرسير – وهى المدينة الدنيا ، فحصرنا ملكهم وأصحابه حتى أكلوا الكلاب والسنانير ، قال : ثم لم يدخلوا حتى ناداهم مُنادٍ : والله ما فيها أحد ، فدخلوها وما فيها أحد»[2] .

وسقطت بهرسير

دخل سعد والمسلمون بهرسير آخر معاقل الفرس قبل المدائن لا يفصلها عنها غير دجلة . كان ذلك فى جوف الليل ، فتقدموا خلالها حتى وقفوا على النهر فى مقابلة اسبانبر إحدى المدائن السبع وهى مقر الأكاسرة ، فلاح لهم وسط الظلام إيوان كسرى بقبته البيضاء الشامخة وجدرانه البيضاء ، يعلو على أشجار البساتين ، فصاح ضرار بن الخطاب القرشى : «الله أكبر ، أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله» ، وتابعه المسلمون على التكبير . نعم ، هذا ما وعد به الله ورسوله . ومرة أخرى نتذكر غزوة الخندق ، ولا بد أن يكون ضرار قد عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم من العام الرابع من هجرة النبى ﷺ ، حين جمعت اليهود قريشاً والأحزاب للقضاء على المسلمين قضاء لا يبقى ولا يذر . يومذاك أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق أمام المدينة ، فصمدت لهم صخرة بيضاء ضربها رسول الله ﷺ بالمعول وهو يكبّر كلما لمع منها الشرر . سألوه[3] عن ذلك ، فقال : «ضربتُ ضربتى الأولى فبرق الذى رأيتم

(١) فى رواية ابن حجر «عسل اربدبن» – الإصابة ٤٥٦ .
(٢) الطبرى ٤ / ١٧٠ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك .
(٣) الطبرى ٢ / ٥٦٩ عن محمد بن بشار عن محمد بن خالد بن عثمة عن كثير بن عمر بن عوف المزنى عن أبيه عن جده .

أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها. ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيتم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها...».

يومذاك كان ضرار بن الخطاب مازال مشركاً وكان من قادة قريش فى حصارها المدينة، وهو اليوم مسلم مؤمن من أبطال المسلمين فى فتوح العراق، وهذا إيوان كسرى، أو أبيض كسرى - كما قال ضرار - على مرمى البصر.

الله أكبر

وارتجّ المكان بالصوت الرخيم لستين ألفاً ظلوا يُكبرون من الليل حتى أصبحوا[1]:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

لا إله إلا الله.

الله أكبر ولله الحمد.

الله أكبر كبيراً.

والحمد لله كثيراً.

وسبحان الله بُكرة وأصيلاً.

لا إله إلا الله وحده.

صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده.

لا إله إلا الله.

ولا نعبد إلا إياه.

مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

---

(١) لم يذكر الرواة هذا النص للتكبير أمام المدائن. ولكنه هو تكبير الفتح الذى ردده المسلمون لأول مرة يوم فتحوا مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار سنة فى الفتح. هذا التكبير - ربما لجماله ورخامته وعذوبة ترنيمه هو الذى اعتاد المسلمون اليوم ترديده فى عيدى الفطر والأضحى بدلاً من الصيغة الواردة لتكبير التشريق الذى هو سنة فى العيدين.

تكبير رخيم يصدر عن القلوب قبل أن يخرج من الحناجر، فتتردد أصداؤه فى أجواز السماء ويسمعه يزدجرد ومن معه فى المدائن فيزيدهم رعباً على رعبهم. لهذا التكبير أكبر متعة من أترج كوثى ومن عسل إفريذين.

أنزل سعد جيشه فى بهرسير ونقل إليها معسكره، ثم أراد العبور إلى المدائن من جنوبها وجنوبها الشرقى، فوجد المجوس قد جمعوا السفن على مسافة مائة وثمانين كيلو متراً جنوب المدائن، ومائة وثلاثين كيلو متراً شمالها، فيما بين البطائح وتكريت، وضموها إلى البر الشرقى لدجلة، والنهر عريض متسع فكيف العبور؟

الباب الثانى

المدائن مدينة مفتوحة

مدائن كسرى

والآن هذه هى المدائن عاصمة الساسانيين. كانت سبع مدائن فى العهد الأخير للدولة الساسانية. والمدائن هى[1] التسمية التى استعملها العرب قبل الإسلام وبعده. كان يدخل فيها طيسفون (بالبهلوية تيسبون)، وسلوقية وهى ويه أردشير أقدم المدائن السبع، وهذه كانت غربى دجلة تواجه طيسفون فى شرقيه وأسبانبر (أو أسفانبر Aspanabre) الذى كان به طاق كسرى، وقد كان مكاناً غاصاً بحدائق القصر الملكى وأشجاره (وهى الآن خرائب) والرومية (أورومكان) التى أنشأها كسرى أنوشروان بعد أن استولى على أنطاكية ونقل سكانها إلى مدينة جديدة أنشأها لهم قرب المدائن، ونقل لها من الشام وردوس الرخام والمرمر والفسيفساء الزجاجية والحجارة المصقولة، حتى تكون كمدن الروم، وسورها من الطين (وهو اليوم خرائب)، وقد بناها تشابه أنطاكية، فمضى أهل كل بيت من سكانها إلى ما يشبه منازلهم، وبنى كسرى بها الحمامات وحلبات السباق، ومنح سكانها مزايا مثل حرية العقيدة المسيحية.

وسلوقية[2]، التى أعاد بناءها أردشير الأول وأسماها ويه أردشير (يعنى بيت أردشير)، كانت محاطة بسور من اللبن الذى جُلب من بابل، ويحيط بمساحة تبلغ حوالى ٢٫٨٦٠٫٠٠٠ متراً مربعاً (وهو السور الغربى فى الخريطة) وكان يتاخمها مدينة ماخوزا.

ويه أردشير كانت مدينة كبيرة مرصوفة الطرق، حظائر البهائم فيها تجاور المساكن، وكان سكانها الأثرياء يملكون المواشى التى ترعى نهاراً فى واد مستطيل مجاور لمدينة ماخوزا يسمى عقبة ماخوزا، وكان للمدينة سوق كبيرة بها تجار النبيذ من اليهود وتجار متجولون لشتى السلع. الحمّالون فى حركة دائبة والشراء واسع، حتى أن السلاسل والأساور الذهبية كانت السيدات يهبنها عن سعة إلى الفقراء، وكان المتسولون يأخذونها بدل النقود. وكان أهلها

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٣٦٧ - ٣٧٣، كريستنسن.

(٢) ذكر بعضهم أن سلوقية والرومية شىء واحد.

مفرطين فى الترف وتعاطى المشروبات الكحولية، منصرفين عن الأمور الروحية. وقد اختصت سلوقية وماخوزا بصناعة أكياس النقود ونوع من الحصير يجفف عليه التمر. كذلك كانت ويه أردشير مركز النصارى فى فارس وبها قصر الجاثليق والكاتدرائية وكنائس أخرى. وفى ويه أردشير وطيسفون كانت جالية يهودية كبيرة وكان رئيسها (راس الجالوت) فى بلاد بابل مقيماً فى ماخوزا - يحملنا هذا على الظن أن ماخوزا كانت جنوبى ويه أردشير تجاه بابل. وعلى نحو خمسة كيلو مترات شمالى ويه أردشير كانت مدينة درزنيذان. كما كانت بلاش آباد (وهى ساباط) على الشاطئ الغربى لدجلة.

المدائن السبع، وفق اتجاه كريستنسن، كانت:

١- طيسفون.
٢- رومكان (وهى سلوقية).
٣- أسبانبر.
٤- ويه أردشير (وهى بهرسير).
٥- درزنيذان.
٦- بلاش آباد.
٧- ماخوزا.

ولكننا نشك أن بلاش آباد هى ساباط التى تظهر على خريطة العراق الأثرية من المدائن السبع فهى تبعد عن اسبانبر حوالى ثلاثين كيلو متراً فضلاً عن أنها لا تقع على دجلة.

ولقد وصف الرواة بهرسير بأنها المدينة الدنيا[١] ووصفوا ما وراء دجلة (أسبانبر وطيسفون) بأنها المدائن القصوى التى بها بيت كسرى، على كل حال لقد كانت المدائن السبع متقاربة بل ومتلاصقة على ضفتى نهر دجلة.

بعض هذه المدائن كانت محاطة بأسوار حصينة عليها أبواب محكمة، وكان جسر عائم يصل بين شرقى دجلة وغربيه، ولم يكن كافياً لمواجهة حركة المرور، فأمر سابور الثانى أن يُقام جسر آخر، فصار أحدهما للذهاب والآخر للإياب. وكانت طيسفون شرقى النهر محصنة بسور نصف دائرى عليه أبراج (مازال له بقايا حتى اليوم) قُدرت المساحة التى يحصرها بينه وبين النهر بنحو ٥٨٠ ألف متر مربع، وهذه هى المدينة العتيقة. وكان فى

(١) الطبرى ٤ / ٨ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك.

ركنها الجنوبى الشرقى بستان كسرى (ومازال جزء من سور ذلك البستان إلى اليوم كان يحيط بساحة كبيرة للغزلان) وكانت أسبانبر محاطة من جنوبيها بمجرى دجلة القديم.

كانت هناك قصور ملكية على شاطئ دجلة. وأيام سابور الثانى كان هناك قصر صغير جميل للصيد يظلله الشجر ويطل على واد به أشجار الكروم والسرو خارج سلوقية، وكانت حيطانه مزينة بنقوش تمثل الملك وهو فى الصيد يقتل الوحوش. وكان قصر الملك فى طيسفون قريباً من النهر، وهو الذى هدمه المعتضد والخليفة المتوكل لاستعمال أنقاضه فى بناء قصر فى بغداد.

لم يكن دخول المدائن فى عصر الساسانيين مسموحاً للأجانب إلا بإذن خاص، فكان عليهم أن يتوقفوا فى مدينة من خمس، فيتوقف فى هيث القادمون من سوريا، وفى العذيب الوافدون من الحجاز، وفى صريفين القادمون من فارس، وفى حلوان القادمون من بلاد الترك، وفى الأبواب (اربند) القادمون من الخزر. وكان إيوان كسرى (قاعة العرش) هو أهم معالم المدائن.

أعجب عبور فى التاريخ

أيام من صفر

تم اقتحام بهرسير فى صفر ١٦هـ، وطلب المسلمون السفن فلم يقدروا على شىء منها بعد أن حازها جميعاً الفرس إلى شاطئهم، فاضطر سعد إلى الإقامة ببهرسير أياماً من صفر يريده المسلمون على العبور وهو حريص عليهم حتى جاءه بعض الفرس فدلوه على مخاضة يخوض منها دجلة إلى صلب الوادى، ولكن سعداً أبى وتردد عن ذلك.

مياه دجلة

مياه النهرين (دجلة والفرات) تقل كثيراً صيفاً وخريفاً حتى يصبح فى إمكان الرجل العبور خوضاً فى أماكن متعددة، ولكنها تبدأ فى الازدياد شتاءً حتى يفيض أحدهما أو كلاهما لكثرة الأمطار على منابعهما بجبال أرمينيا وكردستان. وفى الربيع تذوب الثلوج على جبال أرمينيا وتكثر السيول ويمتلئ حوض النهرين بما يؤدى إلى فيضانات خطيرة تغرق البلاد، وتنتشر الأمراض ولا سيما الملاريا(١).

ونهر دجلة صالح للملاحة بين البصرة وبغداد (بغداد شمالى المدائن) من فبراير إلى أغسطس، للسفن التى لا يزيد غاطسها عن أربعة أقدام، إذا استثنينا فترة الفيضان فى أبريل ومايو. أما باقى شهور السنة فغير صالح للملاحة، فيما عدا شط العرب الذى يصلح للملاحة طوال السنة حتى للسفن الكبيرة(٢).

وشهر صفر ١٦هـ قد وافق شهر مارس ٦٣٧م، ولعل ذلك كان فى نصفه الثانى، فكان الزمن يسمح بالفعل بوجود مخاضات فى دجلة لا سيما وأنه - شأن نيل مصر - يعترض مجراه

(١) العراق قديماً وحديثاً ٥٩.

(٢) الجغرافيا العسكرية للشرق الأوسط ٢٨٣.

بعض الجزر النهرية التى تظهر فى التحاريق ويغطيها الفيضان، ولكنه أيضاً زمن على أبواب الفيضان وموعده المعتاد أن يبدأ فى شهر أبريل. غير أن فيضان ذلك العام فاجأهم مبكراً فجاء فى شهر مارس، وطم الماء وسعد فى تردده - أو نقول فى تريثه كعادته - فى شأن المخاضة.

رؤيا صدق عجيبة

وأتاه رجل من المجوس فقال له(١):

«ما يقيمك؟ لا يأتى عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شىء فى المدائن». ذلك أن يزدجرد شرع بنقل كنوزه وأمواله إلى عمق فارس. ونام سعد وهو مشغول الفكر بشأن العبور، فرأى رؤيا أن خيول(٢) المسلمين تقتحم اللجة وتعبر دجلة وهو فى فيضان عظيم. ومن المعلوم أن الخيل تعوم فى الماء، فعزم سعد على العبور وتحقيق رؤياه، فجمع الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا فيناوشونكم فى سفنهم، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم.

وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا، ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم».

(١) الطبرى ٣ / ١٠ س ش س عن الوليد بن عبدالله بن أبى طيبة عن أبيه.

(٢) الطبرى ٤ / ٩ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك.

كتيبة الأهوال

عرف المسلمون سعداً حذراً حريصاً يؤثر التؤدة دائماً، فحين سمعوا منه عزمه على عبور دجلة على ظهور الخيل، عرفوا أنه اطمأن إلى ذلك فاطمأنوا إليه وقالوا جميعاً:

«عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل».

فشكل سعد رأس حربة للعبور أساسها التطوع، فقال:

«من يبدأ ويحمى لنا الفراض (الشاطئ) حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج؟» فتطوع له ذو البأس والقوة عاصم بن عمرو، وتطوع بعده ستمائة من أهل النجدة، فاستعمل سعد عليهم عاصماً.

لقد كان لدى سعد كتيبة شديدة المراس اسمها «الخرساء» جمعت فحول فرسانه ذوى القوة والبأس الشديد والجسارة، فيها القعقاع بن عمرو وحمال بن مالك والربيل بن عمرو، ولكن سعداً مع ذلك آثر أن يكون هذا الاقتحام تطوعاً صرفاً ليس فيه شبهة تكليف..

وسار عاصم بكتيبته حتى وقفوا على شاطئ دجلة، فطلب منهم متطوعين ليكونوا مقدمة لهذه المقدمة، قال:

«من ينتدب معى لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبروا؟؟»

فتطوع له ستون، فجعلهم عاصم نصفين على خيول إناث وذكور ليكون أسلس لعوم الخيل، ثم اقتحم واقتحموا معه دجلة واقتحم بقية الستمائة على أثرهم وسائر الجيش يقف على الشاطئ مستعداً، فكان من طليعة السابقين أصم بنى ولاد من بنى التيم والكلج الضبى وشرحبيل بن السمط وأبو مفزر الأسود ابن قطبة وحَجْل العجلى ومحفز وأبو عبيد الله ومالك بن كعب الهمدانى وغلام من بنى الحارث بن كعب.

كتيبة عاصم هذه عرفت بكتيبة الأهوال. وأى هول أكبر من أن يقتحم دجلة فى فيضانه بستمائة فارس على ظهور الخيل لينتزعوا مدائن بنى ساسان من أنياب الأسد، وهم لا يعرفون ما أعد الفرس لهم دفاعاً عن مدائنهم!.

التحام فى النهر

ورآهم المجوس من الشاطئ الآخر فأعدوا لهم مثلهم واقتحموا دجلة أيضاً وأعاموا خيلهم ليلتقوا بالمسلمين وسط النهر دفاعاً عن مدائنهم فى معركة نهرية. حدث ذلك والمسلمون أقرب إلى شاطئ المدائن. وارتفع صوت عاصم فى أصحابه يقول لهم:

«الرماح الرماح، اشرعوها وتوخوا العيون».

اختار السلاح واختار التكتيك. فالتقوا بالمجوس وتطاعنوا، فراح جنود الأهوال ينفذون أمر عاصم وعمدوا إلى الطعن فى العيون واستدار المجوس نحو شاطئهم والمسلمون يطعنون خيلهم من خلفهم برماحهم فتندفع بركابها نحو بر المدائن لا يملك فرسانها منعها.

وكان المجوس على الشاطئ يرمون المسلمين فى النهر بنشابهم فلم يصيبوا منهم غير رجل من طيء اسمه سليل بن يزيد بن مالك السنبسى[١] لم يصب يومئذ غيره. ولحق بهم عاصم وكتيبته إلى الشاطئ والتحموا بهم فقتلوا أكثرهم وهرب بعضهم عوراناً بعد أن أصيب فى عينه، ثم تراجعت قواتهم عن الشاطئ ولحق سائر الستمائة بأوائلهم الستين فى تلاحق لا تردد فيه، واستمر القتال على الشاطئ حتى أتى رجل إلى المجوس فقال لهم[٢]:

«علام تقتلون أنفسكم، فوالله ما فى المدائن أحد!»

لقد كان حرس الشاطئ بمثابة حرس مؤخرة تقاتل لتعطيل اقتحام المدائن حتى يتسنى للآخرين الهرب[٣]. وفى رواية البلاذرى أن ذلك العبور كان من المخاضة التى دلّ عليها سعد عند قرية الصيادين[٤].

وفى رأينا أن العجم أخطأوا فى تكتيك الدفاع عن المدائن، فلو أنهم ثبتوا على شاطئهم يقيمون غلالة من النبال يرمون بها المسلمين وخيلهم فى النهر لكان أجدى لهم من إقحام

(١) فتوح البلدان ٦٥١ عن عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة بن الحكم. وعن ابن عبيدة معمر بن المثنى عن أبى عمرو بن العلاء.

(٢) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب.

(٣) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.
» » » وشاركهم سماك الهجيمى.

(٤) لم نستطع تحديد مكان تلك القرية.

خيلهم لجة الماء، ولم تكن خيلهم فى مستوى الخيول العربية ولا مقاتلوهم على المستوى القتالى للمسلمين، ولا معنوية هؤلاء التى تلزمهم للثبات كمعنوية هؤلاء التى تدفعهم إلى الهجوم.

ومن المعلوم فى الحروب أنه يتعذر استعمال أسلحة الرمى والقذف مع أسلحة الالتحام اليدوى معاً فى آن واحد. ولذلك ورغم مهارة الفرس فى استخدام القوس فإنهم لم يتمكنوا من إصابة سوى مسلم واحد، ونعتقد أن سبب ذلك هو وجود المجوس مع المسلمين فى النهر فى معركة تلاحم بالسلاح الأبيض يداً بيد، فكان قومهم يخشون من إصابتهم بسهامهم. ولكن ما الذى أوقع الفرس فى ذلك الخطأ الفتاك؟ لا شك أنه عامل المفاجأة الذى يشل المأخوذ به عن الاتزان العصبى وعن التفكير المتزن السليم.

رأس جسر

هذا وقد وقف سعد على شاطئ بهرسير والمسلمون معه قد ملأوا الساحل يرقبون كتيبة الأهوال وما تصنع. فلما رأى سعد أن عاصماً قد استولى على ساحل أسبانبر وتمكن منه أحس بأن مراكز الفرس على الجانب الآخر قد سقطت بأهون مما كان يتوقع، فهذه عاصمتهم وعز ملكهم، وكان ظنه أن دفاعهم عنها واستماتتهم دونها ستكون أشد مما رأى فقال:

«والله لو كانت الخرساء، فقاتلوا قتال هؤلاء القوم هذه الخيل لكانت قد أجزأت وأغنت»(٢).

ثم أذن للناس فى اقتحام دجلة وقال لهم:

«قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

وأقحم جند سعد خيولهم لجة دجلة وقد علا فيضانها وتلاطم موجها وهى ترمى بالزبد وقد اسود ماؤها مما يحمل من الطمى. وكان المسلمون فى عبورهم دجلة قد اتخذ كل منهم رفيقاً، فهم مثنى مثنى ما يكترثون وقد راحوا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض.

فى السنوات الأخيرة شغلت حركة الفتح الفرس عن رعاية شئون دولتهم فأنهكتهم واستنزفتهم، فعمت المجاعة وتفشت الأوبئة وانتشر الطاعون حتي عم أهل فارس. وصف

---

(١) لم نستطع تحديد مكان تلك القرية.

(٢) الطبرى ٤ / ١١ س ش س عن بدر بن عثمان عن أبى بكر بن حفص بن عمر.

الطبرى طاعون عهد شيرويه الذى وقع عام ١٢هـ - ٦٣٣م أثناء حملة خالد فقال: «هلك فيه الفرس إلا قليلاً منهم»(١).

وقد تجدد هذا وعم أهل فارس إبان فتح(٢) المدائن. قال الراوية حبيب ابن صهبان(٣): «... حتى أكلوا الكلاب والسنانير». فكان ذلك مما زاد الفرس بلاء.

وليس المقصود بالطاعون هنا المرض المعروف الذى تنقله البراغيث، ولكن الطاعون عند العرب أى وباء(٤).

فزع وجلاء

كان يزدجرد يعلم يقيناً أن المسلمين يريدون العبور، ولكن استحواذه على السفن وحرقه الجسر(٥) منحه قدراً من الاطمئنان، ثم كان يعلم أن الفيضان سوف يجعل هذا العبور المستحيل أكثر استحالة. ولكنه فى الوقت نفسه صار ذا تجربة مع المسلمين ويعلم من تجاربه معهم أنهم قضاء وقدر ولا يقف فى سبيلهم شيء. فكان بين هذا وذاك، نجده يتصرف تصرف المحتاط الذى يخشى تمكن المسلمين من مدائنه، فلما سقطت بهرسير شرع ينقل كنوزه وأمواله ونساءه(٦) وحريمه وعياله من المدائن. فجعل بيت ماله بالنهروان وأرسل عياله إلى حلوان على مسافة تزيد عن مائتى كيلو متر من المدائن. ثم نجده مطمئناً فيبقى بنفسه فى قصره لم يبرحه، وقد وكل أمر معركة المدائن إلى مهران الرازى (من الرى جنوب بحر قزوين) وإلى نخيرجان (من الباب غربى بحر قزوين) ولعلهما كانا يمثلان نوعية جيش الدفاع عن المدائن. ولعل يزدجرد قدّر أن أى إجراء يتخذه سعد ليعبر دجلة لن يكون قبل شهور، بعبارة أخرى قبل أن يجيء الفيضان ثم ينحسر، وبعبارة ثالثة ليس قبل نهاية أغسطس ودخول شهر سبتمبر، أى بعد ستة أشهر.

ولكن هؤلاء الجبابرة من المسلمين قد فعلوها وأحدثوا معجزة جديدة من معجزاتهم فى

---

(١) الطبرى ٢ / ٢٢٩.

(٢) فتوح البلدان ٦٤٨.

(٣) الطبرى ٤ / ٨ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك.

(٤) فى مختار الصحاح: الطاعون الموت من الوباء.

(٥) فتوح البلدان ٦٥٠.

(٦) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

حربهم معه، فاتخذوا من خيلهمّ مركبات برمائية وفاجأوه ومن معه بما لم يكن فى حسبانهم ولا خطر على بالهم. ونظر جنود يزدجرد إلى هذه الخيل التى ملأت دجلة وجعلوا يرددون بالفارسية «ديوان آمد»، ويقول بعضهم لبعض: «والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن[1].

هذه المفاجأة السريعة أفزعت يزدجرد حتى أنه - فيما يبدو - خشى الخروج من باب قصره، إذ كانت واجهته شرقية حيث عبر المسلمون على بُعد مئات قليلة من الأمتار، والطريق مفتوح.. فدلاه قومه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض فى زبيل. وإذا لم ننس فهذا هو الفرار الثانى ليزدجرد مختبئاً فى زبيل (الزبيل: القفة أو الوعاء أو الجراب) وقد كان الأول يوم أخفته أمه فى زبيل وهرّبته حيث اختبأ عند أخواله فى أصطخر حين قتل عمه شيرويه سائر أعمامه وأباه شهريار وكل من انتسب إلى كسرى.. فسماه النبط «برزبيلا».

ومضى يزدجرد الملك هارباً إلى حلوان ومعه وجوه أساورته، وقد حمل معه ما استطاع مما بقى بالمدائن من بيت ماله وخزائنه وخف متاعه والنساء[2] والذرارى. وقد ذكر الثعالبى أن يزدجرد انسحب من المدائن إلى حلوان ومعه ألف طباخ وألف مطرب وألف فهّاد وألف بازيار فضلاً عمن سواهم، وعنده أنه فى خف[3].

حديث بين قرينين

هذا وسعد يطوى مياه دجلة وقرينه سلمان الفارسى. كان سلمان يحب سعداً جمعهما حُب فى الله ورسوله وجهاد فى سبيله، وهما قرينان فى هذا العبور والمياه تتلاطم وترغى وتزبد، لعل سلمان أن يكون قد ذكر الحديث الذى رواه هو نفسه عن رسول الله ﷺ: «إن المسلم إذا لقى أخاه فأخذ بيده تحاتّت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف، وغفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر»[4].

والخيل تعوم بهم وسعد يقول: «ذلك تقدير العزيز العليم، حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرن الله وليَّه وليظهرن الله دينه وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن فى الجيش بغى أو

(١) الطبرى ٤ / ١٤ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك - وديوان آمد بالفارسية يعنى جاءت الشياطين.
(٢) فتوح البلدان ٦٤٨.
(٣) كريستنسن ٤٨٥.
(٤) الطبرانى فى الكبير.

ذنوب تغلب الحسنات».

قال له سلمان: «الإسلام جديد. ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر. أما والذى نفس سلمان بيده، ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً».

وغطى المسلمون سطح الماء حتى ما عاد يُرى من الشاطئ، وعبروا وهم يتجاذبون الحديث بل وهم فيه أكثر حديثاً منهم فيما لو كانوا على البر، وخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً ولم يغرق منهم أحد[1].

ولقد كان أحدهم يتعب فيجد تحت أقدامه من الأرض جرثومة يريح عليها. ولذلك أسماه الرواة[2] «يوم الجراثيم». والذى يبدو لنا أن الأرض رغم الفيضان لم تكن بعيدة الغور، لا سيما والجزائر النهرية من طبيعة المكان، غطاها الفيضان فكانت استراحات لمن أجهده الأمر.

حادثان صغيران

حادث صغير يرويه أبو عثمان النهدى، وكان شاهد عيان[3]، قال:

«إنهم سلموا من عند آخرهم إلا رجلاً من بارق يدعى غرقدة زال عن ظهر فرس له شقراء كأنى أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه فأخذ بيده فجرّه حتى عبر، فقال البارقى، وكان من أشد الناس: «أعْجَزْتَ الأخوات أن يَلِدْن مثلك يا قعقاع!» وكان للقعقاع فيهم خئولة.

حادث آخر أصغر من هذا: كان مالك بن عامر العنزى حليف قريش قريناً لعامر بن مالك، وكان لمالك قدح له عَلاَّقة رثة بالية انقطعت فذهب الماء بالقدح، فقال عامر لمالك: «أصابه القدر فطاح». (يعنى سقط).

فقال مالك وكله أمل فى الله حتى فى قدح فقده: «والله إنى لعلى جديله، ما كان الله ليسلبنى قدحى من بين أهل العسكر».

فلما عبروا إذا رجل من كتيبة الأهوال التى تحمى الشاطئ قد سار منحدراً مع النهر حتى

(١) الطبرى ٤ / ١١ س ش س عن بدر عن عثمان عن أبى بكر بن حفص بن عمر.
(٢) الطبرى ٤ / ١٢ و١٣ س ش س عن القاسم بن الوليد عن عمير الصائدى عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.
(٣) الطبرى ٤ / ١٢ س ش س عن أبى عمر دثار عن أبى عثمان النهدى.

طلعت عليه أوائل جيش سعد وقد ضربت الرياح والأمواج القدح حتى قذفت به إلى الشاطئ، فتناوله برمحه فجاء به إلى العسكر فعرفه مالك فأخذه[1] وعاد يقول لعامر: «ألم أقل لك!».

فيما عدا ذلك تم العبور بلا حوادث..

قال شهود العيان:

وفى وصف ذلك العبور يروى شاهدنا أبو عثمان النهدى فيقول: «طبقنا دجلة خيلاً ورجلاً ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد، فخرجت بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها لها صهيل، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء..»[2].

وقال شاهد آخر هو قيس بن أبى حازم:

«خضنا دجلة وهى تطفح، فلما كنا فى أكثرها ماء لم يزل فارس واقفاً ما يبلغ الماء حزامه»[3].

وأدرك أوائل المسلمين أواخر المجوس وفيهم رجل منهم يعترض على طريق من طرقها يحمى مؤخرة أصحابه فى فرارهم وهو يضرب فرسه للإقدام فيحجم، ثم يضربه للهرب فيتقاعس، حتى لحقه رجل من جيش سعد يدعى ثقيفاً من بنى عدى بن طريف فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه[4].

أعجلت مفاجأة العبور التى لم تستغرق كثيراً الفرس عن أن يحملوا معهم أكثر أموالهم، فتركوا فى خزائنهم من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف (التحف) والأدهان ما يفوق الحصر ولا يُدرى ما قيمته، وتركوا وراءهم ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة، وخرجوا هراباً لا يلوون على شيء إلا على أنفسهم.

(١) الطبرى ٤ / ١٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمر وسعيد.
« ٤ / ١٣ س ش س عن الأعمش بن حبيب بن صهبان أبى مالك.
(٢) الطبرى ٤ / ١١ س ش س رجل عن أبى عثمان النهدى.
(٣) الطبرى ٤ / ١٣ س ش س عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم.
(٤) الطبرى ٤ / ١٥ س ش س محمد وطلحة والمهلب.

فى طرقات المدائن

واندفعت كتيبة الأهوال على رأسها بطل المسلمين عاصم بن عمرو[1] التميمى فى طرقات المدائن تتبعها الكتيبة الخرساء يقودها أخوه القعقاع بن عمرو، ومن ورائهم جيش سعد بأكمله، فأخذوا فى سككها التى أقفرت من الجند وخلت من الناس لا يلقون فيها أحداً. لم يقع سوى حادثان[2] فرديان:

الأول: من أحد فرسان المجوس.

قال له قومه: «دخلت العرب وهرب أهل فارس».

فلم يلتفت إلى قولهم وكان واثقاً بنفسه فمضى حتى دخل بيت بعضهم وهم ينقلون ثياباً لهم.

قال: «ما لكم؟»

قالوا: «أخرجتنا الزنابير وغلبتنا على بيوتنا».

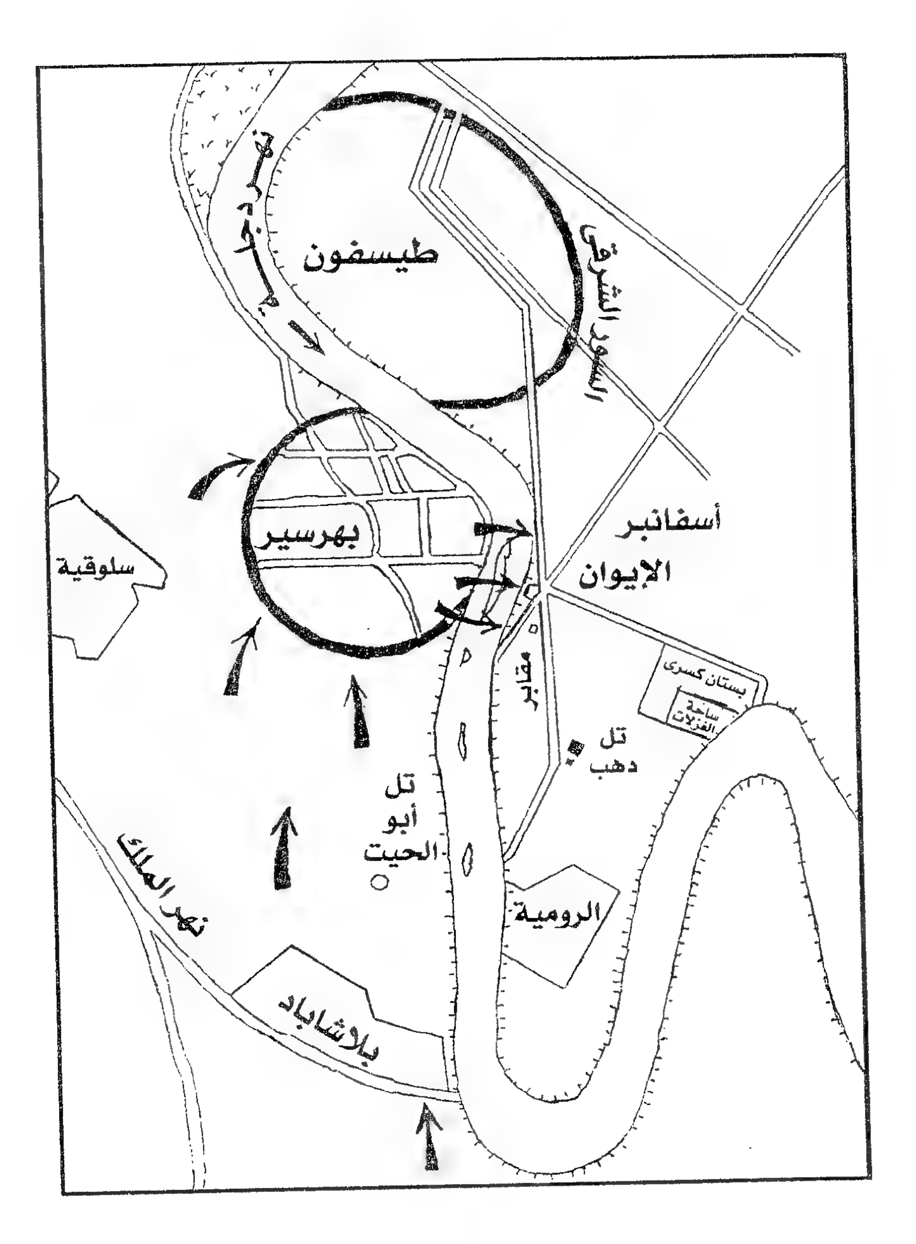
فأصابته هستيريا وصار يرمى نشابه بقوسه فيرشقها بالحيطان حتى فرغت وأمر أحد خدمه فأسرج له دابته فانقطع حزامه فشده على عجل وركب ثم خرج إلى طرقات المدائن فوقف بها والمسلمون يتقدمون، فمر به ابن المخارق بن شهاب فطعنه وهو يقول: «خذها وأنا ابن المخارق» فقتله ثم مضى لا يلتفت إليه.

والحادث الثانى على ألسنة رواته قالوا:

«وأدرك رجل من المسلمين رجلاً منهم معه عصابة يتلاومون ويقولون: من أى شيء فررنا! ثم قال قائل منهم لرجل منهم: ارفع لى كرة، فرماها لا يخطئ (ويبدو أن ذلك كان اختباراً عندهم لثبات الأعصاب) فلما رأى ذلك عاج وعاجوا معه وهو أمامهم فانتهى إلى ذلك الرجل (من المسلمين) فرماه من أقرب مما كان يرمى منه الكرة ما يصيبه (من اضطراب أعصابه) حتى وقف عليه الرجل (المسلم) ففلق هامته وقال: «أنا ابن مشرط الحجارة» وتفار عن الفارسى أصحابه»[3].

وبلغ المسلمون القصر الأبيض، قصر كسرى الذى به إيوانه، وجدنا صفته مما ذكر الرواة المؤرخون الذين عاصروه ومما بقى منه من أطلال وخرائب.

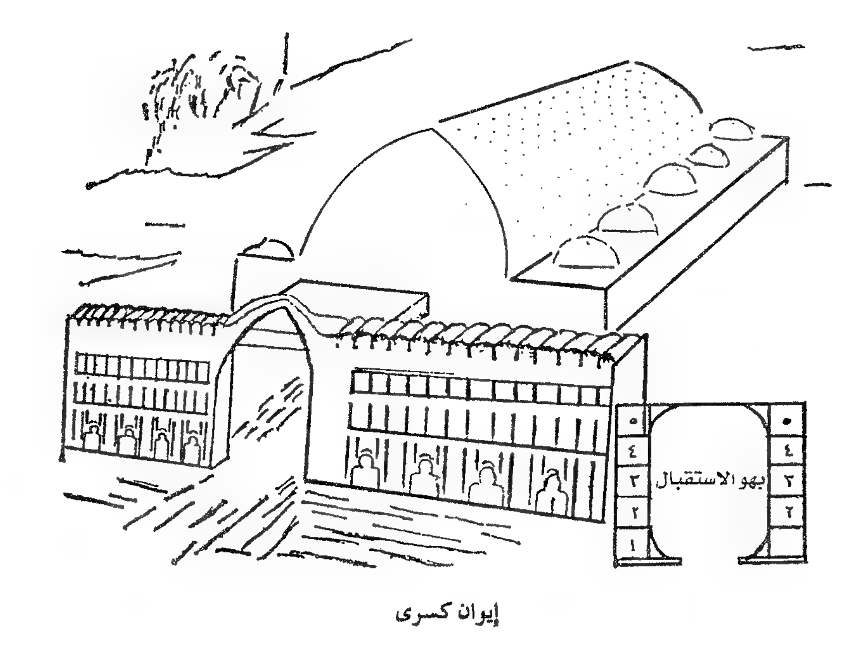
(١) هذه المرة الثانية التى دخل عاصم المدائن، الأولى حين كان فى وفد سعد إلى يزدجرد يوم حمله بوقر من تراب. (انظر القادسية ٧٢).
(٢) الطبرى ٤ / ١٥ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب.
(٣) الطبرى ٤ / ١٥ س ش س عن سعيد بن المرزبان.



خريطة (٤) سقوط المدائن المقياس ١/١٠٠,٠٠٠

إيوان كسرى(١)

أشهر قصور الساسانيين هو القصر الأبيض الذى به إيوان كسرى أو (طاق كسرى) فى أسبانبر. وينسب تخريبه إلى الخليفة المنصور ١٣٨هـ - ٧٥٤م بعد الفتح بمائة وعشرين عاماً. والطاق هو الإيوان فى ذلك القصر الذى بناه كسرى أنو شروان. وتشغل خرائب القصر الآن ٣٠٠×٤٠٠ متر تشمل الطاق بقايا بناء إلى الشرق منه على مسافة مائة متر تقريباً، وتلاً فى جنوبه يسمى حريم كسرى، وفى شماله خرائب أخرى، والطاق هو الجزء الوحيد من هذه المجموعة الذى بقيت له خرائب هامة.



إيوان كسرى

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٣٧٤ - ٣٨٥.

وواجهة هذا البناء شرقية يبلغ ارتفاعها ٢٨ أو ٢٩ متراً عبارة عن حائط مصمت بلا نوافذ تزينه الطيقان، وصور الأعمدة المنقوشة البارزة والعقود المصفوفة على أربع طبقات، وحائط سرى له نظائر فى المدن الشرقية التى تأثرت عمارتها بالفن اليونانى (نظنه حائطاً مزدوجاً بين جانبيه فراغ) وكانت هذه الواجهة مغطاة بالمصيص المنقوش أو بلوحات من الرخام. هذه الواجهة كلها والبهو الأكبر كانا قائمين حتى سقط الجناح الشمالى عام ١٨٨٨م وصار الجناح الجنوبى آيلاً للسقوط.

وفى وسط الواجهة تشرف القبة البيضاوية الهائلة شاملة سمك البناء كله وهى القبة التى تغطى بهو الاستقبال وتبلغ أبعادها ٦٣ر٢٥ × ٧٢ر٤٣ متراً، وكان خلف كل من جناحى الواجهة خمسة أبهاء أقل ارتفاعاً تعلوها قباب شديدة الاستدارة يسدها من الخارج جدار مرتفع، والظاهر أنه كان خلف الحائط الذى يسور القصر بهو مربع فى الوسط عند مخرج بهو الاستقبال وحجرتان أصغر حجماً على كلا الجانبين. وكانت الجدران والقباب جميعاً من اللبن وكان سمكها خارقاً للعادة. وقد كشفت الحفائر الحديثة عن قطع زخرفية ساسانية من المصيص.

البناء

والطاق بالغ فى السذاجة من حيث البناء، ولكنه يفرض على ناظريه الإعجاب بأبعاده وضخامة أجزائه لا بجماله فى جملته أو تفصيله. وكان المقام العادى للملك.

يقول ابن خرداذبه: «ما بناء بالجص والآجر أبهى من إيوان كسرى بالمدائن».

وقال البحترى[1] يصفه:

وكأن الإيوان من عُجْب الصنعة ... جَوبٌ فى جنب أرعَنَ جلْس[2]

مشمخر تعلو له شرفات ... رفعت فى رءوس رَضوى وقُدس[3]

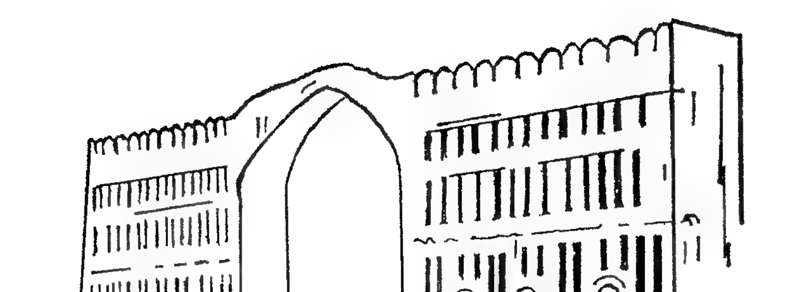
ليس يدرى أصُنْعُ إنسٍ لجنٍ ... سكنوه أم صنع جنٍ لإنسِ

---

(١) ابن خرداذبه ١٦٢.

(٢) جوب الشىء: قطع وسطه، جوب: قطع أو نحت. أرعن: طويل الأنف. الجلس: الصخرة الشديدة، كل مرتفع من الأرض - المنجد - فهو يشبه الإيوان بأنه من عجب بنائه كأنه منحوت فى صخرة شديدة عالية شاهقة فى السماء.

(٣) رضوى وقدس: جبلان مرتفعان قرب المدينة.



أطلال الإيوان ١٨٨٨م

داخل الإيوان

وكانت أرض القاعة مفروشة بالسجاجيد العظيمة، كما كانت تعلق على الجدران سجاجيد. وكانت على الأجزاء العارية من الجدران لوحات ملونة من الفسيفساء أعدت بأمر كسرى أنو شروان، ولعل صناعها كانوا من الروم الذين أرسلهم الإمبراطور جستنيان إلى كسرى، ومن بين هذه اللوحات ما يمثل حصار أنطاكية وما دار حولها من معارك ظهر فيها كسرى فى رداء أخضر يمتطى جواداً أصفر ويستعرض صفوفاً من الجنود الفرس والروم.

وينفذ الضوء إلى هذا الإيوان من خلال مائة وخمسين كوة فى القبة يبلغ قطر الواحدة منها ما بين ١٢ و١٥ سنتيمتراً. وكان هذا المظهر الفخم يذهل من يراه لأول مرة فيسجد لهيبته. وعندما يغادر الملك القاعة يلف التاج المعلق بستار من الديباج حفظاً له من التراب. وقد ظلت الحلقة التى كانت تثبت بها السلسلة لم تنزع من مكانها حتى عام ١٨١٢م.

التاج

وكان العرش فى أقصى القاعة خلف ستار يبعد عنه عشرة أذرع (حوالى خمسة أمتار)، وكان يقف على بعد من الستار كبار الضباط والنبلاء. وفجأة يرفع الستار فيظهر الشاهنشاه الجالس على وسادة من الحرير المذهب فوق عرشه فى رداء موشى بالذهب.

وكان التاج الذهبى مطعماً بالفضة والجواهر، منها «اليواقيت الرمانية التى يضىء منها

الظلام ويستصبح بها فى الليالى المرخية سدولها، وباللؤلؤ التى بلغ إحداها بيض العصافير والزبرجد[1] والزمرد التى تسيل لها عيون الأفاعى».

هذا التاج كان يزن واحداً وتسعين كيلو غراماً ونصف، ولذلك لم يكن يلبس على الرأس وإنما كان معلقاً بسلسلة من ذهب طولها سبعون ذراعاً مثبتة فى قمة القبة التى تعلو الطاق. فكان الملك يجلس فى مجلسه ذلك ثم يُدخل رأسه فى التاج المعلق قبل رفع الستائر المسدلة.

وصف تيوفيلاكت Théophylacte هرمز الرابع فى مجلسه[2] هذا فقال:

«كان التاج من الذهب المحلى بالجواهر، وكان الياقوت الذى رصع به يشع عظمة وقد أحيط بصف من اللالىء كانت تلمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهية، حتى أن العين إذا وقعت عليه كانت تقع فى عُجب محير. وكان يلبس سروالاً مزخرفاً بالذهب منسوجاً باليد غالى الثمن، وكان لباسه فى الجملة يدل على الأبهة التى يتطلبها من يحب التيه».

البروتوكول

وإذا أذن الملك بدخول أحد دخل وهو يسحب من كمه ششتقة بيضاء نقية يغطى بها فمه لمنع أنفاسه من تلويث الأشياء ولوقاية جلال الملكية. فإذا اقترب ارتمى على الأرض أمام الملك ويبقى ملقى إلى أن يأمره بالوقوف فيقف ويمد سبابته اليمنى إلى الأمام، وهو تقليد للاحترام كان عند الفرس، فإذا دعاه الملك للكلام بدأ ببعض الأدعية المناسبة للملك، وكانت الصيغة الشائعة أن يقول: «أنو شك بويد» يعنى خلَّدك الله، فكان المخاطب له لا يخاطبه باسمه ولا يذكره أبداً.

وكان لمجلس الملك ثلاث طبقات:

(١) الأصل فى الجواهر التبلور ثم النقاء فالشفافية مع استثناء فى بعض أصنافها.. ويعد الماس والياقوت والزمرد من الجواهر الثمينة، وغيرها يعد نصف ثمين. وتبنى قيمة الجوهر على: ١- الجمال. ٢- الثبات على تغير الأجواء والأمان. ٣- الندرة. ويتميز العقيق بلونه الأحمر، أما الزمرد والزبرجد فهما من مادة البريل، وهو صخر مؤلف أساساً من سلكات الألمنيوم والبريليوم، ولونه فى العادة أخضر باهت وقد يكون شديد الخضرة أو أصفر أو أزرق أو بنياً أو وردياً أو لا لون له. فالزمرد هو الأخضر العميق الخضرة من مادة البريل، أما الزبرجد فهو الأزرق المخضر الباهت منها.

(٢) إيران فى عهد الساسانيين ٤٤٨.

الأولى: الأساورة وأبناء الملوك، ومكانهم على عشرة أذرع من الستار (عشرين ذراعاً من العرش).

والثانية: بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم، ومكانهم على عشرة أذرع من الطبقة الأولى.

والثالثة: المضحكون وأهل الهزل والبطالة، ومكانهم على عشرة أذرع من الطبقة الثانية.

وكان الموكل بحفظ الستار رجلاً من أبناء الأساورة يقال له «خرم باش» ومعناها «كن مرحاً»، فإذا جلس الملك فى مجلسه أمر خُرَّم باش رجلاً فيرتفع إلى أعلى مكان فى دار الملك ويغرد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر ويقول: «يا لسان احفظ رأسك فإنك تجالس ملك الملوك» فلا يجترىء أحد أن يحرك لسانه حتى تحرك الستارة.

وكان الملوك الساسانيون يحتاطون لأنفسهم خشية الاعتداء عليهم، فكان كثير منهم يفرش للملك منهم أربعين فراشاً فى أربعين موضعاً ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد لا يشك أنه نائم فيه ولعله ألا يكون على واحد منها. ولم يكن لأحد أن يدخل غرفة الملك إلا بعد أن يؤذن له حتى أولاده الصغار. وكانت عقوبة الإعدام توقع فى ساحة مكشوفة بالقصر، فيها تُقطع الرقاب والأيدى أو الأرجل أو تسلخ الوجوه لمن استحق سخط الملك.

كم تركوا من جنات وعيون..

سار سعد مع جيشه فى طرقات خالية وسكك خاوية بين ديار أسبانبر وبساتينها وأشجارها الباسقة، حتى انتهى إلى إيوان كسرى درة الديار الفارسية ورمز عزتها ومركز قوتها وسطوتها، فأقبل يقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾. وأحاط وجيشه بالقصور وفيها بقية من الفرس، فتقدم إليهم داعية الحملة سلمان الفارسى إلى الإسلام، قال:

«إنى منكم فى الأصل وأنا أرق لكم، ولكم فى ثلاث أدعوكم إليها:

ما يصلحكم أن تسلموا فإخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

وإلا فالجزية،

وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين».

وأمهلهم ثلاثاً. فلما كان اليوم الثالث نزلوا على أداء الجزية والدخول فى ذمة المسلمين وحمايتهم. فخرجوا من القصر ودخله سعد فصلى فى الإيوان صلاة الفتح - ولا تصلى جماعة - ثمانى ركعات متصلات لا يفصل بينهن، واتخذ الإيوان مُصلى، وإن فيه تماثيل الجص للرجال والخيل والصور واللوحات فما حركها ولا أزالها من مكانها بل تركوها على حالها، ولم يمتنع ولا المسلمون عن الصلاة فيه لذلك.

الكعبة

ولعل سعداً والمسلمين حين بهرتهم فخامة الإيوان وأبهته أن عادوا بذاكرتهم وتصورهم إلى أعظم بيت عندهم، إلى أول بيت وُضِعَ للناس بمكة.. إلى الكعبة بيت الله الحرام الذى يعظمونه ويحجون إليه وتتجه إليه وجوههم مع كل صلاة خمس فرائض فى كل يوم. لا بد وأن يكونوا قد قارنوا بين هذا البيت وبيت كسرى، فكيف كان بيت الله يومها؟

فيما يروى ليث[1]:

(١) فتوح البلدان ٥٣ عن عفان والعباس بن الوليد النرس عن عبد الواحد بن زياد عن ليث.

- لم يكن للمسجد الحرام على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه جدار يحيط به. فلما استخلف عمر بن الخطاب وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً فهدمها وزادها فيه - وربما كان ذلك بعد فتح المدائن.

- وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان حتى أخذوها بعد، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة (حوالى متراً ونصف متر) فكانت المصابيح توضع عليه. وكانت كسوة الكعبة[1] فى الجاهلية الأنطاع، وهى البسط من الجلد والأغطية، فكساها رسول الله ﷺ الثياب اليمانية ثم كساها عمر وعثمان رضى الله عنهما القباطى[2].

الإقامة بالمدائن

وعزم سعد على الإقامة بالمدائن، فأتم الصلاة يوم دخلها - وكانوا قبل ذلك يقصرون - ثم كانت أول صلاة جمعة بالعراق جمعت جماعة بالمدائن فى صفر ١٦هـ.

وتقديرنا أنها الجمعة التى صادفت ١٩ صفر ١٦هـ - ٢١ مارس ٦٣٧م، أو التى تليها ٢٦ صفر ١٦هـ - ٢٨ مارس ٦٣٧م، وهى الأرجح عندنا باعتبارها الأقرب إلى موسم الفيضان الطبيعى لدجلة.

وبعث سعد إلى عمر بالفتح مع حليس بن فلان الأسدى.

(١) فتوح البلدان ٥٤.

(٢) بعد ذلك وسعه عثمان بن عفان توسعة أخرى واتخذ له الأروقة، ثم وسعه الوليد بن عبدالملك فى عهد بنى أمية وحمل إليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء وشملته توسيعات أخرى بعد ذلك. وقد كساها يزيد بن معاوية بعد ذلك الديباج الخسروانى.

غنائم المدائن

مطاردة

نزل سعد إيوان كسرى ثلاثة أيام. ومع نزوله أمر زهرة أن يخرج فى المقدمة لمطاردة الفلول وجمع الأنفال التى فروا بها، وأمره أن يبلغ النهروان وكل وجه على مقدارها[1]. وكان أهل المدائن عند الهزيمة قد تناهبوا ثم فروا فى كلّ وجه. وانسحب مهران بعسكره إلى النهروان فعسكر بها.. ووكل سعد أمر الأقباض إلى عمرو بن عمرو بن مقرن المزنى وأمره بجمع ما فى القصر والإيوان والدور وما يأتيه به الذين خرجوا فى طلب الفرار وملاحقتهم، وإحصاء ذلك كله، فما أفلت أحد منهم بشىء ولا بخيط إلا ما كان فى معسكر مهران بالنهروان. وقد ألح عليهم المطاردون حتى استنقذوا كل ما فى أيديهم ورجعوا بما أصابوا من الأقباض فضموه إلى ما قد جمعوه، وكان أول شىء جمع يومئذ ما فى القصر الأبيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن. وبعد اليوم الثالث تحول سعد من الإيوان إلى القصر الأبيض. ولنترك وصف ما جمعوا من غنائم الحرب للرواة الذين شهدوها يحكوها لنا بأسلوبهم، فهم مراسلونا من وراء الزمن.

قال الشهود:

قال حبيب[2] بن صهبان: «دخلنا المدائن فأتينا على قباب تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هى آنية الذهب والفضة، فقسمت بعد بين الناس... وقد رأيت الرجل يطوف ويقول: من معه بيضاء بصفراء (يعنى فضة بذهب - كأنما يبحث عن الفكة، الفراطة). وأتينا على كافور كثير فما حسبناه إلا ملحاً فجعلنا نعجن به حتى وجدنا مرارته فى الخبز».

وقال الشعبى: «جعل المسلمون يأخذون الكافور يومئذ فيلقونه فى قدورهم ويظنونه ملحاً»[3].

---

(١) الطبرى ٤ / ١٥ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعقبة وعمرو وابن عمر وسعيد.
(والمقصود بـ س ش س حيثما ترد هى جملة الطبرى: كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف).
(٢) الطبرى ٤ / ١٧ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان.
(٣) فتوح البلدان، قال: حدثنا عبدالله بن صالح قال: حدثنى من أثق به عن المجالد ابن سعيد.

وقال الرفيل بن ميسور[1]: «خرج زهرة فى المقدمة يتبعهم حتى انتهى إلى جسر النهروان وهم عليه فازدحموا فوقع بغلٌ فى الماء فعجلوا وكلبوا عليه، فقال زهرة: إنى أقسم بالله إن لهذا البغل لشأناً، ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشىء بعد ما أرادوا تركه. وإذا عليه حلية كسرى: ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التى كان فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة. وترجل زهرة يومئذ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه (من الماء) فجاءوا بما عليه حتى رده إلى الأقباض ما يدرون ما عليه، وارتجز يومئذ زهرة:

فدى لقومى اليوم أخوالى وأعمامى
هم كرهوا بالنهر خذلانى وإسلامى
هم فلجوا بالبغل فى الخصام
بكل قطاع شئون الهام[2]
وصرعوا الفرس على الآكام
كأنهم نعم من الأنعام

وقال الكلج الضبى[3]:

«كنت فيمن خرج فى الطلب فإذا أنا ببغّالين (اثنين يسوقان البغال)، قد ردا الخيل عنهما بالنشاب فما بقى معهما غير نشابتين، فألظظت بهما[4]، فاجتمعا فقال أحدهما لصاحبه: ارمه وأحميك أو أرميه وتحمينى، فحمى كل منهما صاحبه حتى رميا بهما. ثم إنى حملت عليهما فقتلتهما وجئت بالبغلين وما أدرى ما عليهما حتى أبلغتهما صاحب الأقباض، وإذا هو يكتب ما يأتيه به الرجال وما كان فى الخزائن والدور، فقال: على رسلك حتى ننظر ما

---

(١) الطبرى ٤ / ١٧ س ش س عن النضر بن السرى عن ابن الرفيل عن أبيه الرفيل ابن ميسور.
(٢) فلج الشىء: شقه، وفلج الرجل: فاز على خصمه. الشؤن: موصل أو ملتقى قبائل الرأس، والشؤن: العرق الذى تجرى منه الدموع - المنجد.
(٣) الطبرى ٤ / ١٧ س ش س عن هبيرة بن الأشعث عن جده الكلج.
(٤) لاظه لظاظاً فى الحرب: ألح عليه. لظه لظاً ولظيظاً: ألزمه وثابر عليه. تلاظ القوم فى الحرب: تطاردوا - المنجد.

معك، فحططت عنهما فإذا سفطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرى مفسخاً، وكان لا يحمله إلا اسطوانتان وفيهما الجوهر، وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر، وغير الديباج منسوجاً ومنظوماً».

وخرج القعقاع بن عمرو[١] يومئذ فى الطلب فلحق بفارسي يحمى الناس فاقتتلا فقتله وإذا مع المقتول جنيبة عليها عيبتان[٢] وغلافان فى أحدهما خمسة أسياف وفى الآخر ستة أسياف. وإذا فى العيبتين أدراع، فإذا فى الأدراع درع كسرى ومغفره وساقاه وساعداه، ودرع هرقل ودرع خاقان ودرع داهر ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش (الذى قتل فرخزاذ أبا رستم بتواطؤ مع آزرميدخت) ودرع النعمان (بن المنذر) وكانوا استلبوا ما لم يرثوا، استلبوها أيام غزاتهم خاقان وهرقل وداهر، وأما النعمان وبهرام فحين هربا وخالفا كسرى. وأما أحد الغلافين ففيه سيف كسرى (أنو شروان) وهرمز (الرابع ابن كسرى) وقباذ (الثانى، وهو شيرويه بن كسرى أبرويز، توفى أثناء حملة خالد بن الوليد مع فتح الحيرة) وفيروز. وإذا السيوف الأُخَر سيف هرقل وخاقان وداهر وسياوخش والنعمان... فجاء به إلى سعد فقال: «اختر أحد هذه الأسياف، فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام، وأما سائرها فنفلها فى الكتيبة الخرساء – التى كان سعد يعجب بها أيما إعجاب – إلا سيف كسرى والنعمان ليبعثوا بهما إلى عمر لمعرفتهم بهما، وحبسوهما فى الأخماس، وحلى كسرى وتاجه وثيابه، ثم بعثوا بذلك إلى عمر ليراه المسلمون ولتسمع بذلك العرب. وعلى هذا الوجه سلب خالد بن سعيد عمرو بن معدى كرب سيفه الصمصامة فى الردة (يعنى استولى عليه وغنمه) والقوم يستحيون من ذلك.

وقال عصمة بن الحارث الضبى[٣]: «خرجت فيمن خرج يطلب، فأخذت طريقاً مسلوكاً وإذا عليه حمّار (يسوق حماراً) فلما رآنى حثه فلحق بآخر قدامه، فمالا وحثا حماريهما فانتهيا إلى جدول قد كسر جسره فثبتا حتى أتيتهما ثم تفرقا، ورمانى أحدهما فألظظت به فقتلته وأفلت الآخر. ورجعت إلى الحمارين فأتيت بها صاحب الأقباض فنظر فيما على

(١) الطبرى ٤ / ١٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب.

(٢) الجنيبة: الدابة تقودها إلى جنبك. والعيبة: الزنبيل من جلد – المنجد.

(٣) الطبرى ٤ / ١٨ س ش س عن عبيدة بن معتب عن رجل من بنى الحارث بن طريف عن عصمة بن الحارث الضبى.

أحدهما فإذا سفطان فى أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثفره[١] ولببه الياقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر، وإذا فى الآخر ناقة من فضة عليها شليل[٢] من ذهب وبطان من ذهب ولها شناق[٣] أو زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت، وإذا عليه رجل من ذهب مكلل بالجوهر كان كسرى يضعها إلى اسطوانتى التاج».

(١) الثفر: السير الذى به مؤخر السرج. استثفر الكلب بذنبه: جعله بين فخذيه. استثفر المصارع بثوبه: ثنى طرفه فأخرجه من بين فخذيه وحرزه فى حجزته – المنجد.

(٢) الشليل: مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز الدابة من وراء الرجل، وهى الدرع الصغيرة تحت الكبيرة أو الغلالة تلبس تحت الدرع – المنجد.

(٣) الشناق: حبل يجذب به رأس البعير وكل خيط علقت به شيئاً – المنجد.

سمو وأمانة

وقال أبو عبيدة العنبرى[1] : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجلَ بِحُقٍ معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه. فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به.

فعرفوا أن للرجل شأناً، فقالوا : من أنت ؟

فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه.

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس.

وأصاب المسلون بالمدائن فيلاً[2]، وقد كانوا قتلوا ما لقيهم قبل ذلك من الفيلة، فكتبوا فيه إلى عمر، فكتب إليهم أن يبيعوه «إن وجدتم له مباعاً»، فاشتراه رجل من أهل الحيرة، فكان عنده يُريه الناس ويجلله ويطوف به فى القرى. استولى المسلمون على ذلك كله وعلى أكثر منه مما بقى فى بيوت كسرى وقصوره من الثلاثة آلاف مليون درهم التى كان كسرى برويز جمعها ومما جمع شيرويه ومَن بعده.

وفى ذلك يقول أبو بجيد نافع بن الأسود[3] :

وأسلنا على المدائن خيلا   بحرها مثل برهن أريضا

فانتثلنا خزائن المرء كسرى   يوم ولوا وحاص منا جريضا[4]

---

(١) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س عن هبيرة بن الأشعث عن أبى عبيدة العنبرى.

(٢) فتوح البلدان ١٢٨ عن أبى مسعود الكوفى عن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمى عن مشايخ من أهل الكوفة.

(٣) الطبرى ٤ / ١٤ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبى مالك.

(٤) حاص : هرب. جرض بريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحزن. جرضه جرضاً : خنقه. الجرض والجريض : الريق

وقال الشعبى : «أخذ المسلمون يوم المدائن جوارى من جوارى كسرى جيء بهن من الآفاق فكن يصنعن له، فكانت أمى إحداهن»[1].

وقال جابر بن عبدالله[2] صحابى النبى ﷺ :

«والله الذى لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة. ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذى هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب وقيس بن المكشوح».

وقال سعد بن أبى وقاص[3] :

«والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما بق لأهل بدر لقلت وايم الله على فضل أهل بدر. لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم».

يغص به، ومنه المثل : حال الجريض دون القريض. أفلت فلان جريضاً : أى مشرفاً على الهلاك - المنجد.

(١) فتوح البلدان ٦٥٢ عن عبدالله بن صالح قال : حدثنى من أثق به عن المجالد بن سعيد.

(٢) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبدالله.

(٣) الطبرى ٤ / ١٩ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

تقسيم الأنفال

وكان الذى ولى قسمة ذلك بين المجاهدين سلمان بن ربيعة الباهلى. وجمع سعد الخمس وأدخل فيه كل شىء أراد أن يعجب منه عمر، من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم. ونفل من الأخماس، وفضل بعد القسم بين الناس وإخراج الخمس القِطْف[١]، وهو بساط كسرى لم يعتدل قسمته، فجمع سعد المسلمين وقال لهم: إن الله قد ملأ أيديكم. وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى على شرائه أحد، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء. هل لكم فى أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه فنبعث به إلى عمر فيضعه حيث يرى، فإنا لا نراه يتفق قسمته، وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً.

فقالوا: «نعم هاء الله إذا».

فبعث به على ذلك الوجه. وكان الذى ذهب بأخماس المدائن إلى المدينة بشير بن الخصاصية. فلما قدم على عمر نفل من الخمس أناساً وقال:

«إن الأخماس ينفل منها من شهد ومن غاب من أهل البلاء فيما بين الخُمْسَيْن ولا أرى القوم جهدوا الخمس بالنفل».

ثم قسم الخمس فى مواضعه حتى جاء إلى القطف، فقال:

«أشيروا علىّ فى هذا القطف».

فأجمع ملؤهم على أن قالوا: «قد جعلوا ذلك لك فَرَ رأيك».

إلا ما كان من على بن أبى طالب فإنه قام حتى انتهى إلى عمر وقال له:

لم تجعل علمك جهلاً ويقينك شكاً؟ يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت، إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له.

---

(١) أوردنا وصفاً له فى «الطريق إلى المدائن» ١٠١ .

قال: «صدقتنى ونصحتنى».

فقطعه بينهم، فأصاب علياً قطعة منه وما هى بأجود تلك القطع، فباعها بعشرين ألفاً[١]!

وأكثر مسلمو المدينة فى فضل أهل القادسية، فقال عمر:

«أولئك أعيان العرب وغررها، اجتمع لهم مع الأخطار الدين، هم أهل الأيام وأهل القوادس».

ولما أتى بحلى كسرى وزيه فى المباهاة وزيه فى غير ذلك، وكانت له عدة أزياء لكل حالة زى، قال عمر: «على بمُحَلِّم»، وكان أجسم عربى يومئذ بأرض المدينة، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب، وصب عليه أوشحته وقلائده وثيابه، وأجلس للناس، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها، ثم قام عن ذلك فألبس زيه الذى يليه فنظروا إلى مثل ذلك فى كل نوع حتى أتوا عليها كلها، ثم ألبسه سلاحه وقلده سيفه فنظروا إليه فى ذلك ثم وضعه..

قال عمر: «والله إن أقواماً أدوا هذا لذوو أمانة».

ونفل سيف كسرى محلماً وقال: «أحمق بامرىء من المسلمين غرته الدنيا. هل يبلغن مغرور منها إلا دون هذا أو مثله؟ وما خير امرىء سبقه كسرى فيما يضره ولا ينفعه! إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتى عن آخرته، فجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته أو امرأة ابنه ولم يقدم لنفسه، ووضع الفضول مواضعها تحصل له وإلا حصلت للثلاثة بعده. وأحمق بمن جمع لهم أو لعدو جارف»[٢].

ورأى عمر سيف النعمان بن المنذر، فسأل جبيراً:

«إلى من كنتم تنسبون النعمان؟»

فقال جبير: «كانت العرب تنسبه إلى الأشلاء أشلاء قنص، وكان أحد بنى عجم بن قنص» (فجهل الناس عجم وقالوا لخم وعرف قومه باللخميين).

فقال: «خذ سيفه». ونفله إياه[٣].

---

(١) الطبرى ٤ / ٢١ س ش س عن محمد وطلحة وزياد والمهلب وشاركهم عمرو وسعيد.
الطبرى ٤ / ٢٢ س ش س عن عبدالملك بن عمير.

(٢) الطبرى ٤ / ٢٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

(٣) الطبرى ٤ / ٢٣ س ش س عن محمد بن كريب عن نافع بن جبير.

وولى عمر سعد بن أبى وقاص إمامة الصلاة وشئون الحرب لكل ما غلب عليه. وولى خراج ما سقى الفرات سويد بن مقرن المزنى، وخراج ما سقى دجلة النعمان بن مقرن المزنى..

وفى «نهاية الأرب فى أخبار الفرس والعرب»، وهو مؤلف عربى كتبه مجهول فى حوالى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، أن عمر علق التاج على الكعبة، ثم يقول المؤلف: «حيث يوجد اليوم»[1]. ولم نعثر على أية روايات أخرى عن مصير ذلك التاج، ولكن أحداً آخر خلاف ذلك المؤلف المجهول لم يذكر تعليق التاج على الكعبة، ولو كانت صحيحة لذكرها أمثال الطبرى وابن الأثير وابن كثير والبلاذرى.

---

(١) إيران فى عهد الساسانيين.

الباب الثالث

معركة جلولاء

الأحد أول ذى القعدة ١٦هـ - ٢٤ نوفمبر (تشرين الثانى) ٦٣٧م

استعداد فارسي جديد

حلوان عاصمة مؤقتة

ما أن استقر سعد بالمدائن وأوطنها المسلمين حتى أتاه الخبر بأن مهران الرازى قد عسكر بجلولاء على مسافة ١٥٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقى، وهى على النهر العظيم الذى تسير فيه السفن بين بعقوبا إلى باجسرا، وأنه قد تحصن بها وحفر الخنادق، وجعل عيالهم وأهليهم وأثقالهم بخانقين على حوالى ثلاثين كيلو متراً خلفهم، وتعاهدوا ألا يفروا(١)، وأن أهل الموصل (على حوالى ٤٥٠ كيلو متراً إلى الشمال) قد قدموا قواتهم بقيادة ا لأنطاق، فعسكرت بتكريت(٢) على نهر دجلة إلى الشمال بمسافة ٢٢٠ كيلو متراً من المدائن. ذلك أنه بعد فرار الفرس من المدائن اختار يزدجرد حلوان مقراً جديداً له، وهى تبعد عن المدائن أكثر من ٢٢٠ كيلو متراً إلى شمالها الشرقى.

---

(١) فتوح البلدان ٣٥٣.

(٢) الطبرى ٤ / ٢٤ س ش س عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم.
الطبرى ٤ / ٢٤ س ش س عن الوليد عبدالله بن أبى طيبة البجلى عن أبيه.
الطبرى ٤ / ٢٤ س ش س محمد وطلحة والمهلب وزياد وعمرو وسعيد.
الطبرى ٤ / ٢٥ س ش س عن عقبة بن مكرم عن بطان بن بشر.

خريطة (٥) جلولاء – ١ المقياس ١ / مليون

دفاعات في جلولاء

وقد كان هناك طريق حربى واسع يذهب من المدائن إلى همدان، تقع عليه دستجرد (أو دسكرة) على مسافة ١٠٧ كيلو مترات من المدائن[١]، وكان بها قصر كسرى برويز الذى سقط فى يد هرقل وخرّبه عام ٦٢٨م قبل الفتح الإسلامى، ومازالت هناك خرائب إلى اليوم تسمى زندان (يعنى السجن)، وكان لهذه المدينة سور محيط مشيد من الآجر الأحمر وكان كله قائماً أيام الجغرافى المسلم ابن رسته حوالى عام ٩٠٣م، ولم يبق اليوم من هذا السور غير جزء طوله نحو خمسمائة متر مع اثنى عشر برجاً فى حالة حسنة وأربعة مهدمة. أما داخل السور فكان خلوا من الخرائب منذ أيام ابن رسته، وهذا ما يفسره تخريب المدينة والقصر على يد هرقل. ونذهب إلى أن هذا هو السبب فى أن يزدجرد لم يتوقف فى دستجرد وإنما آثر أن ينزل حلوان وأن يترك جيشه فى جلولاء.

وبعد هذا نجد على نفس ذلك الطريق الحربى بين خانقين وحلوان «قصر شيرين» (حبيبة كسرى برويز وجدة يزدجرد لأبيه)، وهو الآن خرائب. ومازالت هناك قلعة مربعة تسمى قلعة خسروان أحاط بها خندق وعليها أبراج مستديرة وجسر من العقود، والساحة التى تشرف عليها القلعة تشمل متنزهاً عظيماً تمر المياه فوق حيطانه، كما يشمل قصراً صيفياً منيفاً اسمه حاجى قلعة سى (أو قلعة الحاج) وعمارة عظيمة تسمى جهار قابو (الأبواب الأربعة) يظهر أنها كانت تشبه إلى حد ما قصر المدائن. وجميع العمارات الساسانية كانت ذات قباب، وكان هناك عمارات أكثر خفة، وخاصة فى العراق، كانت ذات عمد من الخشب.

ترك يزدجرد ذلك كله وراءه، بينه وبين المسلمين.

وبطبيعة الحال، لم يكن الفرس ليتركوا الطريق من المدائن إلى حلوان مفتوحاً، فاختاروا جلولاء مكاناً لوقفة أخرى، وأمدهم يزدجرد بالرجال والأموال. وصلت القوات الفارسية المنسحبة وكذلك الإمدادات إلى جلولاء، وكانت وحدات من شتى جهات المملكة، منها ما كان من آذربيجان، ومنها ما كان من الباب (غربى بحر قزوين)، ومنها ما كان من الجبال (بين سهول العراق وهضبة إيران حيث تقع حلوان نفسها)، ومنها ما كان من عمق فارس شرقى الأهواز. هذه القوات جميعاً فى انسحابها نحو مستقبل مظلم مجهول بعد ما لاقت من

(١) إيران فى عهد الساسانيين ٤٣٨.

هزائم متكررة، كان كل منها يميل إلى الانسحاب نحو موطنه الأصلى، وقد ظهر لنا ذلك من قبل إثر معركة بابل، إذ آثر هرمزان أن ينسحب نحو موطنه بالأهواز ومهرجان قذق كما انسحب فيرزان إلى طريق نهاوند والماهين، ولم يشاركا فى معركة المدائن التى كانت ولا شك أهم من الأهواز. والآن وبعد أن بلغت جنود يزدجرد هذا المبلغ فى تقهقرها يوشك ذلك أن يتكرر فيحدث تفتت جديد. قال بعضهم لبعض: «إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً، وهذا مكان يفرق بيننا، فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم، فإن كانت لنا فهو الذى نريد، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا وأبلينا عذراً».

كان ذلك بجلولاء. أما أولئك الذين عسكروا بتكريت فهم جند الموصل وفدوا من الشمال. وغير هؤلاء وهؤلاء كانت للعجم مسالح فى الأبلة وأسفل دجلة وراءهم على البعد هرمزان بالأهواز.

خطة عمر

كتب سعد بذلك إلى عمر وجاءه جوابه:

«سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى اثنى عشر ألفاً واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وعلى ميمنته سعر بن مالك وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، واجعل على ساقته عمرو بن مُرة الجهنى[1].

وإن هزم الله الجندين: جند مهران وجند الانطاق (الذين بتكريت)، فقدّم القعقاع فى آثار القوم حتى ينزل بحلوان ويكون بين السواد والجبل فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز الله لكم سوادكم».

(١) ذكر البلاذرى تعبئة أخرى، فقال: حجر بن عدى الكندى على الميمنة، وعمرو بن معدى كرب على الخيل، وطليحة بن خويلد على الرجال - فتوح البلدان ٣٥٢.
وقد أخذنا برواية الطبرى ورجحناها، إذ المعلوم أن جيش المسلمين صار منذ القادسية فرساناً كله لا رجالة فيه، ولما رواه الطبرى فى قوله: «كان أبو بكر لا يستعين فى حربه بأحد من أهل الردة حتى مات. وكان عمر قد استعان بهم فكان لا يؤمر منهم أحد إلا على النفر وما دون ذلك، وكان لا يعدل أن يؤمر الصحابة إذا وجد من يجزى عنه فى حربه، فإن لم يجد ففى التابعين بإحسان، ولا يطمع من انبعث فى الردة على الرئاسة، وكان رؤساء أهل الردة فى تلك الحرب حشوة إلى أن ضرب الإسلام بجرانه (الطبرى ٤ / ٢٥ عن عمرو وعن الشعبى)».
وقد كان عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد من أصحاب الردة، ولكن الثابت أنهما كانا مع قوات المسلمين بجلولاء.

هاشم إمام جلولاء

ويبدو لنا أن مسئولية القائد مهران كانت أوسع من منطقة جلولاء، ولعلها شملت جميع قوات الفرس التى كانت بين يزدجرد والمدائن. وكان قائد فرسان المجوس فى جلولاء خرزاذ أخو رستم. وخرج هاشم من المدائن فى اثنى عشر ألفاً[1]. وكان فى المسلمين وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممن ارتد وممن لم يرتد. وسار بهم هاشم من المدائن أربعة أيام حتى بلغوا جلولاء فأحاط بها وحاصر المجوس فيها وطاولوه فكانوا لا يخرجون من استحكاماتهم إلا إذا أرادوا. كان المجوس يزاحفون المسلمين بأعداد كبيرة وبجلبة وأهاويل، وقد وقع أثناء هذا الحصار ثمانون زحفاً كان الظفر فيها جميعاً للمسلمين، ويعود العجم إلى ما وراء خنادقهم. واستمر الحصار على هذه الحال سبعة أشهر أو يزيد.

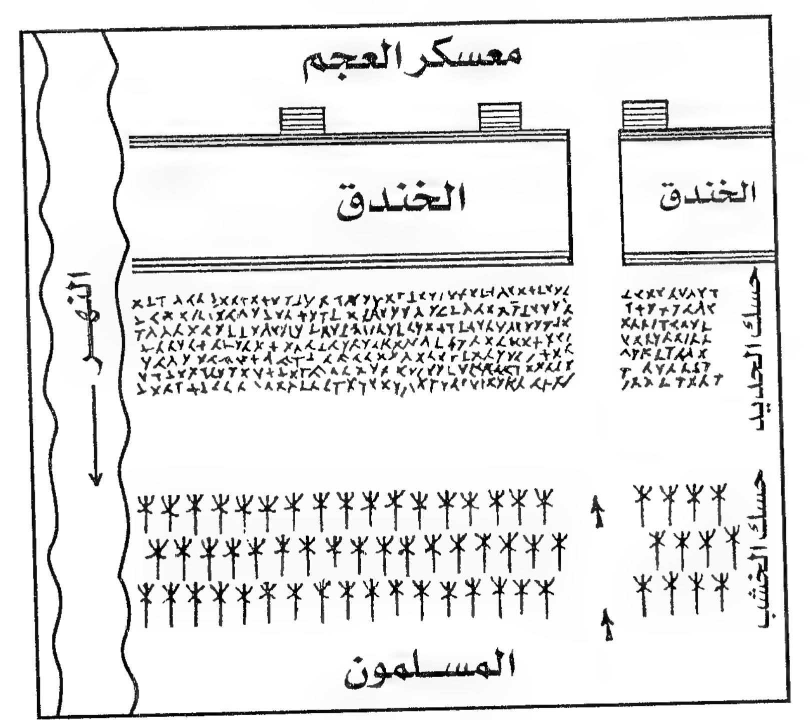
كان يزدجرد يحشد من أهل الجبال من حول حلوان ويمد قواته فى جلولاء بأمداد جديدة فى كل يوم. فطلب هاشم مدداً من سعد فأمده بثلاث دفعات من الفرسان كل منها مائتين فيهم فحول فرسان المسلمين، هذا وزحوف المجوس مستمرة تصطدم بالمسلمين ثم ترتد إلى استحكامات جلولاء. هذه الاستحكامات قامت على خندق كبير متسع وعميق حفره المجوس حول مواقعهم يحوطه حزام من حسك الخشب، وهى خوازيق من الخشب قد نصبوها كموانع لاندفاع الخيل، بين الخندق ونطاق الحسك مجال خالٍ. وقد جعلوا خلال الخندق وحزام الحسك طرقاً لهم يخرجون منها ويدخلون.

الاشتباك الأخير

وخرج المجوس فى زحف كبير من العدد والعدة، وكان هو الأخير، فقام هاشم فى جنده وخطبهم فقال:

«إن هذا المنزل منزل له ما بعده، أبلوا الله بلاء حسناً يتم لكم عليه الأجر والمغنم. واعملوا لله».

(١) يقول الرواة عمرو ومحمد والمهلب وطلحة وسعيد (الطبرى ٤ / ١٥) أن خروج هاشم من المدائن كان فى صفر ١٦هـ. ومن حيث كان فتح بهرسير ثم فتح المدائن فى ١٦هـ، وتقول الرواية أن سعداً كتب بعدها إلى عمر وجاءه منه رد، وهذا يستغرق لا أقل من شهر، فإننا نقدر خروج هاشم من المدائن إلى جلولاء لا بد وأن يكون قد تجاوز شهر صفر إلى ربيع الأول أو الثانى ١٦هـ - أبريل أو مايو ٦٣٧م.



خريطة (٦) معركة جلولاء – ٢

وكان الالتحام شديداً لم يقتتلوا مثله، رمياً بالنبل[١] وطعناً بالرماح حتى تقصفت، فاستلوا السيوف وتجالدوا بها حتى انثنت. ثم انهزم المجوس وتراجعوا فتبعهم المسلمون يشددون من ضغطهم عليهم حتى غلبوهم على خوازيق الخشب، ودار القتال خلال ممراتها حتى اكتسحوها وهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً. ثم جاءت ريح مظلمة[٢] عليهم كالليل فتحاجز الفريقان، وقد تم للمسلمين الاستيلاء على حزام الدفاعات الخشبية، وتهافت المجوس فى خندقهم فلم يتح لهم أن ينسحبوا إلى مواقعهم من خلال المسالك التى أعدوها لذلك خلال الخندق. وكان الخندق من عمق القاع بحيث تعذر على الخيل أن تخرج منه، فلم يجد المجوس بُداً أن يجعلوا فى خندقهم قطوعات ومدارج يطلعون عليها إلى جانبهم من وراء الخندق، فأفسدوا بذلك فاعليته كخط دفاع لا يمكن اجتيازه. وبلغ علم ذلك إلى المسلمين فعادوا ينظرون ويعاينون. ووجدها القعقاع فرصة، بينما قال بعض المسلمين لبعض: «ننهض إليهم

(١) فتوح البلدان ٦٥٣.

(٢) فى رواية أخرى أن الليل قد دخل فعلاً.

ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه».

قتال فى الليل

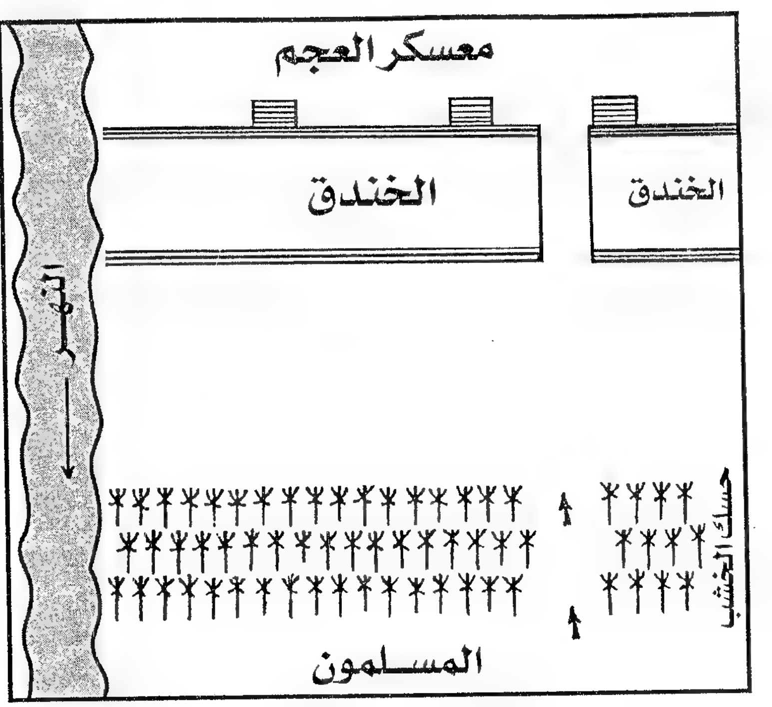
حينئذ وصلت دفعة من الفرسان الذين أرسلهم سعد كمدد، فيهم طليحة بن خويلد الأسدى وقيس بن مكشوح وعمرو بن معدى كرب وحجر بن عدى الكندى. وعاد القعقاع يزحف بمن معه نحوهم، فلما رآه المجوس يعيد صف صفوفه لمعاودة الزحف خرجوا يرمون حسك الحديد وينثرونه حول الخندق من جهة المسلمين فى المجال الخالى الذى كان بين الخندق وحسك الخشب الذى استولى عليه المسلمون. والذى نستطيع أن ندركه أن حسك الخشب كان خوازيق كبيرة الحجم كالمتاريس لصد الخيل وراكبيها، أما حسك الحديد فكان خوازيق صغيرة الحجم تُلقى على الأرض لتغرز فى أقدام الخيل. نثروا ذلك الحسك من حول الخندق إلا من جهة جعلوها ممراً لهم خرجوا منه لملاقاة المسلمين.

والتحم الفريقان مرة أخرى فاقتتلوا قتالاً شديداً والظلام يسحب رداءه على الميدان، قتالاً لم يقتتلوا مثله إلا ما كان ليلة الهرير، إلا أن قتال جلولاء كان أقصر زمناً وأعجل. وبلغ القعقاع وجنده مدخل الخندق فأخذ به وقد انعزلوا عن سائر المسلمين، فأمر مناديه فنادى:

«يا معشر المسلمين، هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به، فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله».

كانت لقطة بارعة سريعة البديهة من القعقاع صاحب الابتكارات. لم يعد المسلمون يشكون فى أن هاشماً فى الخندق، فكيف يتركونه بين المجوس! لم يحدث فى حروب العراق من قبل قط أن ترك المسلمون أميرهم لعدوهم ليقتلوه أو يأسروه، فحملوا حملة صادقة عنيفة لم يصمد لها العجم حتى أدركوا القعقاع وهو آخذ بمدخل الخندق يمنع المجوس من الانسحاب إليه.

وبدأت هزيمتهم فشرعوا يذهبون يمنة ويسرة عن المجال الذى يخرجهم إلى مأمنهم خلف خندقهم، فتورطوا بخيلهم فى حسك الحديد الذى أعدوه للمسلمين فكانوا أشبه شىء بجيش مدرع نزل إلى حقل ألغام، وأصاب الحسك خيولهم فنزلوا عنها وقاتلوا مشاة ولكن أى مشاة! مشاة مشتتة فى غير صفوف متراصة كما هو العهد بقتال المشاة. وتعقبهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا منَ لا يُعد. يقول الرواة: إن قتلى المجوس بلغوا مائة ألف فجللت المجال وما أمامه وما خلفه، ولذلك سميت جلولاء بما جللها من قتلاهم.



خريطة (٧) معركة جلولاء - ٣

رواية شاهد

قال محفز[١]: إنى لفى أوائل الجمهور مدخلهم ساباط ومظلمها، وإنى لفى أوائل الجمهور حين عبروا دجلة ودخلوا المدائن. ولقد أصبت بها تمثالاً لو قسم فى بكر بن وائل لسد منهم مسداً عليه جوهر فأديته.

فما لبثنا بالمدائن إلا قليلاً حتى بلغنا أن الأعاجم قد جمعت لنا بجلولاء جمعاً عظيماً وقدموا عيالاتهم إلى الجبال وحبسوا الأموال، فبعث إليهم سعد عمرَو ابن مالك بن عتبة بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة. وكان جند جلولاء أثنى عشر ألفاً من المسلمين على مقدمتهم القعقاع بن عمرو، وكان قد خرج فيهم وجوه الناس وفرسانهم، فلما مروا ببابل مهروذ صالحه دهقانها على أن يفرش له جريب أرض دراهم، ففعل وصالحه، ثم مضى حتى قدم عليهم بجلولاء فوجدهم قد خندقوا وتحصنوا فى خندقهم ومعهم بيت مالهم وتواثقوا وتعاهدوا بالنيران أن لا يفروا.

(١) الطبرى ٤ / ٢٦ س ش س عن عبيد الله بن محفز عن أبيه.

ونزل المسلمون قريباً منهم، وجعلت الأمداد تقدم على المشركين كل يوم من حلوان، وجعل يمدهم بكل من أمده من أهل الجبال. واستمد المسلمون سعداً فأمدهم بمائتى فارس ثم مائتين فى مائتين. ولما رأى أهل فارس أمداد المسلمين بادروا بقتال المسلمين وعلى خيل المسلمين يومئذ طليحة بن فلان أحد بنى عبدالدار، وعلى خيل الأعاجم خرزاذ بن خُرَّهرمز، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثله فى موطن من المواطن حتى أنفذوا النبل وحتى أنفذوا النشاب وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطبرزينات، فكانوا بذلك صدر نهارهم إلى الظهر، ولما حضرت الصلاة صلى الناس إيماء حتى إذا كان بين الصلاتين خنست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها.

فأقبل القعقاع بن عمرو على ا لناس فقال: «أهالتكم هذه؟» قالوا: «نعم نحن مكلون وهم مريحون والكال يخاف العجز إلا أن يعقب»، فقال: «إنا حاملون عليهم ومجادوهم وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننا، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا يكذبن أحد منكم» فحمل فانفرجوا فما نهنه أحد عن باب الخندق.

وألبسهم الليل رواقه فأخذوا يمنة ويسرة، وجاء فى الأمداد طليحة وقيس ابن المكشوح وعمرو بن معدى كرب وحجر بن عدى، فوافوهم قد تحاجزوا مع الليل. ونادى منادى القعقاع بن عمرو: «أين تحاجزون وأميركم فى الخندق؟» فتفارّ المشركون وحمل المسلمون، فأدخل الخندق فآتى فسطاطاً فيه مرافق[١] وثياب - وإذا فرش على إنسان، فأنبشه فإذا امرأة كالغزال فى حسن الشمس فأخذتها وثيابها فأديت الثياب وطلبت فى الجارية حتى صارت إلىَّ فاتخذتها أم ولد» اهـ.

مطاردة

تم فتح جلولاء فى أول ذى القعدة ١٦هـ-٢٤ نوفمبر ٦٣٧م، بعد فتح المدائن بتسعة أشهر[٢]. وكان فى الرسالة التى كتب عمر إلى سعد وأوردناها سابقاً أن يبعث القعقاع إلى حلوان بعد فتح جلولاء. فلما تمت هزيمةالمجوس فى جلولاء أمدهم سعد بأكثر من ثلاثة آلاف من المسلمين وأمره بالنهوض إلى حلوان[٣] على مسافة ١٨ فرسخاً من جلولاء[٤] (حوالى ٩٩ كيلو متراً) فأقام هاشم بن عتبة بجلولاء، وأمر القعقاع بن عمرو فانطلق فى آثار المجوس

(١) مرافق الدار: مصاب الماء ونحوها - مختار الصحاح.
(٢) الطبرى ٤ / ٣٢ س ش س عن عبدالعزيز بن سياه عن حبيب بن أبى ثابت وقالوا جميعاً.
(٣) فتوح البلدان ,٨٥٧.
(٤) ابن خرداذبة ١٩- من جلولاء إلى خانقينى سبعة فراسخ ثم إلى قصر شيرين ستة فراسخ ثم إلى حلوان خمسة فراسخ.

إلى خانقين فى جند من المسلمين من العرب ومن العجم الذين أسلموا، فأدرك سبياً كثيراً من سبيهم عُرف فى التاريخ بـ«سبى جلولاء» وقتل من أدرك من مقاتليهم، وكان مهران نفسه من قتلى خانقين. وكان فيرزان فى خانقين مع مهران، فلما أدركه القعقاع نزل عن فرسه وتركها وهرب خلال المرتفعات[1] الوعرة، ثم واصل فراره نحو الشرق.

مسلمون من غير العرب

من الطريف ومن إعجاز الإسلام أن نجد العجم الذين سبق أن أسلموا وانضموا إلى جيش سعد كانوا طليعة مع القعقاع وتحت قيادته فى هذه المعركة. ولا شك أنهم بإسلامهم هذا وانضوائهم مع المسلمين كانوا من جميع الوجوه أحسن حالاً من بنى جلدتهم الذين ظلوا على مجوسيتهم يقتلون على الكفر والوثنية ويدافعون بيأس عن نظام متهالك وملك يتهاوى. كان الإسلام يساوى مادياً ومعنوياً واجتماعياً بين هؤلاء الفرس وبين إخوانهم المسلمين من العرب من الجنود والقادة، من أعراب البادية ومن صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار على السواء. هذه المساواة كانوا يفتقدونها عند الفرس فى دولة قامت على الطبقات ومجوسية طبقية بكل معنى الكلمة. ولعلنا نذكر عن زرادشت منشىء الديانة المجوسية قوله لأتباعه:

«ولو أن حسناتكم تتجاوز عدد أوراق الشجر وقطرات المطر ونجوم السماء ورمال الشاطئ فلن تكون نافعة مقبولة إلا إذا قبلها الموبذان».

والموبذان هو الكاهن المجوسى. أين هذا من الدين الجديد الذى يقول نبيّه ﷺ: «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»!

ويقول عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم». فينفى الطبقية والوساطة حتى عن رسول الله ﷺ ومن باب أولى سائر الناس.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2].

---

(١) الطّبرى ٤ /٢٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والوليد بن عبدالله والمجالد وعقبة بن مكرم.

(٢) الأعراف: ١٩٤.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

فالكل أمام الله سواء وهو الذى يجزى عباده جميعاً دون أدنى وساطة أو معاونة من أحد منهم ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3].

إنا لنجد فى جميع العصور مواطنين من دولة ينضمون إلى أعداء دولتهم مقابل مال أو أجر أو بدافع من الغواية جرياً وراء امرأة مشتهاة تلقى فى طريقهم لتجنيدهم ضد وطنهم أو بغير ذلك من الدوافع... وليست هذه كتلك فهؤلاء المجوس الذين أسلموا إنما اتبعوا الرسالة العامة للبشر كافة وصدقوا بأنها تخاطبهم كما تخاطب العرب فآمنوا بها ودخلوا فيها ووجدوا فيها سعادة الدنيا وأمان الآخرة، وهذا هو الفارق الكبير بين الإيمان الحق وبين العمالة الدنيئة.

إن فى تاريخ نشر الدعوة وانتشار الإسلام فى الديار المفتوحة مجال واسع البحث، غير أنه يعفينا من الاستطراد وراء هذا الجانب أن ما يعنى به هذا البحث هو التاريخ الحربى فحسب وليس من هدفه التعرض لما سوى ذلك من الجوانب.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الأنعام: ١٤.

(٣) النحل: ٩٧.

سقوط حلوان

بلغت هذه الأخبار الجديدة، هزيمة جلولاء وسقوط خانقين ومقتل مهران إلى يزدجرد وهو بحلوان، وأدرك أن المسلمين على الطريق إليه، فخرج من حلوان كما خرج من المدائن سائراً في الجبال نحو الرى شمالاً، وترك بحلوان حامية عليها خسروشنوم لتعوق الزحف المظفر حتى يبتعد هو.

كان القعقاع يتقدم حتى جاوز قصر شيرين، وخرج خسروشنوم في قواته من حلوان للقاء القعقاع، وجعل زينبدى دهقان حلوان على مقدمته، فالتقوا على رأس فرسخ من حلوان (الفرسخ ٥٥٤٤ متراً)، والتحم بهم القعقاع ولقى زينبدى مصرعه، قتله عميرة بن طارق وعبدالله (لا ندرى ابن من)، فكان سلبه بينهما. وهرب خسروشنوم[1] ودخل القعقاع حلوان على رأس قواته.. حلوان المقر الثانى بعد المدائن ليزدجرد. وأنزل القعقاع من معه من العجم المسلمين وولى عليهم واحداً منهم اسمه قباذ.. كان أصله من أهل خراسان. وتقدم القعقاع فأقام على ثغرها فكان على الثغر وشئون الجزية، ودعا الأهالى إلى الجزية فرجعوا إلى ديارهم وأقروا بها، وظلوا على ذلك إلى أن تحول سعد من المدائن إلى الكوفة فلحق به القعقاع، وكان قد اطمأن تماماً إلى إسلام العجم الذين معه، فاستخلف قباذ على ثغر حلوان، ولعله كان أول عجمى يتولى قيادة ما مع المسلمين.

(١) الطبرى ٤ / ٣٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.
ويذهب البلاذرى إلى أن الذى دخل حلوان كان جرير بن عبدالله، وأنه فتحها صلحاً على أن كف عنهم وأمنهم على دمائهم وجعل لمن أحب منهم الهرب أن لا يعرض لهم. ثم خلف هاشم جريراً بحلوان ومعه عزرة بن قيس بن غزية البجلى، ومضى جرير نحو الدينور فلم يفتحها وفتح قرماسين على مثل صلح حلوان «فتوح البلدان ٧٥٨». وفى رواية للطبرى عن الملهب ومحمد وطلحة وأصحابه أن خسروشنوم الهمذانى قتل بالقادسية (الطبرى ٣ / ٥٧٠).

تطهير شامل

وجعل هاشم جرير بن عبدالله بجلولاء فى خيل كثيفة كقاعدة متقدمة للعمليات ويكون بين المسلمين وبين عدوهم. وراح المسلمون يغيرون فى عمليات تطهير على السواد الشرقى لدجلة، فأتوا مهروذ فصالح دهقانها هاشماً على جريب من دراهم (الجريب = ٦ كيلة مصرى = ٢٦٤ ليتراً) على ألا يقتل أحداً منهم. ولكن دهقان دسكرة اتهم بغش المسلمين وقتله هاشم على ذلك. وأتى هاشم بندنيجين فطلب أهلها الأمان على أداء الجزية والخراج، فقبل منهم وأمنهم. وتقدم جرير بن عبدالله بقواته فى جولاته التطهيرية فعثر على بقية من قوات الأعاجم فقتلهم. ولم يبق من سواد دجلة ناحية إلا غلب عليها المسلمون[1] وصارت فى أيديهم.

وكان لهذه الانتصارات أثرها، فأقبل مزيد من العجم على الإسلام، فأسلم جميل بن بصبهرى دهقان الفلاليج والنهرين، وبسطام بن نرسى دهقان بابل وخُطَرْنِيَة، وفيروز[2] دهقان نهر الملك وكوثى، وغيرهم من الدهاقين، فلم يعرض لهم عمر وترك أراضيهم فى أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم.

ووجه سعد بن أبى وقاص هاشم بن عتبة ومعه الأشعث بن قيس الكندى نحو الشمال، فمر بالراذانات وأتى دقوقاً وخانيجار فغلب عليها، وفتح جميع كور باجرمى ثم نفذ إلى سن بارما وبوازيج الملك وحتى حدود شهرزور[3].

هذه الطوابير التى جاست ما بين المدائن إلى مهروذ ودسكرة وجلولاء ودقوقاً إلى سن بارما والبوازيج وإلى شهرزور، لم تكن من أعمال المطاردة للفلول المنهزمة فى جلولاء، كما كان عهدنا بغارات المثنى بن حارثة، فإن جلولاء لم تترك فلولا تذكر، ولكن الأمر يختلف الآن، فإن دولة بنى ساسان تترنح لتسقط، والمطلوب الآن تحرير الناس من حكمهم وأن ينقشع عن مفاهيمهم أن يزدجرد مازال ملكاً يحكم فى الأقاليم التى أجلى عنها وفر منها.

(١) فتوح البلدان ٦٥٣.
(٢) فتوح البلدان. وذكر الرفيل دهقان العال فيهم، ولكن الرفيل كان قد أسلم قبل ذلك بالقادسية.
(٣) فتوح البلدان ٦٥٦ عن أبى مسعود الكوفى عن عوانة.
وذكر ابن خرداذبة دقوقاً من كور الموصل (المسالك والممالك ٩٤). وسن بارما على أربعة عشر فرسخاً من سامراء = ١٠٥ كيلو مترات، وخانيجار وباجرمى و شهرزور على عشرين فرسخاً من قصر شيرين (ابن خرداذبة ١٩) = ١١١ كيلو متراً.

كانت هذه الطوابير لإخضاع هذا القطاع تماماً لسلطة الفاتحين وتأكيداً لخلع سلطان يزدجرد عنهم وتحريراً لعقائدهم من جبروت الطاغوت الساقط ولتطهير المنطقة تماماً من أى جيوب فارسية تكون معزولة هنا أو هناك. كانت عملية استلام لهذا الميراث، فما دام سلطان قد سقط وآخر قد قام مكانه فلا للناس أن ترى وجه السلطة الجديد وأن يتعاملوا معه. هذا هو هدف الفتح الإسلامى، أن يرفع عن أعناق بنى آدم أى قسر أو ضغط، وأن يعرض الإسلام عليهم ثم يترك لهم حرية الاختيار والعقيدة دون ضغط أو إكراه.

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

فالأرض يفتحها السيف، أما القلوب فلا يفتحها إلا الاعتقاد الحر الصحيح.

وكدأبهم فى كل موطن راحوا يترنمون بالشعر، فقال هاشم بن عتبة:

يوم جلولاء ويوم رستم ... ويوم زحف الكوفة المُقَدَّم
ويوم عرض النهر المحرم ... من بين أيام خَلَونْ صُرَّم
شَيَّبْنَ أصداغى فهن هُرَّم ... مثل ثَغَام البلدِ المُحَرَّم

وقال أبو بُجَيد:

ويوم جلولاء الوقيعة أصبحت ... كتائبنا تُرْدِى بأُسْدٍ عَوابسِ
فضَضْتُ جموع الفرس ثم أنمتهم ... فتَبّاً لأجساد المجوس النجائس
وأفْلَتَهُنَّ الفيرزان بجرعة ... ومهران أَرْدَتْ يوم حز القوانس
أقاموا بدارٍ للمنيةِ موعدٍ ... وللترب تحثوها خُجوج الروامس

(١) سورة البقرة: ٢٥٦ -٢٥٧.

مغانم جلولاء

قال الشعبى[1]: «أفاء الله على المسلمين ما كان فى عسكرهم بجلولاء، وما كان عليهم وكل دابة كانت معهم إلا اليسير، لم يفلتوا بشىء من الأموال. وولى قسم ذلك بين المسلمين سلمان بن ربيعة[2]، فكانت إليه يومئذ الأقباض والأقسام، وكانت العرب لذلك تسميه سلمان الخيل، وذلك أنه كان يقسم لها ويقصر بما دونها، وكانت العتاق[3] عنده ثلاث طبقات، وبلغ سهم الفارس بجلولاء مثل سهمه بالمدائن».

وقد قومت غنائم جلولاء بثلاثين مليون[4] درهم كان خمسها ستة ملايين هى نصيب المدينة. ولم تكن كل غنائم جلولاء نقداً، بل كان فيها من التحف ما نعجب لاحتفاظ المجوس به فى ميدان قتال. أصاب خارجة بن الصلت يومئذ ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدر والياقوت مثل الجفرة[5] إذا وضعت على الأرض وإذا عليها رجل من ذهب موشح كذلك، فجاء[6] بها وبه حتى أدّاهما. ويبدو أن الفرس لم يستطيعوا أن يتخلوا عن ترفهم ومتعتهم حتى فى الميدان، ولقد رأينا فيما مر بنا فسطاطاً به المرافق اقتحمه محفز فى المعركة، فإذا به امرأة «كالغزال فى حسن الشمس» فى فراش!

(١) الطبرى ٤ / ٢٩ س ش س عن عمرو عن الشعبى.

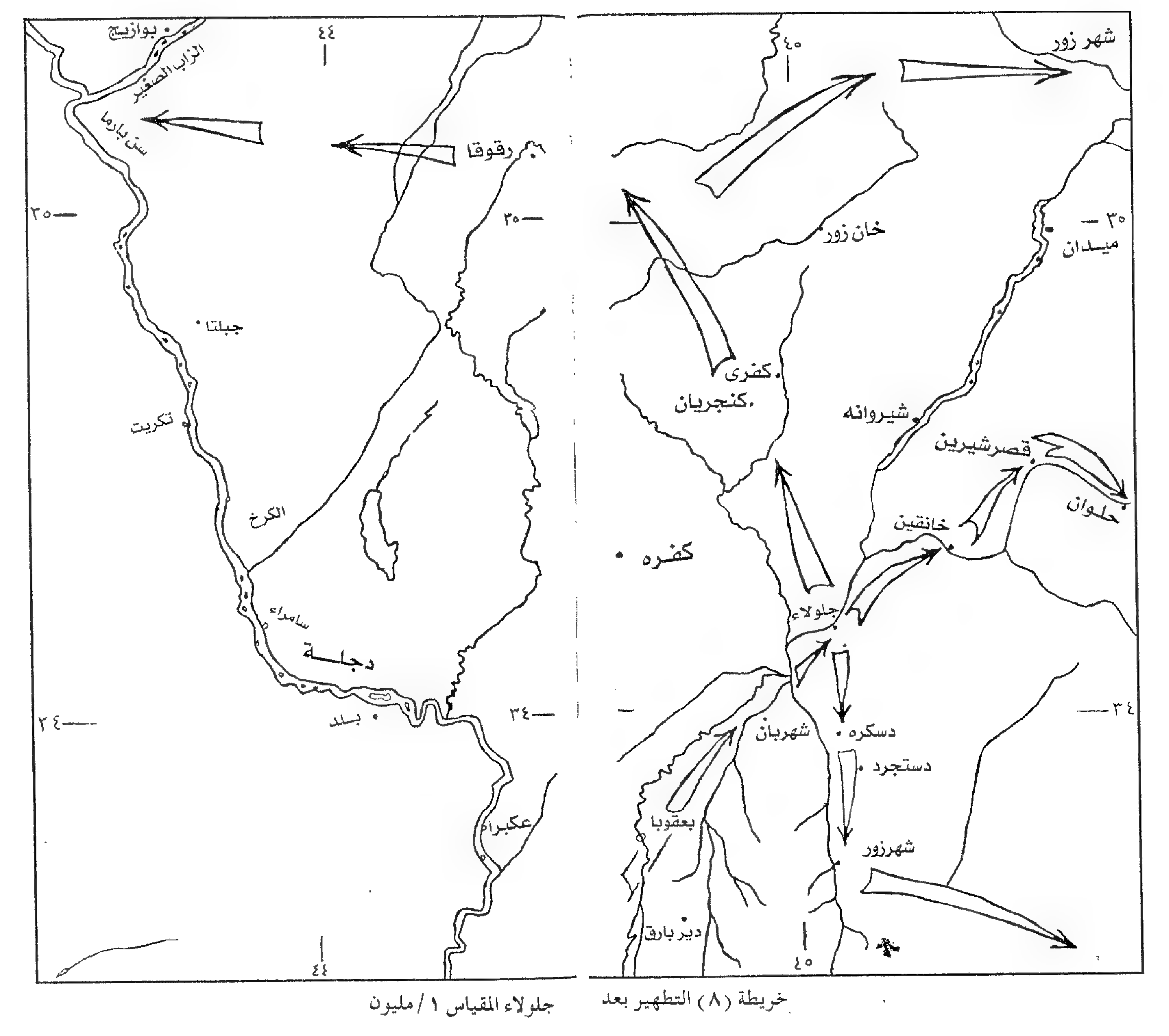
(٢) سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو بن سهم بن ثعلبة الباهلى، مختلف فى صحبته. روى عنه من كبارالتابعين أبو وائل وأبو ميسرة وأبو عثمان النهدى وسويد بن غفلة. شهد فتوح الشام وشهد القادسية، وكان مع سعد فى شراف فجعله على المجردة (وهى الخيل). وكان هو الأمير فى غزو بلنجر قد بعثه عمر إليها. وولى غزو أرمينيا فى زمن عثمان فاستشهد حوالى عام ٣٠هـ ببلنجر من بلاد أرمينيا. ويقال إنه أول من فرق بين العتاق والهجين فى الخيل فى قسمة الفىء، فقيل له سلمان الخيل لذلك. وكان يلى الخيول أيام عمر، وهو أول من استقضى على الكوفة، وكان رجلاً صالحاً يحج كل سنة. قال أبو وائل: «اختلفت إلى سلمان بن ربيعة أربعين صباحاً فلم أجد عنده فيها خصماً». وكان عمر قد بعثه قاضياً بالكوفة قبل شريح، فلما ولى سعد الكوفة الولاية الثانية استقضاه أيضاً، روى عنه أنه قال: «قتلت بسيفى هذا مائة مستلئم كلهم يعبد غير الله ما قتلت رجلاً منهم صبراً». وفى القادسية قالوا عن سلمان أنه أبصر بالمفاصل من الجازر. وقد اتخذ عمر فى كل مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عدة للحوادث، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس، وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلى ونفر من أهل الكوفة.

(٣) العتق: الكرم، وهو أيضاً الجمال وهو أيضاً الحرية. وفرس عتيق: أى جواد رائع، والجمع عتاق -- مختار الصحاح.

(٤) الطبرى ٤ / ٢٩ س ش س عن المجالد وعمرو عن الشعبى.

(٥) الجعفرمن أولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر، والأنثى جفرة - مختار الصحاح - والمقصود ناقة فى حجم الجفرة.

(٦) الطبرى ٤ / ٢٧ س ش س عن حماد بن فلان البرجس عن أبيه.



خريطة (٨) التطهير بعد جلولاء المقياس ١ / مليون

وفى رواية أخرى، فى جلولاء اقتسم على كل فارس تسعة آلاف درهم وتسعة من الدواب[1] - فإذا حسبنا القيمة الإجمالية لذلك وجدناها تخالف الرواية السابقة - وقد رجع هاشم بالأخماس إلى سعد فنفل منها من كان ذا بلاء فى الحرب ممن شهد جلولاء وممن كان نائياً بالمدائن، وخلاف الدراهم والتحف والخيول كان السبى من أظهر مواد الفىء وكانت فيهن أم الشعبى (الراوية) وقعت لرجل من بنى عبس فولدت فمات عنها فخلف عليها شرحبيل فولدت له عامر الشعبى ونشأ فى بنى عبس[2].

بعث سعد بالأخماس من الذهب والفضة والآنية والثياب مع قضاعى بن عمر الدئلى، وبعث بالسبى مع أبى مفزر الأسود بن قطبة، فمضيا بها. وبعث بالحساب مع زياد بن أبى سفيان[3]، وكان هو كاتب الحملة الذى يدون لها. وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء وبنزول القعقاع حلوان، واستأذنه فى اتباع العجم إلى حيث هربوا من أعماق بلادهم. فلما قدموا على عمر كلمه زياد ووصف له وأفاض فى طلاقة أعجبت عمر، فقال له:

«هل تستطيع أن تقوم فى الناس بمثل الذى كلمتنى به؟»

قال: «والله ما على الأرض شخص أهيب فى صدرى منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك!»

وقام زياد فى الناس فحكى لهم عما أصابوا وما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح فى البلاد.

قال عمر: «هذا الخطيب المصقع».

قال زياد: «إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا».

(١) الطبرى ٤ / ٢٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب.
(٢) الطبرى ٤ / ٢٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والوليد بن عبدالله والمجالد وعقبة ابن مكرم.
(٣) الطبرى ٤ / ٢٩ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد وزهرة ومحمد بن عمرو.

وبكى عمر

ونظر عمر إلى الفىء فوجد شيئاً كثيراً، قال:

«والله لا يجنه سقف بيت حتى أقسمه».

وبات عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن أرقم يحرسانه فى صحن المسجد. فلما أصبح جاء عمر وجاء الناس معه فكشف الأنطاع (الأغطية من الجلد) عن الفىء فلمعت تحت ضوء الشمس ياقوته وزبرجده وبانت أبهته وفخفخته، فبكى العبد الصالح عمر، قال عبدالرحمن بن عوف: «ما يبكيك يا أمير المؤمنين! فوالله إن هذا لموطن شكر». قال عمر: «والله ما ذاك يبكينى، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم».

ثم رفض الانسياح وراء الفرس وقال:

«لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد. إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال».

والذى نحسبه أن عمر لم يكن يعنى سلامة المسلمين من القتل فى القتال، فقد كانت جيوشه أبداً مظفرة، ولكنه كان يعنى سلامتهم من أن تفسد قلوبهم بإقبال الدنيا عليهم فينقلب بأسهم بينهم، فأوقف استمرار الفتح حتى ينظر تفاعلهم مع ما فتح عليهم ومع الدنيا الجديدة التى دانت لهم. ولقد ظل هذا فكر عمر وشغله الشاغل بعدها.

عن سعيد بن جبير قال: بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن وكثر المسلمات (من العجم):

«إنه بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها».

فكتب إليه حذيفة:

«لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام وما أردت بذلك».

فكتب إليه عمر :

«لا بل حلال .. ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم»

وأدرك حذيفة مقصود عمر فقال : «الآن»[1] ، وطلّقها .

(١) الطبرى ٣ / ٥٨٨ س ش س عن عبدالملك بن أبى سليمان عن سعيد بن جبير .

وروى عن حجاج الصواف عن مسلم مولى حذيفة قال : تزوج المهاجرون والأنصار فى أهل السواد ، يعنى فى أهل الكتابين منهم، ولو كانوا عبيداً لم يستحلوا ذلك ولم يحل لهم أن ينكحوا إماء أهل الكتاب ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء : ٢٥). ولم يقل فتياتهم من أهل الكتابين.

معاملة المجوس كأهل الكتاب

وقد أجرى عمر خُمس جلولاء مجرى خُمس القادسية ونفل منه بعض[1] أهل المدينة ، وعامل الفلاحين فيما وراء المدائن معاملة فلاحى السواد من حيث فئاتهم التى ذكرناها فى موضعها ومن حيث الأمان والجزية[2] والخراج ، وقد أفاضت الروايات فى تفاصيل ذلك . وقد تضمن صلحهم أنهم إن غشّوا المسلمين لعدوّهم برئت منهم الذمة ، وإن سبّوا مسلماً أن يُنهكوا عقوبة ، وإن قاتلوا مسلماً أن يقتلوا وأن على عمر منعتهم ، وبرىء عمر إلى كل ذى عهد من معرّة الجيوش[3] .

وكان للمهاجرين مجلس فى المسجد ، فكان عمر يجلس معهم فيه ويحدثهم عما ينتهى إليه من أمر الآفاق ، فقال يوماً :

«ما أدرى كيف أصنع بالمجوس ؟» .

فوثب عبدالرحمن بن عوف فقال :

«أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»[4] .

(١) الطبرى ٤ / ٣٠ س ش س عن زهرة ومحمد عن أبى سلمة .

(٢) الطبرى ٤ / ٣٠ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وعمرو .

(٣) الطبرى ٤ / ٣٢ س ش س عبدالعزيز بن سياه عن حبيب بن أبى ثابت . وعن محمد بن عبدالله والمستنير .

(٤) فتوح البلدان ٦٦٥ عن عمرو الناقد عن ابن وهب المصرى عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه .

إلغاء امتيازات بجيلة

ولما جُمعت غنائم جلولاء طلب جرير بن عبدالله له ولبجيلة ربع ما غلبوا عليه وفق سابق عهده مع عمر حين[1] سيرهم إلى العراق. فكتب سعد بذلك إلى عمر. ووجد عمر أن اتفاقه مع جرير كان تشجيعاً لبجيلة على أن تتجه إلى العراق فى وقت أعرض الناس عن العراق، أما الآن فالوضع يختلف ولم يعد لذلك ما يبرره، فكتب إلى سعد :

«إن شاء جرير أن يكون إنما قاتل وقومه على جعل كجعل المؤلفة قلوبهم فأعطوهم جعلهم، وإن كانوا إنما قاتلوا لله واحتسبوا ما عنده فهم من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم».

قال جرير : «صدق أمير المؤمنين وبَرّ، لا حاجة لنا بالربع».

لم يكرههم عمر على ذلك بل تم تنازلهم برضاهم التام. حتى أن امرأة من بجيلة اسمها أم كُرْز قالت :

«إن أبى هلك وسهمه ثابت فى السواد وإنى لن أسلم».

فقال لها عمر : « يا أم كرز إن قومك قد أجابوا».

قالت : «ما أنا بمسلمة أو تحملنى على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء وتملأ يدى ذهباً !».

ففعل عمر[2]. امرأة واحدة من قبيلة بأسرها تمسكت «بحقها» فلم يخرجها عنه عمر إلا باسترضائها.

(١) الطريق إلى المدائن ٣٤٢.

(٢) فتوح البلدان ٦٧٠ عن الوليد بن صالح عن الواقدى عن عبدالحميد بن جعفر عن جرير بن زيد بن جرير بن عبدالله عن أبيه.

لم يغزوا للسلب

قصة بجيلة هذه، وبكاء عمر أمام غنائم جلولاء، وتوقفه وهو المنتصر عن استطراد الفتح، وطلاق حذيفة لامرأته الفارسية ذات الخلابة.. وغيرها وغيرها، حكايات عارضة فى تاريخ الفتح الإسلامى، أردنا بذكرها إثبات زهد هؤلاء الذين انفتحت لهم الدنيا، ورداً على افتراءات المستشرقين الذين زعموا أن الفتح الإسلامى لم يكن لبواعث شرعية وإنما كان يستهدف السلب والنهب. لو أرادوا سلباً ونهباً لاستطاعوا بعد أن فتح عليهم، ولكنهم عفّوا وزهدوا. وصدق على بن أبى طالب حين قال لعمر :

«إنك عففْت فعَفَّت الرَّعِيَّة، ولو رَتَعْتَ لرَتَعَتْ».

الباب الرابع

عـــام ١٦ هـ

جبهات أخرى

هذا ما كان من أمر جلولاء تابعناها متصلة الحلقات حتى لا نقطعها بما كان يجرى أثناءها فى جبهات أخرى كانت مفتوحة فى ذات الوقت فيما بين أن خرج هاشم من المدائن يريد جلولاء إلى أن تم له فتحها.

ولعلنا لم ننس قطاع الأبلة وأهميته واهتمام أبى بكر وعمر به باعتباره باباً من أبواب فارس. ولقد كان ذلك واضحاً من الناحية الاستراتيجية منذ بدأ خالد ابن الوليد غزو العراق فبدأ بقطاع الأبلة. ولعلنا نذكر أن قطبة بن قتادة السدوسى ظل يغير بتلك الناحية مشكلاً إزعاجاً مستمراً للحاميات الفارسية هناك. ثم مر بنا أن عمر أمر سعداً أن يبعث رجلاً يكون بحيال الأبلة، فبعث المغيرة بن شعبة ثم سحبه لينضم إلى جيش القادسية. وبعث عمر شريح ابن عامر إلى البصرة، فمضى إلى الأهواز حيث انتصر عليه الفرس واستشهد. وأخيراً بعث عمر أحد الصحابة وهو عتبة بن غزوان إلى ذلك القطاع ليشغل من به من العجم عن نجدة أصحابهم فى قطاع المدائن وليفتحه.

قطاع آخر أشرنا إليه مع خروج هاشم إلى جلولاء، حيث تقدم أهل الموصل بقيادة الانطاق فعسكر بتكريت. وإذاً فقد كانت قطاعات العمليات فى الجبهة الشرقية بعد القادسية كالآتى:

١- الجبهة الأساسية: المدائن - جلولاء - حلوان، فى أثر يزدجرد.

٢- هجوم تثبيت بالأبلة تمكن من فتحها وفتح أسفل دجلة والفرات.

٣- جبهة ثالثة بتكريت لمقابلة التجمع الفارسى الرومى هناك.

عناصر تلك الجيوش

ولقد لاحظنا أن عمر كان يحدد لسعد تعبئته، فيعيّن له من يكون على المقدمة ومن يكون على الميمنة أو الميسرة، وهكذا. فما الذى كان يريد عمر بذلك؟

لقد ذكرنا فى «الطريق إلى المدائن» تحت عنوان[1] «منهجنا» أن قبائل المسلمين العرب كانت وحدات حربية فى الميدان. ولعلنا الآن بعد متابعتنا لكل ما مر بنا من حملات وتحركات ومعارك، قد تأكد لنا هذا الاكتشاف الذى أفدنا منه كثيراً. وسنحاول الآن أن نستفيد منه مرة أخرى للإجابة على ذلك التساؤل. ماذا أراد عمر بذلك؟

جيش جلولاء

إذا تأملنا العناصر التى تحملت مهمة جلولاء وما وراءها لتبين لنا أنها كانت كالآتى:

١- عناصر من تميم: ومن حيث أننا لا نجد ذكراً لبعض أعلام تميم ونجومها الذين لو شهدوها لما أغفل الرواة مواقفهم، مثل عاصم بن عمرو وزهرة بن حوية، فإننا نذهب إلى أن تميماً لم تكن كلها فى جلولاء، ولعل نصفها فقط هو الذى حضرها.

٢- من انضم إلى تميم من العجم الذين أسلموا واختاروا تميماً ليكونوا معها.

٣- أسد وكنانة.

٤- قبائل القحطانية من بجيلة وكندة وسعد العشيرة الذين كانوا ميسرة فى القادسية عن شمال بنى أسد، وهى بجيلة والنخع وصداء وكندة وسعد العشيرة. هؤلاء جميعاً كانت أعدادهم حين بدأت القادسية كالآتى[2]:

٢٥٠٠	نصف تميم والرباب
٣٣٠٠	كنانة وأسد

(١) الباب الأول من الجزء الأول ١٨ - ٢٣.
(٢) القادسية ٣٤.

٢٠٠٠	بجيلة
٢٥٠٠	النخع
٢٦٠٠	صداء وكندة
١٠٠٠	سعد العشيرة
١٣٩٠٠	

ومن حيث بلغ شهداء القادسية ربع جيشها فعلى هذا المعدل تكون هذه الوحدات التى كانت ١٣٩٠٠ قد بلغت نحواً من ١٠٥٠٠، فإذا أضفنا إليهم ٤٠٠٠ من العجم الذين أسلموا يكون تعدادهم ١٤٥٠٠، وقد ذكرت الروايات أن جند جلولاء كانوا ١٢٠٠٠ أمدهم سعد بأمداد بلغت ٣٠٠٠ فيكون مجموعهم ١٥٠٠٠، وهو يؤيد الرقم الحسابى ويكاد يطابقه. وإذاً فقد كان جيش جلولاء مكوناً من الأعشار الخمسة التى أعطيناها الأرقام من ٦ إلى ١٠[1].

جيش تكريت

أما جيش فتح تكريت فنستطيع أيضاً أن نتعرف على وحداته من النظر فى عناصره. لقد كان يقوده عبدالله بن مالك بن المعتم الذى كان يقود ميمنة سعد بالقادسية، فليس من قبيل المصادفة أن نجد جيش ابن المعتم كان من تلك الميمنة من قبائل ربيعة، فقائد مقدمته ربعى بن الأفكل العنزى[2] من عنز بن وائل إخوة بكر بن وائل.

وقائد الميمنة الحارث بن حسان الذهلى من ذهل من بكر بن وائل.

وقائد الميسرة فرات بن حيان العجلى من بنى عجل من بكر بن وائل أيضاً.

(١) انظر الخريطة فى كتاب «القادسية» ص ١١٤ - ١١٥.
(٢) نسبه الطبرى عن رواته محمد وطلحة والمهلب وسعيد والوليد بن عبدالله بن أبى طيبة (٤ / ٣٥) فقال ربعى بن الأفكل العنزى. ونسبه ابن حجر العسقلانى فقال ربعى بن الأفكل العنبرى (الإصابة ٢٥٦٩). لو كان عنبرياً لكان من تميم من مضر، وقد كانت تميم بجلولاء مع القعقاع بن عمرو ولم نجد واحداً منهم فى جيش تكريت، ولكننا نستدل من وجوده فى جيش عبدالله بن المعتم بتكريت إلى أنه كان عنزيا من ربيعة حيث كان قومه.

فجميعهم من بكر بن وائل وعنز بن وائل من قبائل ربيعة. ولقد كانت منازلهم تمتد من البحرين جنوباً إلى غربى الفرات حتى مدينة هيث شمالاً، وكثيراً ما كانوا يعبرون الفرات إلى أرض الجزيرة فهم بها عارفون ولها آلفون، وكان ذلك من عوامل نجاح المثنى فى غاراته على شمال العراق عام ١٣هـ - ٦٣٤م، فقد اختار قومه من بكر بن وائل بصفة خاصة لتلك الغارات، ونحسب أن هذا السبب نفسه هو الذى جعل عمر بن الخطاب يختار هؤلاء بالتحديد لتوجيههم إلى تكريت. فهو إذًا قد اختار أقواماً لهم سابق معرفة بالأرض التى يريد أن يوجههم إليها. وهم قد سبق لهم العمل فى أكبر المعارك بالقادسية متجاورين متساندين تحت هذه القيادات عليهم عبدالله بن المعتم. ولا شك أن عمر قد اطمأن تماماً إلى هذه الوحدات، من حيث كفايتها وتناسقها وتعارفها وتعاونها.

أما عمليات جلولاء فهى على أرض فارسية صرفة لم تطأها قدم مسلم عربى من قبل، ولو كان فى جيشه من سبق له معرفتها لكلفهم بها، غير أنه لا يجد من ينطبق عليه ذلك إلا الأربعة آلاف عجمى الذين أسلموا، ولذلك وجدناهم فى جيش جلولاء. ومن حيث كان الأمر كذلك فإنه يحتاج إلى قيادة جد قوية، ولذلك أسندها إلى هاشم بن عتبة وجعل معه القعقاع بن عمرو، وقد عرفنا جيداً من هو القعقاع بن عمرو، وجعل ضمن مسئوليته المباشرة قيادة أولئك المسلمين العجم. الدخول إلى أعماق فارس وراء يزدجرد يحتاج إلى قوم أشداء أقوياء مثل بنى تميم وبنى أسد ومثل جرير بن عبدالله وطليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب وقيس بن مكشوح وحجر بن عدى... إلخ..

لم يكن اختيار عمر عشوائياً، ولكنه - فى رأينا - كان مبنياً على تلك الأسس، وهو بذلك يكون قد وجه الأعشار من واحد إلى خمسة نحو تكريت والموصل شمالاً، والأعشار من ٦ إلى ١٠ نحو جلولاء وما بعدها شرقاً.

فتح تكريت

جمادى الأولى ١٦هـ - يونية ٦٣٧م

التعبئة

كما كتب سعد إلى عمر بشأن مهران وعسكره الذين احتشدوا فى جلولاء، كذلك كتب إليه بشأن تقدم الأنطاق بجيش الموصل حتى نزل تكريت على نهر دجلة شمالى المدائن بحوالى ٢٢٠ كيلو متراً. وقد أجابه عمر فى أمر جلولاء بما ذكرناه، أما بشأن تكريت فقد كتب[1] إليه أن:

«سرح إلى الأنطاق عبدالله بن المعتم.

واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل العنزى.

وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلى.

وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلى.

وعلى ساقته هانىء بن قيس.

وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة.

فإن هزموا عدوهم فأمُر عبدالله بن المعتم بتسريح ابن الأفكل العنزى إلى الحصنين».

حصار تكريت

وتحرك عبدالله بن المعتم بهذه التعبئة من المدائن فى خمسة آلاف، فسار أربعة أيام حتى نزل على الأنطاق بتكريت، فوجد معه فى جيشه جنوداً من العجم وجنوداً من الروم وقوات من

(١) الطبرى ٤ / ٣٥ س ش س عن محمد وطلحة والهلب وسعيد وشاركهم الوليد بن عبدالله ابن أبى طيبة. انظر خريطة ١٠.

عرب الجزيرة من قبائل أياد وتغلب والنمر ومن الشهارجة، وقد حفروا خندقاً حولهم يحتمون وراءه. فضرب عليهم عبدالله حصاراً استمر أربعين يوماً. وكان تكتيك الأنطاق فى تكريت شبيهاً بتكتيك مهران فى جلولاء... الاحتماء وراء خندق ثم المزاحفة مرة بعد أخرى عسى أن يظفر فى زحف منها. فتزاحفوا فى فترة الحصار التى استمرت أربعين يوماً أربعة وعشرين زحفاً، غير أنهم كانوا أهون شوكة وأسرع هزيمة من جند مهران بجلولاء، ولعل ذلك كان راجعاً إلى تنوع أجناسهم، فمنهم عجم ومنهم روم - كما فعلوا فى الفراض ضد خالد بن الوليد - ومنهم قبائل عربية ممن استوطن الجزيرة وكانوا مازالوا يقاومون الفتح ويحاربون المسلمين.

السياسة فى المعركة

لاحظ عبدالله بن المعتم ذلك وأراد الاستفادة منه فلجأ إلى السياسة فى الحرب، فبعث إلى العرب الموالين للفرس يحاول استمالتهم ويدعوهم إلى نصرته على الروم، فذهبوا يقلبون الأمر فيما بينهم. ورأى الروم أنهم لا يخرجون خرجة إلا كانت عليهم وعادوا منهزمين إلى خندقهم فى كافة زحوفهم، ولم يكونوا فى صميم ديارهم حتى يدفعون عنها، فبدأ تخاذلهم وبدأت جبهة «الحلفاء» تتضعضع. ورأى العربُ الرومَ يتركون أمراءهم وينقلون متاعهم إلى السفن فى نهر دجلة، استعداداً للانفضاض عن هذه المعركة التى لا مصلحة ولا أمل لهم فيها. حينئذ مال بعض بنى تغلب وأياد والنمر إلى انتهاز الفرصة التى أتاحها لهم عبدالله بن المعتم، فبعثوا إليه بخبر ما يصنع الروم وسألوه لقومهم السلم وأخبروه أنهم قد استجابوا لما عرض عليهم.

فأرسل إليهم يقول: «إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقروا بما جاء به من عند الله، ثم اعلمونا رأيكم».

سقوط تكريت

ورجعت الرسل إليه بإسلامهم، فردهم برسالة أخرى فيها خطته.. الأمر حتى الآن كلام وهو غير واثق تماماً إن كانوا صادقين، فوكل إليهم دوراً يفيده إن صدقوا ولا يضره إن كذبوا، وهو اختبار لهم.

قال: «إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التى تلينا لندخل عليهم منها، فخذوا بالأبواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه».

فانطلق الرسل حتى يواطئوهم على ذلك.

صف ابن المعتم صفوفه وزحف نحو الأبواب التى من جهته، ثم كبر وكبر المسلمون. وتناهى تكبيرهم إلى مسامع تغلب وأياد والنمر وقد أخذوا بالأبواب التى من جهتهم فكبروا. وفوجئت الحامية بالتكبير من خلفهم فظنوا أن المسلمين قد اقتحموا عليهم من خلفهم من جهة دجلة، وبادروا نحو الأبواب التى تجاه ابن المعتم والمسلمين فأخذتهم سيوف المسلمين من بين أيديهم وسيوف القبائل التى أسلمت ليلتئذٍ من خلفهم، فلم يفلت منهم أحد غير أولئك الذين أسلموا. وسقطت تكريت فى جمادى الأولى ١٦هـ - يونية ٦٣٧م.

ثم الموصل ونينوى

وعملاً بأوامر عمر السابقة، بعث عبدالله بن المعتم ربعى بن الأفكل العنزى إلى الحصنين. والحصنان هما نينوى والموصل. كان الحصن الشرقى بنينوى، وكانت مدينة آشورية قديمة فيها قبر النبى ذى النون (يونس «عليه السلام») وكانت قائمة شرقى دجلة مقابل الموصل على ضفته الغربية[1]. لم تكن الموصل قد مصرت وإنما كانت حصناً وبعض كنائس النصارى ومن حولها منازل قليلة لهم ومحلة لليهود، ثم كان الذى مصر الموصل بعد ذلك عرفجة بن هرثمة عام ٢٠هـ، وبنى بها مسجداً[2] جامعاً.

كانت قوة عبدالله بن المعتم خمسة آلاف تحت خمس قيادات فرعية، هى مقدمة ربعى وميمنة الحارث وميسرة فرات وخيل عرفجة ومؤخرة هانىء. اشترك منهم فى هذا الهجوم على الحصنين الوحدات الأربع الأولى بقادتها وعليهم جميعاً ربعى بن الأفكل، ونقدر عددهم بأنهم كانوا أربعة آلاف من جملة الآلاف الخمسة، وذلك بالإضافة إلى من انضم إليهم من القبائل الذين أسلموا حديثاً. وبقى ابن المعتم فى ألف بتكريت هم جند المؤخرة. كانوا فى أشد الصيف حرارة، فكانت أوامر عبدالله إلى ربعى بن الأفكل أن يسير الليل حتى قبل الظهر وأن يسرع السير حتى يسبق الأخبار.

«اسبق الخبر وسِر ما دون القيل وأحْيِ الليل».

وسرح معه تغلب وأياد والنمر الذين أسلموا واشتركوا معه فى فتح تكريت وكان قد اطمأن إليهم وإلى إسلامهم وكانوا من أهل منطقة الحصنين.

سار ربعى بن الأفكل على الطريق، فقد كان أسلوبه الذى اتبعه للمفاجأة هو السرعة والسبق لا التخفى، ولا شك أن الطريق المباشر - أو الخط المستقيم - هو أقصر المسافات وأيسرها. وقدّم قبائل أياد وتغلب والنمر وعليهم عتبة بن الوعل أحد بنى سعد بن جشم،

---

(١) معجم البلدان ٨ / ٣٦٨.

(٢) فتوح البلدان ٨٢٠ و٨٢٣.

وذو القرط، وأبو وداعة بن أبى كَرِب، وابن ذى السنينة، وابن الحجير الأيادى، وبشر بن أبى حوط، وكانوا متساندين فى الإمارة، فسبقوا الأخبار إلى الحصنين وبلغوهما ولم يعلم أهلها شيئاً بعد من أمر تكريت.

فلما اقتربوا تقدمهم عتبة بن الوعل إلى من كان مقيماً بالمنطقة فادعى لهم الظفر على المسلمين والنفل والرجوع بسلام. ثم تبعه ذو القرط ثم ابن ذى السنينة ثم ابن الحجير ثم بشر، فوقفوا بأبواب الحصون وقد أخذوا بها حتى أقبلت سرعان الخيل يقودها ربعى بن الأفكل وقد قسمها إلى قسمين فاقتحمت الحصنين معاً، ونادى أهلهما بالاستجابة إلى الصلح، فمنهم من أجاب وأقام ومنهم من لم يستجب فهرب، وأتاهم ابن المعتم فنزل عليهم ودعا من هرب وذهب إلى العودة ووفّى لمن أجاب، فتراجع الهراب واغتبط المقيم بالأمن والسلام وانتهاء حربهم مع المسلمين التى بدأت منذ حملة خالد بن الوليد - بل منذ ادعت سجاح النبوة - واستمرت فى حملة المثنى بن حارثة. وصارت لهم جميعاً ذمة المسلمين ومنعتهم.

وفى تكريت اقتسموا الأنفال، فكان للفارس ثلاثة آلاف درهم وللراجل ألف، وبعثوا بالفتح مع الحارث بن حسان الذهلى، وبالأخماس مع فرات بن حيان العجلى، وصارت الموصل ثغراً من ثغور المسلمين ولى شئون حربها ربعى ابن الأفكل العنزى وولى خراجها عرفجة بن هرثمة البارقى.

هيث[1] وقرقيسياء

إلى هيث[2]

واجتمعت جموع أهل الجزيرة وانضموا إلى جيش هرقل صاحب حمص، وبعثوا جنداً إلى أهل هيث على نهر الفرات. وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر:

«ابعث إليهم عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف فى جند.

وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامرى.

وعلى مجنبتيه ربعى بن عامر، ومالك بن حبيب».

فخرج عمر بن مالك من المدائن سائراً نحو هيث. وقدم الحارث بن يزيد حتى نزل على الذين اجتمعوا بهيث وقد خندقوا حولهم.

قرقيسياء أولاً

وطال حصار عمر لهم، فلما رأى امتناعهم بخندقهم واعتصامهم به ترك الأخبية على حالها وخلّف عليهم الحارث بن يزيد ليستمر على حصارهم وخرج هو فى نصف الجند نحو

(١) مسافات الطريق إلى هيث وإلى قرقيسياء ذكرها ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر، قالا: «من بغداد إلى السيلحين أربعة فراسخ، ثم إلى الأنبار ثمانية فراسخ، ثم إلى الرب سبعة فراسخ، ثم إلى هيث اثنا عشر فرسخاً، ثم إلى الناووسة سبعة فراسخ، ثم إلى آلوسة سبعة فراسخ، ثم إلى الفحيمة ستة فراسخ، ثم إلى الفرضة ستة فراسخ، ثم إلى وادى السباع ستة فراسخ (وقال قدامة خمسة)، ثم إلى خليج بنى جميع خمسة فراسخ، ثم إلى الفاش سبعة فراسخ (وقال قدامة ستة، ثم قال وإلى قرقيسياء ثمانية فراسخ) (المسالك والممالك ٧٢ - الخراج وصنعة الكتابة ٢١٧). فجملة المسافة إلى هيث ٣١ فرسخاً = ١٧٢ كيلو متراً، وإلى قرقيسياء ١٠١ فرسخاً = ٥٦٠ كيلو متراً. وقال الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى: قرقيسياء على الخابور ولها بساتين وأشجار كثيرة وزروع نزهة. وهيث مدينة وسطة على غربى الفرات وعليهاحصن وهى عامرة آهلة، وهى بحذاء تكريت (المسالك والممالك ٥٤).

(٢) خريطة ١٠.

قرقيسياء يتجنب الطريق. وقرقيسياء بلدة عند ملتقى نهر الخابور بنهر الفرات[1]، ففاجأ أهلها واستولى عليها عنوة على غرة منهم، فاستجابوا لأداء الجزية.

ثم هيث

وكتب عمر[2] بن مالك إلى الحارث بن يزيد:

«إنهم إن استجابوا فخَلِّ عنهم فليخرجوا، وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من رأيى».

واستجاب المحاصرون فى هيث لهذا العرض، فانضم جند المسلمين إلى عمر ابن مالك وجلا الأعاجم فانضموا إلى أهل بلادهم.

وقال عمر بن مالك[3] يصف فتح هيث وقرقيسياء:

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم ... بهيثٍ ولم تحفل لأهل الحفائِر
وسرنا على عمد نريد مدينة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعر
فجئناهم فى دارهم بغتةً ضحىً ... فطاروا وخلّوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزيةِ المتواتِر
قَبِلْنا ولم نردُدْ عليهم جزاءهم ... وحُطْناهُم بعد الجزا بالبواتِر

(١) معجم البلدان ٧ / ٥٩.

(٢) الطبرى ٤ / ٣٧ س ش س عن طلحة ومحمد والمهلب وعمرو وسعيد.
وقال: إن وقعة قرقيسياء كانت فى رجب - وقالوا إنها كانت بعد رجوع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن. ومن حيث كانت جلولاء فى ذى القعدة، فإننا نرى تناقضاً فى الرواية بين أن تكون قرقيسياء وهيث فى رجب وأن تكون بعد رجوع هاشم من جلولاء.

(٣) الفتح العربى للعراق وفارس ٢١٨.

ماسبذان[1]

«ولما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن بلغ سعداً أن آذين بن هرمزان قد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب عمر إليه:

«ابعث إليهم ضرار بن الخطاب فى جند واجعل على مقدمته ابن الهذيل الأسدى وعلى مجنبتيه عبدالله بن وهب الراسبى حليف بجيلة، والمضارب بن فلان العجلى».

فخرج ضرار بن الخطاب (وهو أحد بنى محارب بن فهر - وفهر هو قريش) فى الجند، وقدم ابن الهذيل حتى انتهى إلى سهل ماسبذان فالتقوا بمكان يدعى بهندف، فاقتتلوا بها. فأسرع المسلمون فى المجوس وأخذ ضرار آذين سلماً فأسره فانهزم عنه جيشه، فقدمه فضرب عنقه ثم خرج فى الطلب حتى انتهى إلى السيروان[2]، فأخذ ماسبذان عنوة وتطاير أهلها فى الجبال فدعاهم فاستجابوا له، وأقام بها حتى تحول سعد من المدائن فأرسل إليه فنزل الكوفة واستخلف ابن الهذيل على ماسبذان[3].

وفى معركة ماسبذان قال ضرار[4] يذكر أسر آذين:

ويوم حبسنا قوم آذين جنده	وقُطْراتِهِ عند اختلاف العواملِ
وزُرْدَ وآذيناً وفهداً وجمعهم	غداة الوغى بالمُرهفات الصواقلِ
فجاؤوا إلينا بعد غِبّ لقائنا	بماسبذان بعد تلك الزلازلِ

(١) كور الجبل ماسبذان ومهرجانقذق والدينور ونهاوند وهمذان وقم. قال الملك قباذ: أجود مملكتى فاكهة المدائن وسابور وأرجان والرى ونهاوند وحلوان وماسبذان (ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ٢٠ و١٧٢). (انظر خريطة ١٠).

(٢) من حلوان إلى مدينة ماسبذان سبع سكك (حوالى ٨٥ كيلو متراً) ومن السيروان إلى الصيمرة مدينة مهرجانقذق أربع سكك (حوالى ٥٠ كم) - (ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ٣٠ - وقدامة بن جعفر ٢٢٦).

(٣) الطبرى ٤ / ٣٧ س ش س عن طلحة والهلب ومحمد وعمرو وسعيد والرواية بنصها.

(٤) معجم البلدان ٥ / ٤١.

الأبلة والبصرة

الجبهة الثانية

تبدأ أحداث هذا القطاع ووقائعه قبل أحداث جلولاء وتكريت والموصل وهيث وقرقيسياء بل وقبل فتح المدائن، غير أنها أحداث تمتد فى زمنها وتاريخها إلى ما بعد الفراغ من كل ما ذكرنا. فقد كان قطاع الأبلة والبصرة والأهواز جبهة ثانية تسير جنباً إلى جنب فى نفس الوقت الذى كانت تدور فيه معارك المدائن وما تفرع بعدها.

ذلك أنه بعد أن فرغ سعد من بابل فى ذى القعدة ١٥هـ - ديسمبر ٦٣٦م وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، قدّر عمر أنه لم يبق على المدائن شيء وأن المعركة التالية ستكون معركة المدائن ذاتها. وقدّر أيضاً أن يزدجرد لن يدخر وسعاً فى حشد كل ما يمكنه من قوة للدفاع عنها. ولذلك أراد عمر أن يفتح على يزدجرد جبهة ثانية يشتت بها جهده ويمنع بها أن تتفرغ كل موارده لمعركة المدائن.. فقرر أن يبعث عتبة بن غزوان المازنى إلى البصرة. كان قطبة بن قتادة مازال يغير على تلك النواحى، فقرر عمر تصعيد العمليات بها، وحدد لعتبة إذ بعثه هدفين: هدفاً أساسياً وهدفاً ثانياً.

الهدف الأول: أن يقوم بتثبيت القوات الفارسية بتلك المنطقة ليمنعهم من التحرك لنجدة إخوانهم جند المدائن.. أن يشكل تهديداً ضد الأبلة يمنع القوات التى بها وحولها أن تتحرك شمالاً إلى المدائن.

والهدف الثانى: فتحها إذا تسنى ذلك. وما من شك فى أن سقوطها من شأنه أن يزيد أمر الفرس سوءاً.

ففى رواية المدائنى[1] أن عمر وجه عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها ومن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها، وفى رواية الشعبى أنه قال:

(١) فتوح البلدان ٨٤٢.

وفى روايات جاءت فى الطبرى وفى فتوح البلدان أن عمر قال لعتبة إن الحيرة قد فتحت وقتل عظيم من العجم. ثم قال الراوى (يعنى مهران): ولعله تمشياً مع أنهم وضعوا فتح البصرة من أحداث عام ١٤هـ، ونراه التباساً على الرواة الذين ذهبوا إلى أن العظيم المقصود هو مهران، والذى نراه أنه كان =

«قد فتح الله عز وجل على إخوانكم الحيرة وما حولها، وقُتل عظيم من العجم ووطئت خيل المسلمين أرض بابل، ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس، فإنى أريد أن أوجهك إلى أرض الهند (الأبلة) لتمنع أهل تلك الجيزة من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على إخوانكم وتقاتلهم لعل الله يفتح عليكم. فسر على بركة الله واتق الله ما استطعت واحكم بالعدل، وصل الصلاة لوقتها وأكثر ذكر الله»[1].

وصية عمر لعتبة

عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب أحد بنى مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة حليف بنى نوفل بن عبدمناف[2] من قريش، خرج إلى البصرة فى بضعة عشر رجلاً،

= رستم، وبذلك تكون البصرة بعد القادسية من أحداث عام ١٦هـ. يؤيد هذا قول عمر لعتبة وهو يكلفه: «ووطئت خيل المسلمين أرض بابل»، وقد كان ذلك بين القادسية والمدائن. أما عن مقتل مهران بالبويب، فقد قام المثنى بعدها بغارات على كافة أنحاء العراق، بابل وغير بابل. ثم عادوا بعد تولية يزدجرد وانسحبوا منها جميعاً إلى الصحراء من شمال العراق إلى جنوبه، فكانوا فى قطاع البصرة فى غُضَىّ من جبال الصحراء. وعلى ما ذهبنا إليه يكون بعث عتبة إلى البصرة بعد أن تحرك سعد من القادسية فى أواخر شوال ١٥هـ واجتاز برس وبابل. كان ذلك فى النصف الثانى من ذى القعدة ١٥هـ، ويكون تكليف عتبة بناء على ذلك فى أواخر ذى القعدة ١٥هـ - أواخر ديسمبر ٦٣٦م، ويكون كما ذكر الرواة نزل أرض البصرة فى شهر ربيع الأول أو الآخر، ولكننا نذهب إلى أن ذلك كان عام ١٦ وليس من عام ١٤ كما ذكروا. ولعل خطبة عتبة بالبصرة توحى بهذا، إذ يقول: «.. ولقد رأيتنى سابع سبعة مع النبى.. والتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد بن مالك، فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار». ولم يكن سعد أمير مصر من الأمصار فى عام ١٤هـ، ولكن بعد فتح المدائن ١٦هـ. بل إن سيف بن عمر ذهب إلى أن خروج عتبة إلى البصرة إنما كان من المدائن ولم يكن من المدينة، وأن ذلك كان بعد فراغ سعد من جلولاء وتكريت والحصنين (الطبرى ٣ / ٥٩٠ عن محمد وطلحة والمهلب وعمر).

وروى البلاذرى أن عمر أمر سعداً أن يبعث عتبة إلى البصرة ففعل (فتوح البلدان ٨٥٧). والأرجح عندنا أن عتبة خرج إلى البصرة من قطاع المدائن قبل فتح المدائن، يؤيد هذا وجود المغيرة بن شعبة مع عتبة، وقد كان فى جيش سعد بالقادسية. هذا ولدينا رواية صريحة فى أن إمارة عتبة على البصرة كانت ستة أشهر فى عام ١٥هـ (الطبرى ٣ / ٥٩٧).

(١) الطبرى ٣ / ٥٩٠ س ش س عن عمر بن شبة عن على بن محمد بن أبى مخنف عن مجالد عن الشعبى.

(٢) فتوح البلدان ٨٤٢.

وعتبة بن غزوان أحد السابقين إلى الإسلام وهو ابن سبع وعشرين (يعنى أنه فى عام ١٦هـ كان فى السادسة والخمسين). هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو فى سن الأربعين، وكان المقداد بن عمرو رفيقه فى الهجرة، ونزل فى المدينة على عباد بن بشر الأنصارى فى داره (وقيل على عبدالله بن سلمة =

وقال له عمر:

«يا عتبة إنى استعملتك على أرض الهند وهى حومة من حومة العدو وأرجو أن يكفيك الله ما حولها وأن يعينك عليها.

وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمى أن يمدك بعرفجة بن هرثمة (وكان وقتها بالبحرين فجاء إلى البصرة ثم صار بعد إلى الموصل على ما ذكرنا فى فتح تكريت والموصل) وهو ذو مجاهدة للعدو ومكايدته. فإذا قدم عليك فاستشره وقربه.

وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية عن صغار وذلة، وإلا فالسيف فى غير هوادة.

واتق الله فيما وليت. وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك اخوتك وقد صحبت رسول الله ﷺ فعززت به بعد الذلة وقويت به بعد الضعف حتى صرت أميراً مسلطاً وملكاً مطاعاً تقول فيسمع منك وتأمر فيطاع أمرك. فيا لها من نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على من دونك. احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهى أخوفهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم!

أعيذك بالله ونفسى من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حين رُفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا واتق مصارع[1] الظالمين.

انطلق أنت ومن معك، حتى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا».

= العجلانى)، وآخى الرسول بينه وبين أبى دجانة.

شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبى (ﷺ)، ويقال إنه شهد القادسية. قال عنه عمر: «إن له من الإسلام مكاناً، فقد شهد بدراً وقد رجوت جزأه عن المسلمين». وفى السنة الثانية من الهجرة بعث النبى سرية من ثمانية إلى نخلة كان عتبة أحدهم وكان عليها عبدالله بن جحش. وكان عتبة طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين من الصحابة. ونذهب دائماً إلى أن إجادة الرمى دليل على ثبات الأعصاب وقوة البدن.

(الطبقات الكبرى ٧ / ١ و٢ و٣ - أسد الغابة).

(١) الطبرى ٣ / ٥٩٣ عن عمر عن على عن عيسى بن يزيد عن عبدالملك بن حذيفة ومحمد بن الحجاج عن عبدالملك بن عمير.



خريطة (٩) الأبلة المقياس ١ / مليون

نزلوا مكان البصرة

فانطلقوا وانضم إليهم من الأعراب وأهل البوادى، فبلغ البصرة فى خمسمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وفى رواية أنهم بلغوا ثمانمائة [1]، وربما كان ذلك بعد انضمام قطبة بن قتادة السدوسى ومن كان معه بتلك الجهات إليهم. وكانوا يقولون عن تلك البقعة أرض الهند، باعتبار أن الأبلة كانت ميناء التجارة مع الهند والشرق. وكانت أرضها حجارة جص رخوة بيضاء خشنة كانت العرب تسميها البصرة، وبذلك سميت البصرة بعد تمصيرها. فنزلها عتبة فى ربيع الأول أو الآخر ١٦هـ - ابريل - مايو ٦٣٧م، حتى إذا كان حيال جسر

(١) فتوح البلدان ٨٤٩ عن عبدالله بن صالح المقرى عن عبده بن سليمان عن محمد بن اسحاق بن يسار. وقال الشعبى: شهد فتح الأبلة مائتان وسبعون فيهم أبو بكرة ونافع بن الحارث وشبل بن معبد والمغيرة بن شعبة ومجاشع بن مسعود وأبو مريم البلوى وربيعة بن كلدة بن أبى الصلت الثقفى والحجاج. أهـ. ونرى هذا العدد أقل من أن يفتح حاضرة فارسية كبيرة مثل الأبلة.

البصرة الصغير إذا فيه حلفاء، ورأى منابت القصب (البوص) نابتة وسمع نقيق الضفادع فهى فى موسم تزاوجها، فقد كان الفصل ربيعاً وكل تلك من مظاهر الربيع بشط العرب. فقال عتبة:

«ها هنا أمرتم. إن أمير المؤمنين أمرنى أن أنزل أقصى البر من أرض العرب وأدنى أرض الريف من أرض العجم، فهذا حيثٌ واجبٌ علينا فيه طاعة إمامنا».

ونزل بالناس فى خيام، فلما كثروا بنى رهط منهم سبع دساكر فى سبعة منازل: منزل بالزابوقة[1]، ومنزلين بالخريبة، ومنزلين من منازل بنى تميم، ومنزلين من منازل الأزد. ولعله أراد بذلك الوقوف على مسالك المنطقة. ثم كتب بذلك إلى عمر ووصف له منزله.

أول معاركهم

لم يكن يخفى على عمر قلة عددهم، فكتب إليه:

«اجمع الناس موضعاً واحداً قريباً من الماء والمرعى و لا تفرقهم».

فجمعهم عتبة فى موضع البصرة وأقام شهراً[2] لا يغزو ولا يقاتل ولا يخرج إليه أحد، حتى ذهب من أبلغ قائد الحامية الفارسية بجنوب الفرات:

«إن ها هنا قوماً معهم راية وهم يريدونك».

فخرج إليهم فى أربعة الاف، فلما رآهم استخف بهم وقال:

«ما هم إلا ما أرى؟!.. اجعلوا فى أعناقهم الحبال وائتونى بهم!».

فلما مالت الشمس عن كبد السماء قال عتبة لمن معه: «احملوا»، فحملوا حملة صادقة فقتلوهم جميعاً وأخذوا قائدهم أسيراً. وكان يوماً من أيام الصيف شديد الحرارة وصفه الرواة فقالوا: «وكان يوم عكاك وومد»[3]، والعكاك ومثله الومد هو شديد الحر مع احتباس الريح وسكونه[4].

(١) على الطريق من البصرة إلى البحرين، وبها كانت وقعة الجمل.
(٢) وقيل أشهراً. ومن حيث كانت مهمة عتبة مشاغلة عجم تلك الناحية عن نجدة المدائن، فإنه يتعين أن تكون تكتيكاته الظهور لا التخفى. ولذلك نستبعد أن يكون قد أقام شهراً لا يغزو.
(٣) الطبرى ٣/٥٩٣.
(٤) المنجد.

ثم وقف عتبة يخطب خطبته الشهيرة وقد رفعوا له منبراً فقال :

«إن الدنيا تَصَرَّمَت وَوَلَّت حَذَّاء ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء . ألا وإنكم منتقلون منها إلى دار قرار ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم .

وقد ذُكِرَ لى لو أن صخرة ألقيت من شفير جهنم هوت سبعين خريفاً ، وَلَتُمْلأَنَّه ! أَوَ عجبتم ؟

ولقد ذكر لى أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتين عليه يوم وهو كظيظ .

ولقد رأيتنى وأنا سابع سبعة مع النبى ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا ، والتقطت بردة فشققتها بينى وبين سعد (ابن أبى وقاص) فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار ، وسيجربون الناس بعدنا» .

سقوط الأبلة

وكان بالأبلة حامية من خمسمائة مقاتل ، فخرجوا للمسلمين وعتبة دون الأجانة[1] ، فجعل عتبة عشرة من فرسانه عليهم قطبة بن قتادة السدوسى وقسامة بن زهير المازنى لحماية ظهرهم ، وقال لهم :

«كونوا فى ظهرنا فتردان المنهزم وتمنعان من أرادنا من ورائنا» .

ثم حمل عليهم فما اقتتلوا – وفق تعبير الرواة بلغة عصرهم – إلا مقدار جزر جزور وقسمها حتى منحهم الله أكتافهم يقتلون منهم . قتل نافع بن الحارث منهم تسعة ، وقتل أبو بكرة الثقفى ستة ، فولوا منهزمين حتى عادوا إلى مدينتهم ورجع عتبة إلى عسكره فأقاموا أياماً . ولكن الرعب أصاب حامية الأبلة فانسحبت منها شمالاً نحو الفرات حتى عبرته دون قتال . ودخل عتبة الأبلة فأصاب المسلمون منها متاعاً وسلاحاً وسبياً وذهباً ، فأصاب كل منهم درهمين . وولى عتبة أقباض الأبلة نافع بن الحارث فقسمه وأخرج الخمس ، وكتب عتبة بذلك إلى عمر مع نافع بن الحارث . كان ذلك فى رجب أو شعبان (قيل من عام ١٤ ونراه من عام ١٦هـ) .

(١) كان لشط العرب خور وهو طريق طبيعى لمياه الأمطار التى تنحدر إليه يمتلىء بالماء عند المد وينضب عند الجزر ، وكان طوله قدر فرسخ ، وكان لمده من جهة البصرة غور وسعة كانت تسمى فى الجاهلية الأجانة وسمتهاالعرب فى الإسلام الجزارة . وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة .

كانت الأبلة فتحاً كبيراً لقوة صغيرة ، وقد كان للمسلمين بها مثلما كان من أمر إخوانهم بالمدائن ، إذ وجدوا بها من النعمة ما لم يكن لهم به عهد ، فكان من ذلك مشاهد فكاهية طريفة . قال حميرى بن كراثة الربعى :

«لما دخلوا الأبلة وجدوا خبيز الحوارى ، فقالوا : هذا الذى كان يقال إنه يسمن ، فلما أكلوا منه جعلوا ينظرون إلى سواعدهم ويقولون : والله ما نرى سمناً !» .

وقال : «وأصبتُ قميصاً مُجَيَّباً (له جيب) من قبل صدره ، أخضر ، فكنت أحضر فيه[1] (صلاة الجمعة)» .

قال سلمة بن المحبق : «شهدت فتح الأبلة فوقع لى فى سهمى قدر نحاس ، فلما نظرت إذا هى ذهب فيها ثمانون ألف مثقال ، فكتب فى ذلك إلى عمر ، فكتب أن يصير يمين سلمة بالله لقد أخذها يوم أخذها وهى عنده نحاس ، فإن حلف سلمت إليه وإلا قسمت بين المسلمين ، قال فحلفت فسلمت لى» .

قال المثنى بن موسى بن سلمة بن المحبق : «فأصول أموالنا اليوم منها»[2] .

البصرة

وتضايق المسلمون من طبيعة الأرض ، فقال عتبة لمن معه :

«أبغوا لنا منزلاً هو أنزه من هذا» .

فأمره عمر أن ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان إذ كرهوا الإقامة على الطين ، فنزلوا فى الرابعة البصرة . وأمر لهم (فيما بعد) بنهر يجرى من دجلة فساقوا إليها نهر اللشفة ، وكان ذلك مع تكويف الكوفة بعد فتح المدائن .

اشتباكات أخرى

وجمع مرزبان دست ميسان جمعاً جديداً من أهلها ، ولم ينتظرهم عتبة ، وإنما سار إليهم وعلى مقدمته مجاشع بن مسعود السلمى ، فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه فأسره المسلمون ،

(١) فتوح البلدان ٨٤٦ عن عبدالواحد بن غياث عن حماد بن سلمة عن أبيه عن حميرى ابن كراثة الربعى .

(٢) الطبرى ٣ / ٥٩٧ عن المثنى بن سلمة بن المحبق عن أبيه عن جده ، ونرى فى الرواية مبالغة ظاهرة ، فمن حيث أن المثقال يعادل ٤٫٢٥ جرام فإن تلك القدر تزن ٣٤٠ كيلو جراماً ذهباً ، وهو رقم غير معقول على الإطلاق .

وأرسل عتبة قباءه ومنطقته مع أنس بن حجية اليشكرى إلى عمر .

وسأله عمر : «كيف المسلمون ؟» .

قال أنس : «انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة» .

فرغب الناس فى البصرة فأتوها .

وآثر عتبة أن يتقدم إلى الحاميات القليلة للعجم بأسفل دجلة والفرات بدلاً من انتظارهم ، فإن إقدامه عليهم أوهن لشوكتهم ، وهو بهذا يكون أكثر أداء لمهمته ، فقد كانت معركة جلولاء دائرة ، المسلمون محاصروها والمجوس يزاحفونهم . فتقدم عتبة نحو ميسان (منطقة العمارة) والتحم ببعض العجم فى نواحى المذار وأبرقباذ . وكانت أردة[١] بنت الحارث بن كلدة امرأة شبل بن معبد البجلى ممن شهدها ، فكانت تحرض المسلمين على القتال أشد تحريض وتقول : «إن يهزموكم تولجوا فينا الغلف !» . وهزمهم عتبة وعاد إلى البصرة .

كماشات تطهير

هذا يجرى فى قطاع ميسان ودست ميسان فى تناسق مع عمليات سعد بن أبى وقاص فى قطاع المدائن ، ففى حين كان يحاصر بهرسير قامت قواته بغارات على السواد فيما بين دجلة والفرات ، حتى دخل فى ذمة المسلمين . وكان عتبة يتم هذا فى جنوب العراق ، فبعد سقوط الأبلة راحت قواته - كما رأينا - تطهر أسفل دجلة والفرات ، فكأنما كان سواد العراق بين السندان والمطرقة ، تجوسه قوات سعد من شماله نحو وسطه ، وتجوبه قوات عتبة من جنوبه إلى و سطه .

تنظيم مالى

ووضع عمر بن الخطاب الجزية فى العراق ، على كل رجل اثنى عشر درهماً أو أربعاً وعشرين أو ثمان وأربعين فى السنة كل حسب طاقته ، فكان عدد من وجبت عليه الجزية فى جميع أنحاء السواد ٥٥٠ ألفاً على اختلاف الطبقات[٢] .

(١) كانت أختها صفية بنت الحارث بن كلدة زوج عتبة بن غزوان ، فلما ولى عتبة البصرة ذهب معه أصهاره أبو بكرة وأخوه نافع بن الحارث بن كلدة الثقفى وشبل بن معبد البجلى (الطبرى ٣ / ٥٩٧ عن المدائنى) .

(٢) الخراج فى الدولة الإسلامية ١٤٣ .

وتضافرت الروايات على أن خراج العراق زمن عمر كان ١٠٠ مليون درهم[١] بوزن المثقال . ويذكر أنه بلغ فى عهد كسرى أنو شروان ٢٨٧ مليون درهم بوزن سبعة = ٢٠٠ مليون بوزن[٢] المثقال . ومعنى ذلك أن الضرائب التى وضعت على الناس فى الديار المفتوحة قد هبطت إلى ا لنصف على ما كانت عليه فى عهد كسرى أنو شروان ، الذى كان يعتبر قمة ما وصلت إليه الدولة الساسانية من المجد والعدالة والرخاء بين الناس .

(١) الخراج فى الدولة الإسلامية ١٤٣ .

(٢) وقيل ١٢٠ مليوناً وقيل ١٨٠ مليوناً .

فتح الأهواز[1]

نشاط هرمزان

وكان هرمزان - كما ذكرنا فى حينه من معركة بابل - قد انسحب بقواته نحو الأهواز ومهرجان قذق، حين بعث عمر عتبة بن غزوان نحو الأبلة، قوات هرمزان تلك نحسبها كانت من بقايا ميمنة رستم بالقادسية التى كان هرمزان يقودها هناك، ولا بد أن يكون قد أضاف حشوداً أخرى من الأهواز. وصل هرمزان إلى الأهواز شرقى شط العرب وأسفل دجلة، فهو الآن قبالة قوات عتبة غير بعيد منها، فراح يغير على المنطقة من وجهين:

١ - من نهر تيرى إلى ميسان (جهة العمارة).

٢ - ومن مناذر إلى دست ميسان (جهة البصرة[2] شرقى شط العرب).

(١) الأهواز هى إقليم خوزستان وهى من إيران اليوم، وقد كانت سبع كور، سوق الأهواز من حد البصرة ونهر تيرى مما يقابل المذار وتستر وجند يسابور والسوس ورام هرمز وسوق العتيق. وذكر بعضهم أيذج وعسكر مكرم وسرق ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى. ومصادر البلدانيين غنية بذكر تفاصيل المسافات بين مدنها وبينها وبين ما جاورها من أقاليم. والأهواز فى مستوى وأرض سهلة ومياه جارية، ومن أكبر أنهارها نهر تستر وهو الذى بنى عليه الملك سابور شاذروان (سداً) بباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى أرض المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض، وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلا شىء يسير يتاخم نواحى تستر وجند يسابور وبناحية أيذج وأصبهان والباقى من خوزستان كأنه أرض العراق، والغالب على خلقة أهلها صفرة اللون والنحافة وخفة اللحى والضخامة. وقد جمعت قصبة الأهواز الأفاعى فى جبلها الطاعن فى منازلها المطل عليها وفى بيوتها العقارب القتالة.

(ابن خرداذبة ٤٢ و٥٧ و١٧٠ و١٩٧ وقدامة بن جعفر ٢٤٢ والاصطخرى ٦٢-٦٦) وقد ذكر الاصطخرى سوق الأربعاء وحددها على خريطته مقابلة لموقع جبى الذى يبعد عن البصرة مرحلة أو مرحلتين خفيفتين، ولا نعتقد أن سوق الأربعاء هذا هو سوق الأهواز الوارد ذكره فى هذه الفتوح، وإنما نذهب إلى أن سوق الأهواز كان فى موقع الأهواز الذى ذكره الأصطخرى بأنه على ٣ مراحل من رامهرمز وعلى أربعة مراحل من دورق وعلى يوم من نهر تيرى. وقد ذكر قدامة بن جعفر أنه بين نهر تيرى (تيرين) إلى سوق الأهواز ثلاث سكك (محطات أو منازل على الطريق) وعلى ما سبق حددنا موقعها على الخريطة.

(٢) دست ميسان: كورة كبيرة بين واسط والبصرة والأهواز وهى إلى الأهواز أقرب، ويذهب ابن خرداذبة إلى أن الأبلة هى دست ميسان، ولكن دائرة المعارف الإسلامية تذهب إلى أن هذه الولاية يجب أن يلتمس موضعها على الضفة المقابلة (الشرقية) لدجلة.

وطلب عتبة المدد من سعد فأمده بنعيم بن مقرن المزنى أحد الأخوة أبناء مقرن، ونعيم بن مسعود[1]، وأمرهما أن يأتيا أعلى ميسان ودست ميسان حتى يكونا بين عتبة وبين نهر

(١) نعيم بن مسعود يتردد ذكره مرات فى مواقف مشهودة فى تاريخ الإسلام. وهو نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن خلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر.

كان قبل إسلامه كثير التردد على يهود المدينة من بنى النضير وبنى قريظة، فكانوا يصلونه ويعطونه. وأول ما يطالعنا من أخبار نعيم أنه قدم - وهو مازال مشركاً - على كنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير، فشرب معه الخمر حتى سكر، وكان فى المجلس سليط بن النعمان وذلك قبل تحريم الخمر، فذكر نعيم والخمر تدور برأسه أن عير قريش خرجت من مكة عليها صفوان ابن أمية تحمل تجارتهم وأموالهم إلى الشام، وأنه تنكب عن جادة الطريق فسلك على جهة العراق خوفاً من أن يعترضهم المسلمون. فقام سليط من ساعته وأخبر النبى (ﷺ) بما سمع، فبعث زيد بن حارثة على سرية إلى القردة من أرض نجد، فسار لهلال جمادى الآخرة ٣هـ فى مائة راكب، فأصابوا العير وأسروا دليلهم فرات بن حيان وأفلت أعيان القوم، فقدم زيد بالعير فبلغ خمسها عشرين ألف درهم.

ثم لما انصرف أبو سفيان يوم أحد فنادى يوم بيوم بدر وموعدنا العام القادم. فلما كان الموعد على رأس الحول فى ذى القعدة ٤هـ، وكان نعيم بن مسعود قد اعتمر فقدم على قريش فقالوا: يا نعيم من أين كان وجهك: قال: من يثرب، قالوا: وهل رأيت لمحمد حركة؟ قال: تركته على تعبئة لغزوكم - ولم يكن نعيم قد أسلم - قال أبو سفيان: يا نعيم إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد جاء أوان موعد محمد فالحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنا فى جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، فيأتى الخلف منهم أحب إلى من أن يأتى من قبلنا ولك عشر فرائض أضعها لك فى يد سهيل بن عمرو ويضمنها، فضمنها له سهيل وانطلق نعيم حتى قدم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون فتدسس لهم وقال: ليس هذا برأى، ألم يجرح محمد فى نفسه؟ ألم يقتل فى أصحابه؟ فثبط الناس حتى بلغ رسول الله (ﷺ) فتكلم فقال: والذى نفسى بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى. ثم أنهج الله للمسلمين بصائرهم فخرجوا بتجارات فأصابوا للدرهم درهمين ولم يلقوا عدواً، وهى غزوة بدر الموعد، وكان موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام. (الطبرى ٢ / ٥٦٠)

ثم كان أشهر مواقف نعيم يوم الأحزاب نسمعها منه، قال: «كنت أقدم على كعب بن أسد ببنى قريظة فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملونى تمراً على ركابى ما كانت فأرجع به إلى أهلى. فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله (ﷺ) سرت مع قومى وأنا على دينى ذلك. وكان رسول الله (ﷺ) بى عارفاً، فقذف الله فى قلبى الإسلام فكتمت ذلك قومى وأخرج حتى آتى رسول الله (ﷺ) بين المغرب والعشاء فأجده يصلى، فلما رآنى جلس ثم قال: «ما جاء بك يا نعيم؟» قلت: جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرنى بما شئت يا رسول الله. قال: «ما استطعت أن تخذل عنا الناس فاخذل». قلت: ولكن يا رسول الله إنى أقول؟ قال: «قل ما بدا لك فأنت فى حل». فذهبت إلى بنى قريظة فقلت: اكتموا عنى اكتموا عنى. قالوا: نفعل. قلت: إن قريشاً وغطفان على الانصراف عن محمد (عليه السلام) إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا استمروا إلى بلادهم، فلا تقاتلوا =

تيرى. حينذاك صارت قوات المسلمين بقطاع البصرة خمسة آلاف[1].

ووجه عتبة بن غزوان اثنين من المهاجرين نعرفهما جيداً منذ أول دخول لخالد بن الوليد إلى العراق فى محرم ١٢ هـ، هما سلمى بن القين وحرملة بن مريطة، وهما من حنظلة من تميم، فتقدما حتى نزلا على حدود ميسان ودست ميسان بين نعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وبين مناذر، ثم اتصلا ببنى العم (العم هو مرة ابن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم، فهم من قومهم من بنى حنظلة) فى محاولة لزيادة قواتهما، فاستجاب لهما غالب الوائلى وكليب ابن وائل الكليبى وجاءا بقومهما، فكلفاهما بمهمة القيام بهجوم خادع يصرف أنظار هرمزان عن مناذر ونهر تيرى ويحبسانه عن إدراكهما وقالا لهما: «أنتما من العشيرة، وليس لكما مترك، فإذا كان يوم كذا وكذا فانهدا لهرمزان، فإن أحدنا يثور بمناذر والآخر بنهر تيرى فنقتل المقاتلة ثم يكون وجهنا إليكم، فليس دون هرمزان شىء إن شاء الله».

= معهم حتى تأخذوا منهم رهناً. قالوا: أشرت بالرأى علينا والنصح لنا. ثم خرجت إلى أبى سفيان بن حرب فقلت: قد جئتك بنصيحة فاكتم عنى. قال: افعل. قلت: تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وأرادوا إصلاحه ومراجعته، أرسلوا إليه وأنا عندهم إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلاً من أشرافهم ونسلمهم إليك تضرب أعناقهم ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم - يعنى بنى النضير - فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً واحذروهم.. ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وكان رجلاً منهم فصدقوه. وأرسلت قريظة إلى قريش: إنا والله ما نخرج فنقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً منكم يكونون عندنا، فإنا نتخوف أن تنكشفوا وتدعوناومحمداً. فقال أبو سفيان: هذا ما قال نعيم. وأرسلوا إلى غطفان بمثل ما أرسلوا إلى قريش فقالوا لهم مثل ذلك وقالوا جميعاً: إنا والله ما نعطيكم رهناً ولكن اخرجوا فقاتلوا معنا. فقالت يهود: نحلف بالتوراة إن الخبر الذى قال نعيم لحق. وجعلت قريش وغطفان يقولون: الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء وهؤلاء من نصر هؤلاء واختلف أمرهم فتفرقوا فكان نعيم يقول: خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه وأنا أمين رسول الله (ﷺ) على سره.

وكان صحيح الإسلام بعد ذلك وهاجر فسكن المدينة وكان يغزو مع رسول الله إذا غزا، وقد بعثه رسول الله لما أراد الخروج إلى تبوك إلى قومه ليستنفرهم إلى غزو عدوهم. كذلك بعثه النبى وبعث معقل ابن سنان إلى أشجع يأمرانهم بحضور المدينة، وذلك فى فتح مكة.

وفى العام الحادى عشر من الهجرة بعث رسول الله (ﷺ) بعض الرسل فى محاربة المرتدين، فبعث نعيم بن مسعود الأشجعى إلى ابن ذى اللحية وابن مشيمصة الجبيرى. وسكن نعيم وأولاده المدينة وتوفى فى خلافة عثمان. وله رواية عن رسول الله (ﷺ)، وهو الذى روى عنه أنه قال لرسولى مسيلمة الكذاب حين شهدا أن مسيلمة رسول الله: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». أخرجه أبو داود والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن.

(الطبقات الكبرى ٤ / ٢١ - الطبرى ٢ / ٥٦٠، ٥٧٨ - ٣ / ١٤٦، ١٨٧ - الكنز الثمين ٦٢٨).

(١) الطبرى ٤ / ٢١٠ س ش س عن عبدالله بن المغيرة العبدى عن صحار رجل من عبد قيس. - انظر الخريطة (١٠).

المعركة

فى تلك الليلة الموعودة كان هرمزان بين نهر تيرى ودلث. فخرج سلمى وحرملة فى الصباح على تعبئة، وكان سلمى على جيش البصرة ومعه حرملة فى قواته، وأرسلا إلى نعيم بن مقرن وهو على جيش الكوفة ومعه نعيم بن مسعود فى قواته، فأنهضاهما فالتقوا بهرمزان بين دلث وتيرى فاقتتلوا. ويبدو أن غالباً وكليباً قد تأخرا عن موعدهما فجاءا بقومهما ورحى القتال يدور، فى حين كان جانب من القوات يستولى على مناذر وعلى مواقع هرمزان على نهر تيرى. وأتى الخبر إلى هرمزان أن مناذر وتيرى قد سقطتا فى أيدى المسلمين، فانهزم وقتل من جنده كثير وانسحب حتى شاطئ دجيل (نهر كارون اليوم)، واستولى المسلمون على ما دون ذلك فعسكروا تجاه سوق الأهواز، وقد عبر هرمزان جسرها وأقام على رأس الجسر من جهته ودجيل حاجز بينهم، هرمزان فى جهته وسلمى وحرملة ونعيم وغالب وكليب فى جهتهم[1].

أما عن الاستيلاء على مناذر، فقد روى ابن الأثير فى ترجمته لربيع بن زياد أن عمر بن الخطاب قال: دلونى على رجل إذا كان فى القوم أمير فكأنه ليس بأمير، وإذا كان فى القوم وليس بأمير فكأنه أمير بعينه. فقالوا: ما نعرف إلا الربيع بن زياد الحارثى. قال: صدقتم. وكان خَيِّراً متواضعاً. وقد استخلفه أبو موسى على قتال مناذر فافتتحها عنوة وقتل وسبى[2]، واستشهد بها أخوه المهاجر بن زياد.

هرمزان يصالح ثم ينقض

حينذاك، وقد اجتمعت هذه القوات على الضفة المقابلة لهرمزان واستطاع أن ينظر إليها، رأى ما لا طاقة له به فطلب الصلح، فكتبوا بذلك إلى عتبة وكاتبه هرمزان أيضاً. وقبل عتبة

(١) الطبرى ٤ / ٧٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.

(٢) أسد الغابة ١٦٢٥ وجعل ذلك سنة سبعة عشر. وقال فى ترجمته: استعمله معاوية على سجستان فأظهره الله على الترك وبقى أميراً عليها إلى أن مات المغيرة بن شعبة، فولى معاوية زياد ابن أبيه الكوفة مع البصرة فعزل زياد الربيع الحارثى عن سجستان واستعمله على خراسان فغزا بلخ. وكان الربيع لا يكتب إلى زياد إلا فى اختيار منفعة أو دفع مضرة، ولا كان فى موكب قط فتقدمت دابته على دابة من إلى جانبه ولامس ركبته ركبته، وكان حسن البصرى كاتبه، ولما أتى الربيع خبر قتل حجر بن عدى بأمر معاوية بن أبى سفيان قال: اللهم إن كان للربيع عندك خير فاقبضه، فلم يبرح مجلسه حتى مات. وهو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان (اسمه يزيد) بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب ابن عمرو بن علة بن جلد بن مالك وهو مذحج.

الصلح على الأهواز كلها ومهرجان قذق، ما عدا نهر تيرى ومناذر وما غلب المسلمون عليه من سوق الأهواز.

وجعل سلمى بن القين على مسلحة مناذر وأمرها إلى غالب الوائلى، وجعل حرملة بن مريطة على مسلحة نهر تيرى وأمرها إلى كليب بن وائل الكليبى. وهاجرت طوائف بنى العم من بنى حنظلة (من تميم) فنزلوا منازلهم من البصرة وتتابعوا على ذلك. ثم بعث عتبة وفداً إلى عمر فيهم سلمى وحرملة والأحنف ابن قيس التميمى وغالب وكليب. ثم ردهم عمر، فكان سلمى وحرملة على مسلحتى مناذر وتيرى، وكانت قوات غالب وكليب هى نقاط الحراسة الأمامية.

ووقع بينهما وبين هرمزان خلاف وادعاء على الحدود التى بينهم، وحضر سلمى وحرملة لينظرا فيما بينهم فوجدا الحق مع غالب وكليب والباطل مع هرمزان، وحكما بذلك، فنقض هرمزان صلحه واستعان بالأكراد فزاد جنده، وكتب عتبة إلى عمر فأمده بحرقوص بن زهير السعدى من صحابة رسول الله ﷺ وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه، وعهد إليه إن غلبوا هرمزان فى المعركة أن يبعث وراءه جَزْء بن معاوية لمطارته.

معركة أخرى

تعبأ هؤلاء وهؤلاء ووقفوا تجاه بعض لا يفصل بينهما سوى جسر سوق الأهواز. فأرسلوا إلى هرمزان يقولون له:

«إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم».

قال: «اعبروا إلينا».

فعبروا إليه الجسر ثم اقتتلوا من ورائه من جهة سوق الأهواز. وانهزم هرمزان وتراجع حتى عبر قنطرة اربك بقرية اسمها الشغر وطلع منها إلى رامهرمز، فافتتح حرقوص سوق الأهواز وأقام بها، ونزل حدود الجبل ودانت له بلاد سوق[1] الأهواز من ساحل الخليج إلى تستر.

وقال حرقوص:

(١) الطبرى ٤ / ٧٦ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وعمرو.
وقد اختلف الرواة حول توقيت فتح الأهواز وفتح تستر، فقال سيف عام ١٧، وقال آخرون عام ١٦، وقال غيرهم عام ١٩. وقد وضعها الطبرى من أحداث عام ١٦هـ.

غلبنا الهرمزان على بلاد ... لها فى كل ناحية ذخائر[1]
سواء برهم والبحر فيها ... إذا صارت نواحيها بواكر[2]
لها بحر يعج بجانبيه ... جعافر لا يزال لها زواخر[3]

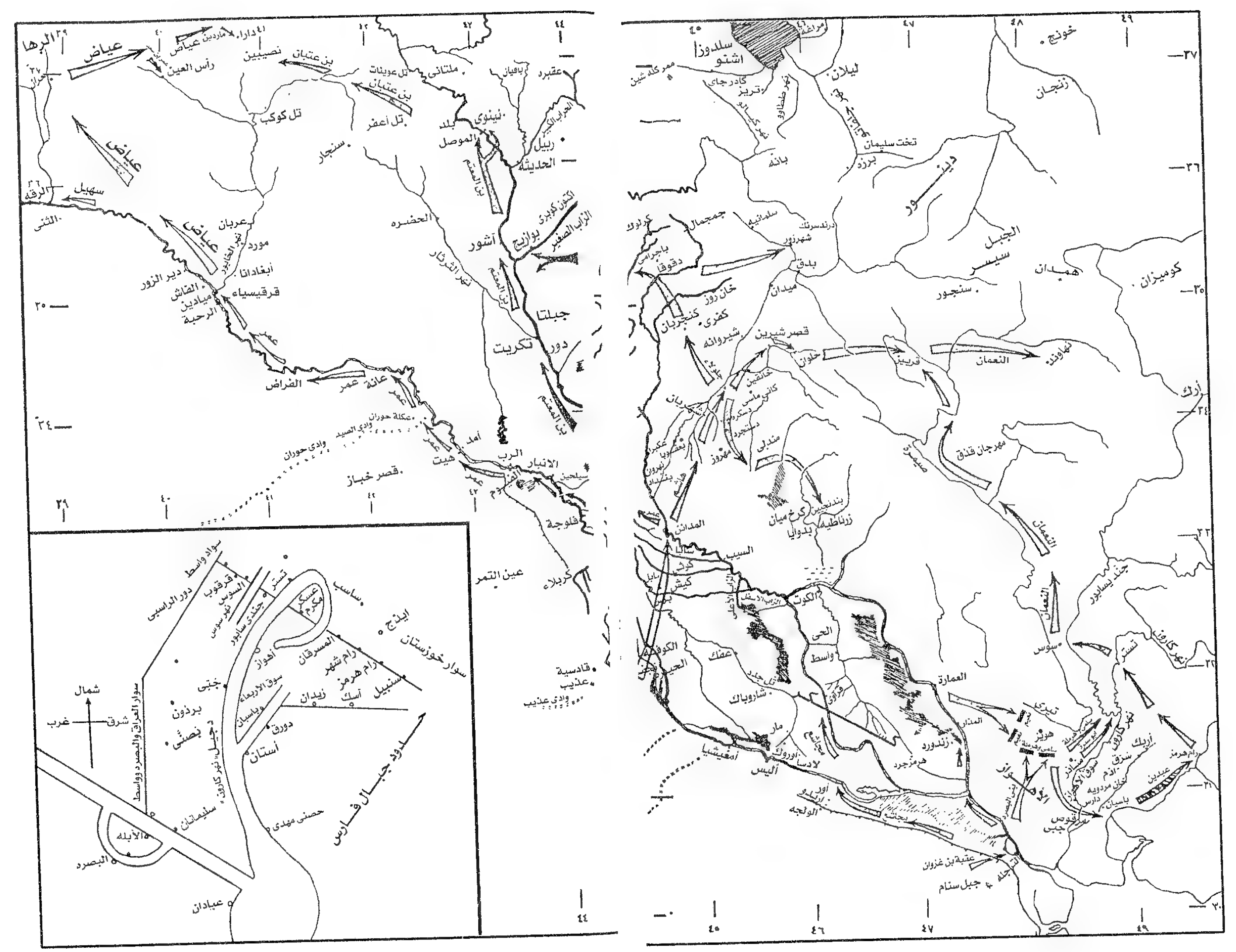
وقال الأسود بن سريع[4]، وهو من الصحابة وكان تميمياً سعدياً من عشيرة حرقوص:

لعمرك ما أضاع بنو أبينا ... ولكن حافظوا فيمن يطيع
أطاعوا ربهم وعصاه قوم ... أضاعوا أمرهم فيمن يُضيع
مجوس لا يُنَهْنِهُهَا كتاب ... فلاقوا كبة فيها قُبُوع[5]
وولى الهرمزان على جواد ... سريع الشد يثفنه الجميع[6]
وخَلَّى سُرَّةَ الأهواز كرهاً ... غداة الجسر إذ نجم الربيع[7]

مطاردة

وأقام حرقوص بسوق الأهواز. و بعث جَزْء بن معاوية نحو سُرَّق لتعقب هرمزان، وجزء يتصيد من أخرياتهم ويقتلهم حتى بلغ قرية الشغر وقد اعتصم بها هرمزان فاستعصت على جزء، فاتجه إلى ما حولها وما حول مدينة سرق، وكانت مناطق خالية من الحاميات ولا يقوى من فيها على حمايتها، فاستولى عليها سلماً، ودعا من هرب إلى الرجوع إلى ديارهم وأداء الجزية، فأجابوا. وكتب إلى عمر وإلى عتبة بذلك، فأمر عمر حرقوص وجزء بالإمساك بما غلبا عليه.

(١) ذخر الشيء: خبأه لوقت الحاجة، فالذخائر هى المخبآت.
(٢) بواكر: جمع بكور، وهو المعجل الإدراك - المنجد.
(٣) الجعفر: النهر. زواخر الوادى: أعشابه. والزاخر: الكريم أيضاً - المنجد.
(٤) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن نزال بن مرة بن عبيد بن مقاعس (هو الحارث) ابن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة. ويكنى أبا عبدالله. كان قاصاً، وهو أول من قص فى جامع البصرة، وكان يذكر فى مؤخرة المسجد. قال: أتيت رسول الله (ﷺ) وغزوت معه أربع غزوات. وكان رجلاً شاعراً، فقال: يا رسول الله ألا أسمعك محامد حمدت بها ربى؟ قال: أما إن ربك يحب الحمد. وله أحاديث عن رسول الله (ﷺ) وروى عنهالأحنف بن قيس. (أسد الغابة ١٤٤ الطبقات الكبرى ٧ / ٢٨).
(٥) قبع: أى جلس على إسته وافترش رجليه.
(٦) ثفنه: دفعه وضربه - المنجد.
(٧) نجم: طلع وظهر - المنجد.



خريطة الأهواز كما رسمها الاصطخرى المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع

خريطة (١٠) خريطة شاملة للعمليات من بعد القادسية حتى فتح الأهواز ونهاوند المقياس ١ / ٤ مليون

وعاد هرمزان يطلب الصلح وهو فى رامهرمز ! وأمرهم عمر أن يقبلوا منه فصالحوه على ما لم يفتحوا من أرض رامهرمز وتستر وسوس وجندى سابور والبنيان ومهرجان قذق . فأقام هرمزان بها حتى يجبى إليهم خراجها ولا يدخلون عليه وله الذمة والمنعة ، فكانوا يحمونه من غارات الأكراد عليه !

ثورة ابرقباذ

واقترب موسم الحج فبعث عتبة إلى عمر يستأذنه فى الوفادة عليه والحج فأذن له . فاستخلف مجاشع بن مسعود السلمى ، وكان غائباً عن البصرة قد بعثه إلى بعض جهات الفرات ، وأمر المغيرة بن شعبة أن يقوم مقامه فيصلى بالناس حتى قدوم مجاشع فإذا قدم فهو الأمير . وسار عتبة إلى المدينة[١] .

وبينما مجاشع فى نواحى الفرات وعتبة قد رحل إلى المدينة ، ثارت أبرقباذ وجمع أهل ميسان للمسلمين جمعاً عليه فيلكان من عظماء أبرقباذ ، فسار إليهم المغيرة بن شعبة وقد خلف النساء والأثقال وراءه ، فلقيهم بالمرغاب قبل دجلة . ولقد رأينا أردة بنت الحارث (سيدة من صنف سلمى بنت خصفة) تساهم فى الأحداث ، فقالت :

«لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم» .

وتزعمت النساء وعقدت لواء من خمارها (شالها) ، واتخذت النساء من خمرهن رايات وخرجن فى أثر الرجال فانتهين إليهم وهم ملتحمون بعدوهم . ورأى المجوس على بعد جمعاً مقبلاً قد رفع رايات كثيرة فحسبوه مدداً جاء إلى المسلمين ، فعمدوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون منهم .

ورجع المغيرة إلى البصرة وكتب إلى عمر بالفتح قبل أن يرجع مجاشع من الفرات ، فقال عمر لعتبة :

«من استعملت على البصرة ؟»

(١) الطبرى ٣ / ٥٩٤ عن عمر بن شبه عن على عن أبى إسماعيل الهمدانى عن أبى مخنف عن مجالد بن سعيد عن الشعبى. (فتوح البلدان ٨٤٩ - ٨٥١) .

قال : «مجاشع بن مسعود» .

قال عمر : «تستعمل رجلاً من أهل الوبر على رجل من أهل المدر ! لعمرى لأهل المدر كانوا أولى بأن تستعمله من أهل الوبر . تدرى ما حدث ؟»

قال : «لا» .

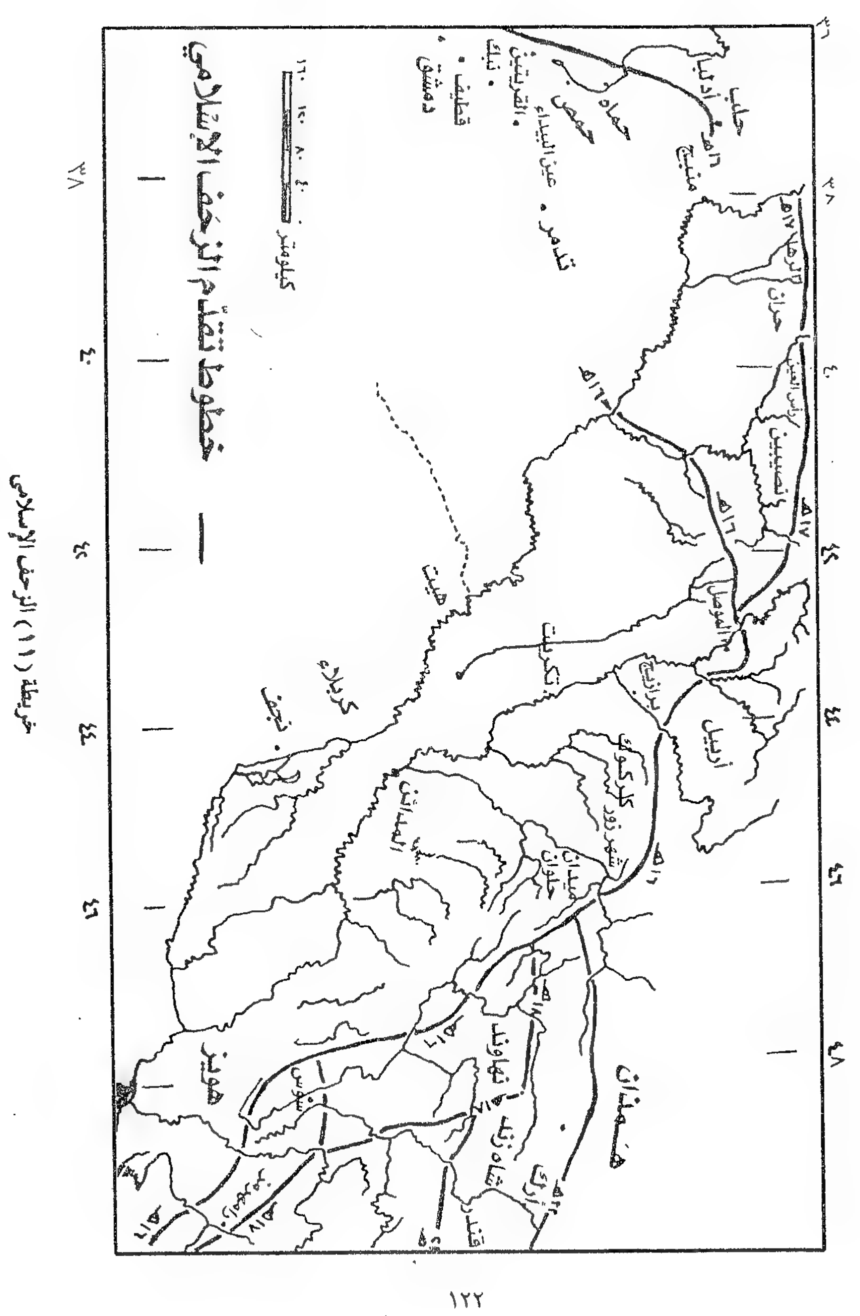
فأخبره بما كان من أمر المغيرة[١] مع فيلكان . ثم كتب عمر إلى المغيرة يوليه إمارة البصرة[٢] .

ورد عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة والياً . وأراد عتبة أن يستعفى ، ولكن عمر أصر على توليته . ومات[٣] عتبة بالطريق ، وقد اختلفت الروايات حول العام الذى توفى فيه عتبة ، ونظن وفاته كانت بعد أن أدى الحج عام ١٨هـ ، يعنى توفى عام ١٩هـ .

(١) الطبرى ٣ / ٥٩٤ عن عمر بن شبه عن على عن أبى إسماعيل الهمدانى وأبى مخنف عن مجالد بن سعيد عن الشعبى .
(٢) فتوح البلدان ٨٥١ عن عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة .
(٣) فتوح البلدان ٨٥٧ .

الباب الخامس

عام ١٧ هـ



خريطة (١١) الزحف الإسلامي

تقييم عام ١٦

بعد أن بدا في القادسية أن الحرب قد جمدت بين الطرفين لمدة طويلة، تفجرت المعركة عن ثمرة ذلك الإعداد الطويل الذى تمثل في:

١- إعداد ما فى الاستطاعة من القوة والرجال كمًّا وكيفاً.

٢- اختيار المكان المناسب للمعركة.

٣- خطة مبسطة تقوم على معركة واحدة حاسمة يعقبها نفاذ عميق.

هذا النفاذ الذى اتخذ اتجاهه نحو المدائن مع هجوم ثان بقوة صغيرة إلى قطاع البصرة، اضطرت القوات الفارسية هناك إلى الثبات فى القطاع وعدم الاشتراك فى المعركة الأساسية بالمدائن وما بعدها، بل وأرغمت هرمزان على أن يترك ذلك الميدان الأساسى بقواته ويتجه بها نحو الأهواز. فلما تم فتح المدائن اتجهت قوات سعد إلى عدة اتجاهات تتعقب التجمعات المجوسية وتسحقها. وكان الاتجاه الأساسى نحو حلوان حيث نزل يزدجرد، فكانت جلولاء على الطريق إلى حلوان. هذا بينما راحت قوات أخرى تفتح تكريت والموصل، وثالثة تفتح هيث وقرقيسياء، ورابعة تفتح ماسبذان، فى حين ذهبت قوات جلولاء تسيطر على ما حولها وتثبت أقدامها فى دائرة يبلغ نصف قطرها نحواً من مائتى كيلو متر. وأمد سعد قوات البصرة حتى بلغت خمسة آلاف فشرعت تغزو الأهواز.

هذه العمليات استغرقت العام السادس عشر من الهجرة، وانتهت جميعها قبل نهايته على خلاف فى بعضها ربما وصل به إلى عام ١٩هـ. وهى تمثل انهياراً سريعاً مفاجئاً للنفوذ الساسانى فى تلك الدائرة، جمعناها جميعاً فى خريطة واحدة تيسيراً لتركيزها فى ذهن القارئ. ومع نهاية عام ١٦هـ كانت القوة الأساسية مع سعد بالمدائن، وكانت هناك ثغور أمامية بها حاميات وهى:

١- حلوان عليها القعقاع بن عمرو التميمى.

٢- ماسبذان عليها ضرار بن الخطاب الفهرى.

٣- الموصل عليها عبدالله بن المعتم العبسى.

٤- البصرة عليها عتبة بن غزوان، وفى روايات أنه كان غير تابع لسعد فى قيادته، وإنما تبع عمر مباشرة.

٥- قرقيسياء عليها عمر بن مالك.

الكوفة

وخومة البلاد

من المدائن كتب حذيفة(١) بن اليمان إلى عمر:

---

(١) حذيفة بن حسل (أو حسيل) بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن ابن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، العبسى، وأمه الرباب بنت كعب بن عدى من بنى عبدالأشهل من الأوس. واليمان لقب حسل أو لقب جروة، قيل له ذلك لأنه أصاب دماً فى قومه فهرب إلى المدينة وحالف بنى عبدالأشهل من الأنصار، فسماه قومه اليمان لأنه حالف الأنصار وهم من اليمن. خيره النبى بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة. وقد ولد حذيفة بالمدينة. لم يشهد حذيفة بدراً لما رواه عنه مسلم فى صحيحه قال: «ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمداً، فقلنا: ما نريده، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله (ﷺ) فأخبرناه فقال: انصرفا».

وفى البخارى أن حذيفة نظر برجل من المسلمين يوم أحد يقتل الحسيل وهو يظنه من المشركين فصاح حذيفة: أى عباد الله، أبى أبى.. فما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: غفر الله لكم. وأرسله النبى ليلة الأحزاب ليأتيه بخبر الكفار، فرجع بخبر رحيلهم.

وحذيفة صاحب سر رسول الله فى المنافقين، أعلمه بهم ولم يعلم بهم أحداً غيره، وقد سأله عمر: «أفى عمالى أحد من المنافقين؟» قال نعم، واحد. قال من هو؟ قال لا أذكره. قال حذيفة: فعزله كأنما دل عليه. وكان عمر إذا مات ميت يسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلى عمر، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر. وكان حذيفة يسأل النبى عن الشر ليتجنبه. وسئل حذيفة: أى الفتن أشد؟ قال: أن يعرض عليك الخير والشر لا تدرى أيهما تركب.

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب فى عهده: «... وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا». فلما استعمل حذيفة على المدائن كتب فى عهده أن اسمعوا له وأطيعوا واعطوه ما سألكم. فلما قدم المدائن استقبله الدهاقون، فلما قرأ عهده قالوا: سلنا ما شئت، قال: أسألكم طعاماً آكله وعلف حمارى ما دمت فيكم. فأقام فيهم. ثم كتب إليه عمر ليقدم عليه، فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق، فلما رآه عمر على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال: أنت أخى وأنا أخوك.

شهد نهاوند وتولى القيادة بعد مقتل النعمان بن مقرن، وكان فتح همذان والرى والدينور على يده ٢٢هـ، وشهد فتح الجزيرة ونزل نصيبين وتزوج فيها.

قال عمر بن الخطاب لأصحابه: «تمنوا»، فتمنوا ملء البيت الذى كانوا فيه مالاً وجواهر ينفقونها فى سبيل الله. فقال عمر: لكنى أتمنى رجالاً مثل أبى عبيدة ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان فأستعملهم =

«إن العرب قد أترفت بطونها وخفت أعضادها وتغيرت ألوانها».

ونظر عمر فى الرسل الذين كانوا يفدون إليه من العراق، فلاحظ تغيرهم فسألهم عن ذلك:

«والله ما هيئتكم بالهيئة التى بدأتم بها، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما بدءوا، وقد انتكيتم فما غيركم؟»

قالوا: «وخومة البلاد».

وكتب عمر إلى سعد يسأله.

فأجاب: «وخومة البلاد».

فقد كانت المدائن على أرض طين بشطآن دجلة كثيرة الذباب والبعوض ذات ديار مبنية على النظام الفارسى، بها مرافق المياه، كثيرة الزرع والشجر والبساتين، رطبة الجو، وكل ذلك يخالف ما درج عليه ساكن الصحراء ويغايره، فلم ترق لهم حضارة الفرس ومدنيتهم وتغيرت لذلك هيئتهم. فكتب عمر إلى سعد:

«إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان!».

فابعث سلمان رائداً وحذيفة، فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر.

تكوين الكوفة

وتم اختيار موقع الكوفة فعسكروا بها، ثم بنوا ديارهم من القصب (البوص) فشبت حريق التهمت البيوت وعاد المسلمون إلى مضاربهم، ثم استأذنوا عمر فى أن يبنوها من اللبن فأذن لهم وقال:

= فى طاعة الله عز وجل. ولما نزل بحذيفة الموت جزع جزعاً شديداً وبكى بكاء كثيراً، فقيل: ما يبكيك؟ قال: ما أبكى أسفاً على الدنيا بل الموت أحب إلى، ولكننى لا أدرى علام أقدم، على رضى أم على سخط. ثم قال: هذه آخر ساعة من الدنيا، اللهم إنك تعلم أنى أحبك فبارك لى فى لقائك. ثم مات وكانت وفاته بالمدائن سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان بأربعين ليلة، وقتل ولداه صفوان وسعيد بصفين، وكانا قد بايعا علياً بوصية أبيهما.

(أسد الغابة ١١١٣ - الإصابة ١٦٤٧ - ١٧١٦ - ١٧٢٠ - الاستيعاب ٢٧٧ - الطبقات الكبرى ٥ / ٣٨٥ و٦ / ٨ - فتوح البلدان ٧٧٠).

«افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات (حجرات)، ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة».

فبنوا، ونقل الناس أبواب دورهم التى كانت بالمدائن إلى الكوفة فعلقوها على ما بنوا، وابتنى سعد داراً وجعل لها باباً من الخشب.

وانطلق بعضهم إلى المدينة يشكون سعداً:

«لقد ابتنى داراً يقال له قصر سعد، واحتجب فيها وجعل لها باباً وقال سكن عنى الصويت».

فأرسل عمر محمد بن مسلمة وقال له:

«اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودتك على بدئك».

وأرسل معه إلى سعد:

«بلغنى أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً. فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال[1]، أنزل منه منزلاً مما يلى بيوت الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت».

أمراء من العجم

وقبل نزول سعد الكوفة ضم إليه قواد ثغوره بأكثر من معهم من القوات، فنزلوا الكوفة معه وقد استخلفوا على من تركوا وراءهم بالثغور.

١- فاستخلف القعقاع، قباذ بن عبدالله الفارسى على حلوان.

٢- واستخلف ضرار، رافع بن عبدالله الفارسى على ماسبذان.

٣- واستخلف ابن المعتم، مسلم بن عبدالله الفارسى على الموصل.

٤- واستخلف عمر بن مالك، عَشَنَّق بن عبدالله الفارسى على قرقيسياء.

كلهم قد أطلقوا عليه «ابن عبدالله». ما أعجب الإسلام حين يدخل القلوب! لقد صار

(١) الخبال: الفساد مختار الصحاح.

أمراء الثغور من قبل عمر الآن من العجم الذين كانوا مجوساً يحاربون المسلمين بالقادسية منذ عام وبعض عام. بل لقد كتب إليهم عمر أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة ويرفعوا عنهم[١] الجزية. فإذا كان عمر قد دأب على استعمال الصحابة، وإذا كان أنكر على عتبة بن غزوان أن يؤمر رجلاً من أهل البادية على أهل الحضر، فلنا أن نستنتج من إمارة هؤلاء العجم المسلمين على ما تم فتحه من أرض فارس، أن قواتهم التى كانت حاميات لهم تحمى تلك الثغور للمسلمين ضد المجوس، إنما كانت من العجم. ولا نحسبهم قد أمروا فارسياً حديث الإسلام على ذوى السابقة من المسلمين العرب، ومع ذلك فهو بكل تأكيد تدعيم وإثبات لمبدأ مساواة الإسلام بين المسلمين كافة، ولا فضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، كلهم لآدم وآدم من تراب.

إلى الشام مرة أخرى

وخير سعد المسلمين، فمن أراد المقام بالمدائن تركه فيها كالمسلحة، فبقى بها أقوام من الأفناء أكثرهم من بنى عبس. وما أن نزل المسلمون الكوفة حتى تكاتب أهل الجزيرة والروم واتفقوا على عمل مشترك مضاد للمسلمين، وجعلوا هدفهم حمص بالشام. كان أبو عبيدة بن الجراح هو أمير المسلمين بالشام وقد اتخذ حمص قاعدة له فضم إليه كافة مسالحه بشمال الشام وكتب إلى عمر. وكان عمر قد اتخذ فى كل مصر من الأمصار على قدره خيولاً من المال الفائض يكون احتياطاً لأى طارئ مفاجىء. فكان من ذلك أربعة آلاف فارس بالكوفة. فكتب عمر إلى سعد أن يرسل هؤلاء فوراً وعليهم القعقاع بن عمرو لنجدة أبى عبيدة، فخرجوا من الكوفة فى ذات اليوم الذى بلغتهم فيه رسالة عمر، وفى هذا دلالته على كفاية الجندى المسلم وعلى نجاح تخطيط عمر بتكوين ذلك الاحتياطى الضارب السريع، وأثبتت الكوفة وجودها بصفتها القاعدة الحربية الأولى للمسلمين.

وضرب الجزيرة

وفى نفس الوقت أراد عمر أن يشغل أهل الجزيرة الذين أثاروا هذا التحرك، فكتب إلى سعد أن يحرك سهيل بن عدى إلى الرقة بالجزيرة، وأن يحرك عبدالله ابن عتبان إلى نصيبين

(١) الطبرى ٤ / ٤٩ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

ثم يفتحا حران والرها، وأن يبعث الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ، وأن يجعل أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم.

وخرج عياض فاتجه كل طابور منهم إلى وجهته من طرق الجزيرة على الفراض وغير الفراض. وعلم أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم بهذه التحركات، فعادوا أدراجهم وتركوا الروم وحدهم، وانتهزها أبو عبيدة فخرج من حمص وهاجم الروم وانتصر عليهم، وبلغ القعقاع بعد ثلاثة أيام من ذلك، فأمر عمر أن يشرك ومن معه فى الغنيمة[١] وقال:

«جزى الله أهل الكوفة خيراً، يكْفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار».

(١) الطبرى ٤ / ٥٠ س ش س عن مجالد عن عامر.

فتح الجزيرة[1]

ذو الحجة ١٧ هـ - ديسمبر ٦٣٧م

اتجاه إلى الجزيرة

اختلف الرواة حول تاريخ فتح الجزيرة وحول أمراء الجيش الذى فتحها تحت قيادة عياض بن غنم، وأيضاً حول القاعدة التى خرج منها هذا الجيش. وسنعرض لفتح الجزيرة وفق المختار عندنا من بين تلك الروايات، مع الإشارة إلى غيرها.

ففى عام ١٧هـ[2] كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص أن يبعث من عنده جنداً إلى الجزيرة وأن يؤمر عليهم خالد بن عرفطة أو هاشم بن عتبة أو عياض بن غنم، فبعث سعد[3] عياض بن غنم وبعث معه جيشاً، وفى رواية أن هذا الجيش بلغ خمسة آلاف[4]. وأرض الجزيرة تقع فى شمال العراق يحدها نهر دجلة من شرقيها ويحصرها نهر الفرات من جنوبها وغربيها، ويخترقها بعض الروافد مثل نهر الثرثار ونهر الخابور. وقد انتشرت على تلك الأنهار بعض الحصون والحواضر الكبيرة أوالصغيرة، بينما امتدت البادية بين ذلك فسكنتها القبائل العربية من أياد وتغلب والنمر.

وكان خروج عياض من الكوفة على أثر خروج القعقاع منها لنجدة أهل حمص، وقد خرج جيش عياض على شكل طوابير أو فيالق اتجه كل منها نحو هدف محدد، فسلكوا جميعاً

(١) انظر الخريطة رقم (١٠).

(٢) هذا حسب رواية سيف. أما ابن اسحق فقد روى أنها فتحت عام ١٩هـ الطبرى ٤ / ٥٣.

(٣) رواية البلاذرى أن عياضاً سار إلى الجزيرة من الشام حيث كان مع أبى عبيدة بن الجراح وأنه استخلفه على الشام حين حضرته الوفاة، فكانت فتوح الجزيرة بعد وفاة أبى عبيدة ولاه إياها عمر بن الخطاب. (فتوح البلدان ٤٥٣ عن داود بن عبدالحميد قاضى الرقة عن أبيه عن جده عن ميمون بن مهران). ومن الرواة من ذهب إلى أن أبا عبيدة هو الذى بعث عياضاً من الشام لفتح الجزيرة (فتوح البلدان ٤٥٤ عن الحسينى بن الأسود عن يحيى بن آدم عن عدة من الجزريين عن سليمان بن عطاء القرشى). ومعنى هذا أن عياضاً لم يرجع إلى العراق من الشام مع جيش خالد.

أما زواية الطبرى فتذهب إلى أنه كان مع جيش خالد الذى عاد إلى العراق وعمل مع سعد.

(٤) فتوح البلدان ٤٥٦ عن محمد بن سعد عن الواقدى، ويذهب إلى أن خروج هذا الجيش كان من الشام.

طرق الجزيرة على الفراض وغير الفراض. فلما بلغ أهل الجزيرة تحرك تلك الجيوش من الكوفة انفضوا عن حمص إلى ديارهم[1] وتركوا هرقل وحده. فكانت تلك الفيالق كالآتى:

فتح الرقة

١- سهيل بن عدى سلك طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة فحاصرها[2]. وتداول أهلها الرأى فيما بينهم، وانتهوا إلى أنهم بين جيوش المسلمين بالعراق وجيوشهم بالشام، وأنهم لا طاقة لهم على حرب هؤلاء وهؤلاء، فبعثوا إلى عياض بطلب الصلح - وكان عياض فى منزل وسط من الجزيرة - فرأى أن يقبل منهم، فبايعوه وقبل منهم. وكان الذى عقد لهم الصلح سهيل بن عدى عن أمر من عياض، فما تم الاستيلاء عليه من أرضهم قبل الصلح عومل معاملة ما أخذ عنوة، وما سوى ذلك أجروه مجرى أهل الذمة، ففتحوا أبواب مدينتهم وأقاموا للمسلمين سوقاً على أحد أبوابها وهو باب الرها.

وكان كتاب عياض لهم[3]:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها.

أعطاها أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم. لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية ولم يحدثوا مغيلة. وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً.

شهد الله وكفى بالله شهيداً».

وختمه عياض بخاتمه.

وقال سهيل فى فتح الرقة:

وصادمنا الفرات غداة سرنا ... إلى أهل الجزيرة بالعوالى

أخذنا الرقة البيضاء لما ... رأينا الشهر لوح بالهلال[4]

وأزعجت الجزيرة بعد خفض ... وقد كانت تخوف بالزوال

(١) الطبرى ٤ / ٥٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

(٢) الطبرى ٤ / ٥١ س ش س عن مجالد عن عامر.

(٣) فتوح البلدان ٤٥٧ عن محمد بن سعد عن الواقدى.

(٤) نأخذ من هذا أن فتح الرقة كان فى أوائل شهر قمرى.

٢- عبدالله[1] بن عبدالله بن عتبان إلى نصيبين[2]، فسلك طريق دجلة حتى انتهى إلى الموصل، وكل ذلك كان قد سبق فتحه عام ١٦هـ على يد عبدالله ابن المعتم. ثم عبر ابن عتبان إلى بلد حتى أتى نصيبين، فقابله أهلها بطلب الصلح وفعلوا كما فعل أهل الرقة خضوعاً لنفس العوامل. فكتبوا إلى عياض فرأى أن يقبل منهم، وعقد لهم عبدالله صلحاً كصلح الرقة.

وقال عبدالله بن عتبان فى فتح نصيبين:

ألا من مـبلغ عنى بجـيـراً ... فـمـا بينى وبينك من تعـادى

فـان تقـبل تلاقى العـدل فـينا ... فـأنسى مـا لقـيت من الجـهـاد

وان تدبر فـمـا لك من نصـيب ... نصـيـبين فـتلحق بالعـبـاد

وقـد ألقت نصـيـبين إلينا ... سـواد البطن بـالخـرج الشـداد

لقـد لقـيت نصـيـبين الدَّوَاهى ... بدُهْم الخـيـل والجـرد الوراد

= وسهيل بن عدى بن مالك بن حرام بن خديج بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجى. شهد بدرا وأحداً والمشاهد بعدها مع رسول الله (ﷺ). وكان فى جيش أسامة إلى الشام، فلما عاد إلى المدينة جاهد المرتدين. استشهد أخوه الحارث بن عدى يوم الجسر مع أبى عبيد. له ذكر فى فتح نهاوند وكان لواء كرمان إليه.

(١) من الأنصار، أحياناً تذكره المصادر اختصاراً فتقول عبدالله بن عتبان. استشهد أبوه عبدالله باليمامة. وشهد عبدالله بن عبدالله حروب الردة. وقد كتب عمر إلى سعد أن يسرح سهيل ابن عدى إلى الرقة وعبدالله إلى نصيبين. له ذكر فى فتح كرمان. وكان قارئاً كاتباً.

(٢) الطبرى ٤ / ٥١ س ش س عن مجالد عن عامر.

وقد وصف الأصطخرى المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (حوالى ٣٥٠هـ) نصيبين فقال: «إن أنزه بلد بالجزيرة وأكثرهاخضرة بلد نصيبين، وهى مدينة كبيرة فى مستوى من الأرض، ومخرج مائها من شعب جبل يعرف ببالوسا، وهوأنزه مكان بها حتى ينبسط فى بساتينها ومزارعها، ولهم مع ذلك فيما بعد عن المدينة مباخس كثيرة، وبها دير عظيمة وحواليها ديارات وصوامع للنصارى كثيرة، وبها عقارب كبيرة قاتلة موصوفة. وبالقرب من نصيبين جبل ماردين من الأرض إلى ذروته نحو من فرسخين (واضح هنا العجز عن التقدير السليم للارتفاع، إلا إن كان يقصد مسافة ما بين مبتدئه إلى قمته)، وبه قلعة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة، وبه حيات موصوفة تفوق الحيات بسرعة القتل، وهو جبل به جواهر الزجاج» (المسالك والممالك ٥٢).

وعن مسافاتها إلى ما حولها من المدن قال ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر: «من الموصل إلى بلد سبعة فراسخ ثم إلى باعيناثا ستة فراسخ (أو سبعة على ما ذكر قدامة) ثم إلى برقعيد ستة فراسخ ثم إلى رأس عين سبعة فراسخ... إلخ. ومن كفرتوثا إلى قصر بنى نازع ستة فراسخ (قال قدامة سبعة) ثم إلى آمد وهى على دجلة سبعة فراسخ ثم إلى ميافارقين خمسة فراسخ ثم إلى ارزن سبعة فراسخ.. إلخ. (٩٥ ابن خرداذبة و٢١٤ قدامة بن جعفر).

ورواية أخرى تذهب إلى أن أبا موسى الأشعرى[1] هو الذى اتجه إلى نصيبين ومعه عمر بن سعد بن أبى وقاص، وهو غلام حدث السن ليس إليه من الأمر شيء.

فتح الرها وحران

٣- عياض بن غنم على قوته الأساسية. وكان على مقدمته ميسرة[2] بن مسروق العبسى، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمى. ونزل عياض مكاناً وسطاً من أرض الجزيرة. فلما استسلمت الرقة (على الفرات) ونصيبين (على دجلة) ضم عياض سهيل بن عدى وعبدالله بن عبدالله إليه، ثم سار بمن معه نحو حران[3] يستولى على ما فى طريقه إليها، وكانت مدينة عظيمة عرفت عند الروم باسم هالينوبلس. فلما بلغها اتَّقُوه بطلب الصلح على أداء الجزية فقبل منهم. ومن حران بعث سهيلاً وعبدالله إلى الرها[4] فبادر أهلها بالإجابة إلى أداء الجزية.

وفى رواية أكثر تفصيلاً وتختلف بعض الشيء أن أهل حران أغلقوا أبوابها دون جيش عياض، وكان بها طائفتان هما: الحرنانية والنصارى، فبعث الحرنانية إليه أن فى أيديهم جانباً من المدينة، وسألوه أن يسير إلى الرها فما صالحته عليه صالحوه على مثله وخلوا بينه وبين النصارى، ولما بلغ النصارى ذلك أرسلوا إلى عياض بالرضى على مثل ما عرض عليه الحرنانية.

(١) الطبرى ٤ / ٥٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

(٢) فتوح البلدان ٤٥٦ عن محمد بن سعد عن الواقدى.

(٣) الطبرى ٤ / ٥٤ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

ذكر ابن خرداذبة حران والرها على الطريق الهام الذى كان يخترق الجزيرة من دجلة إلى الفرات فقال: «الطريق من آمد إلى الرقة ذات اليسار: من آمد إلى شمشاط سبعة فراسخ ثم إلى تل جفر خمسة فراسخ ثم إلى جرفنان ستة فراسخ ثم إلى بامقدا خمسة فراسخ ثم إلى جلاب سبعة فراسخ ثم إلى الرها أربعة فراسخ ثم إلى حران أربعة فراسخ ثم إلى تل محرا أربعة فراسخ ثم إلى باجروان سبعة فراسخ ثم إلى الرقة ثلاثة فراسخ (المسالك والممالك ٩٦) والفرسخ ٥٥٤٤م.

(٤) الرها مدينة بالجزيرة شمال حران، تقع اليوم فى شمال شرقى سوريا غربى الفرات جنوب تركيا وتعرف باسم إقليم أورفا. قال الاصطخرى: «الرها مدينة وسطة والغالب على أهلها النصارى، وفيها زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة ورهابين، ولهم بها كنيسة ليس فى بلاد الإسلام كنيسة أعظم منها، ولها مياه وبساتين كثيرة وزروع، وهى أصغر من كفرتوثا (المسالك والممالك ٥٤).

وقال قدامة بن جعفر: «هى مدينة رومية فى سفح جبل» الخراج وصنعة الكتابة ٢١٥.

وسار عياض إلى الرها وقد جمع له أهلها ورموا المسلمين بالنبال ساعة، ثم خرج جيشهم لقتال عياض فانهزموا وارتدوا إلى مدينتهم، ولم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان، فأجابهم عياض إلى مطلبهم وكتب إليهم[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها.

إنكم إن فتحتم لى باب المدينة على أن تؤدوا إلىّ عن كل رجل ديناراً ومُدْيَىْ قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم.

وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين.

شهد الله وكفى بالله شهيداً».

ثم كان كتابه إليهم بالصلح[2]:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرها.

إنى أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذى عليهم.

ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا.

شهد الله وملائكته والمسلمون».

سائر مدن الجزيرة

ثم أتى عياض حران، ووجّه صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة الفهرى إلى سميساط. فصالح عياض أهل حران على مثل صلح الرها وفتحوا له أبواب مدينتهم، ثم سار إلى سميساط (على الشاطئ الأيمن للفرات فى تركيا اليوم) فوجد صفوان وحبيب مقيمين عليها وقد غلبا على بعض قراها وحصونها، فصالحه أهلها على مثل صلح الرها. وجعل عياض الرها

(١) فتوح البلدان ٤٥٨ عن محمد بن سعد عن الواقدى.

(٢) فتوح البلدان ٤٥٩ عن داود بن عبدالحميد عن أبيه عن جده.

مركزاً له فكان يغزو منها ويرجع إليها، ففتح سنجار[1] وميافارقين (بديار بكر وهى من تركيا اليوم) وسروج (بالقرب من حران) وراسكيفا (قريباً من حران) والأرض البيضاء. وانتقضت سميساط فرجع إليها وحاصرها حتى فتحها، ثم فتح جسر منبج[2] من قرى الفرات وما حولها. وفتح حصن كفرتوثا، كانت حصناً قديماً فاتخذها ولد أبى رمثة منزلاً فمدنوها وحصنوها فكانت قرية كبيرة من أعمال الجزيرة الفراتية. كما فتح طور عبدين - من أعمال نصيبين - وحصن ماردين وكان قلعة حصينة.

وصمدت رأس العين، فجعل عليها خيلاً لحماية ظهره وترك معها عمر بن سعد بن أبى وقاص، وسار هو إلى دارا (بين نصيبين وماردين من جبل ماردين، وهى اليوم بتركيا) فافتتحها على مثل صلح الرها. وفتح قَرْدَى ويازَبْدَى وهما قريتان بجبل الجودى بالجزيرة الفراتية. وصالحه بطريق الزوزان على أتاوة. ثم سار إلى أرزن (قريباً من خلاط) ففتحها على مثل صلح نصيبين. ودخل الدرب فبلغ بدليس وجازها إلى خلاط، وهى عاصمة أرمينيا الوسطى، فصالح بطريقها وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينيا فلم يتجاوزها وعاد منها إلى الرقة ثم مضى إلى حمص وكان عمر قد ولاه إياها.

أرمينيا

٤- عثمان بن أبى العاص بن بشر الثقفى، قاد الطابور الرابع إلى أرمينيا فكان فيها شيء من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمى شهيداً، ثم صالح أهلها عثمان على الجزية على كل أهل بيت دينار[3].

(١) فتوح البلدان.
قال الأصطخرى: «بها نخيل، وليس بالجزيرة بلد به نخل سوى سنجار، إلا أن يكون على الفرات» (المسالك والممالك ٥٣). وعن مسافاتها فمن بلد إلى تل أعفر خمسة فراسخ ثم إلى سنجار سبعة فراسخ (قال قدامة خمسة) ثم إلى عين الجبال خمسة فراسخ ثم إلى سكير العباسى على الخابور تسعة فراسخ ثم إلى الفدين على الخابور خمسة فراسخ ثم إلى ماكسين على الخابور ستة فراسخ ثم إلى قرقيسياء على الفرات والخابور ستة فراسخ (ابن خرداذبة ٩٦ وقدامة ٢١٦). وقد أفاضا فى ذكر المسافات بين شتى مدن الجزيرة.

(٢) منبج بلد قديم كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة فى فضاء من الأرض كان عليها سور محكم مبنى بالحجارة، بينها وبين الفرات ١٧ كيلو متراً، وبينها وبين حلب ٥٥ كلم.

(٣) الطبرى ٤ / ٥٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

٥- الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ. والذى نلحظه من تتبع أخباره وأعماله أن مهمته كانت خاصة بالبدو من عرب الجزيرة وليس بحواضرها التى تكفلت بها الفيالق الأخرى. فخرج حتى قدم على بنى تغلب وعرب الجزيرة، فانحاز إليه المسلمون منهم وسالمه الكافرون، إلا قبيلة أياد بن نزار فقد ارتحل من لم يسلم منهم حتى دخلوا إلى مناطق نفوذ الروم. فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب.

أسهل البلدان فتحاً

وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسرها[1] فتحاً. وقال عياض بن غنم فى فتحها:

من مبلغ الأقوام أن جموعنا ... حَوَت الجزيرة يوم ذات زحام
جمعوا الجزيرة والغياث فَنَفَّسوا ... عمن بحمص غيابة القُدّام
إن الأعزَّة والأكارم معشر ... فضّوا الجزيرة عن فراخ الهام
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو من يأوى بلاد الشام

ونرى أن تلك السهولة كانت راجعة إلى:

١- أن أرض الجزيرة على اتساعها قد صارت جيباً محصوراً، وذلك بعد أن سقطت أرض العراق فى جنوبها وأرض فارس من شرقها وأرض الشام من غربها فى أيدى المسلمين، فلم تكن لينجدها فرس ولا روم.

٢- وذلك فضلاً عن العامل النفسى الناجم عن السرعة المذهلة التى تم بها اكتساح تلك الأراضى بعد معركة القادسية فى الميدان الشرقى وما كان من اكتساح أرض الشام فى الميدان الغربى - هذا ضد الفرس وذاك ضد الروم فى آن واحد.

٣- يضاف إلى ذلك ما رآه أهل الجزيرة من أمر أولئك الذين وقفوا يقاومون الفتح وما كان من مصيرهم، وأمر أولئك الذين سالموا وأسلموا أو دخلوا فى ذمة المسلمين.

ويبدو أنه لم تكن هناك مقاومة عنيفة فى كل فتوح الجزيرة سوى ما كان فى رأس العين

(١) الطبرى ٤ / ٥٤ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

(وتُعرف أيضاً بعين الوردة)، وقد كانت مدينة كبيرة من مدن الجزيرة وهى اليوم من محافظة الحسكة بسوريا، أغلق أهلها أبوابها ونصبوا العرادات عليها، فقتلوا من المسلمين بالحجارة والسهام بشراً. واطلع عليهم بطريق من بطارقتها فشتمهم وقال لهم: «لسنا كمن لقيتم»[1]. حتى أن بعض الرواة يذهب إلى أن عياضاً لم يستطع فتحها وأن الذى فتحها بعد ذلك هو عمير بن سعد بن عبيد[2] الأنصارى بعد قتال شديد[3]. ولكننا نميل إلى الأخذ بالرواية التى تقول[4]: «لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، على يد عياض بن غنم».

عرب الجزيرة مرة أخرى

بلغ كتاب الوليد إلى عمر بارتحال بنى أياد بن نزار إلى أرض الروم. فكتب عمر إلى ملك الروم:

«إنه بلغنى أن حيّاً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك. فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى ثم لنخرجنهم إليك».

فأخرجهم ملك الروم، فرجع منهم أربعة آلاف مع أبى عدى بن زياد، وتفرق بقيتهم فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم، فكل أيادى بعد ذلك فى أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف.

ويبدو أن استعمال عمر للوليد على عرب الجزيرة إنما كان المقصود منه إعادة تعميرها بالعناصر العربية التى هجرتها أمام الفتح حتى لا تقفر منهم، ورفض الوليد أن يقبل من بنى تغلب إلا الإسلام.. والأصل فى ذلك أنه كان لا يقبل من العرب غير الإسلام، فلا يقبل منهم كفر وذمة، وذلك تأميناً لجزيرة العرب حتى تكون للإسلام قاعدة راسخة كما كان للنصرانية وللمجوسية. ولكن بنى تغلب اعترضوا على ذلك وقالوا للوليد:

«أما من نُقِّب على قومه فى صلح سعد ومن كان قبله فأنتم وذاك..»

(يقصدون إسلام عرب تكريت والموصل مع عبدالله بن المعتم ووفد منهم كان قدم على النبى ﷺ، وأما من لم ينقب عليه أحد ولم يجر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه؟».

(١) فتوح البلدان ٤٦٤ عن الواقدى عمن سمع اسحق بن أبى فروة عن أبى وهب الجيشانى ديلم بن الموسع.
(٢) قتل أبوه فى القادسية.
(٣) فتوح البلدان ٤٦٣ عن أبى أيوب الرقى المؤدب عن الحجاج بن أبى منيع الرصافى عن أبيه.
(٤) فتوح البلدان ٤٦٠ عن محمد بن سعد عن الواقدى عن معمر عن الزهرى.

فكتب الوليد فيهم إلى عمر، فأجابه:

«إنما ذلك لجزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الإسلام. فدعهم على أن لا ينصروا وليداً واقبل منهم إذا أسلموا».

فقبل بعضهم ذلك فأخذوا به، ورفض بعضهم وكانوا من قبائل العباد وتنوخ. ولهذه القضية جذور من عهد النبى ﷺ، فقد عاهده وفدهم على أن لا ينصروا وليداً، فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من أوفده ولم يكن على غيرهم. فلما تم فتح الجزيرة على عهد عمر قال مسلموهم:

«لا تُنَفِّرُوهم بالخراج فيذهبوا، ولكن ضَعِّفوا عليهم الصدقة التى تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء، فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء على أن لا ينصروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم».

فبعث الوليد رؤساء النصارى وقسيسيهم بذلك إلى عمر. فقال لهم: «أدوا الجزية».

فغضبوا وأرادوا الرجوع وقالوا:

«أبلغنا مأمننا. والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلنَّ أرض الروم، والله ليفضحنا من بين العرب!».

قال عمر: «أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية. وتالله لتؤدُّنَّه وأنتم صَغَرة قُماة، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ثم لأسبينكم».

قالوا: «فخذ منا شيئاً ولا تسمه جزاء».

قال: «أما نحن فنسميه جزاء، وسموه أنتم ما شئتم».

وقال له على بن أبى طالب:

«يا أمير المؤمنين، ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟»

قال: «بلى».

وأصغى عمر إلى علىّ فرضى به منهم جزاء ورجعوا على ذلك.

وكان فى بنى تغلب عز وامتناع، ولم يزالوا ينازعون الوليد، فقال فى ذلك:

إذا ما عَصَبْتُ الرأس منى بمشْوَذٍ

فغَيَّك منى تغلب ابنةُ وائلِ

وبلغت عمر فخاف أن يحرجوه وأن يفرغ صبره فيبطش بهم، فعزله وأمَّر عليهم فرات بن حيان العجلى وهند بن عمرو الجملى[١].

حركة تنقلات

كان عمر بن الخطاب قد خرج من المدينة نحو حمص غازياً حين دهمها الروم. فلما كان بالجابية بلغه انتصار أبى عبيدة. كان فتح الجزيرة قد بدأ ولم يكن قد تم. فأمد عياضاً بحبيب بن مسلمة، وعزل خالد بن الوليد العزل الثانى عن أى عمليات حربية - وفى رواية مرجوحة أنه أعاده إلى المدينة - وانصرف من الجابية راجعاً إلى المدينة. فكتب إليه أبو عبيدة يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم، فأجابه عمر إلى ذلك ونقل عياضاً من الجزيرة إلى الشام. وعاد سهيل بن عدى وعبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى الكوفة ليستعملهما فى غزو المشرق. واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها، والوليد بن عقبة على عرب الجزيرة، فأقاما بها كل على عمله[٢]، وحتى عاد وعزل الوليد واستعمل فرات بن حيان وهند بن عمرو.

(١) الطبرى ٤ / ٥٦ س ش س عن عطية عن أبى سيف التغلبى.

(٢) الطبرى ٤ / ٥٥ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

طاعون عمواس

وانتشر وباء بأرض الشام ومصر والعراق وبلغ البصرة. ثم ارتفع عن الناس واستقر بالشام، وهو المعروف بطاعون عمواس، هلك فيه كثير من المسلمين وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبى سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل، وكثير من أبناء خالد بن الوليد، وكثير من الصحابة وأشراف الناس. وكان ذلك عام ١٧ أو ١٨هـ. وطمع أعداء المسلمين فيهم وتخوفت قلوب المسلمين.

عملية طاوس[١]

ورطة

كان موقف عمر بالنسبة لقطاع البصرة كموقفه فى الكوفة. قال: «حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز. وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم».

وكان العلاء بن الحضرمى عامل عمر على البحرين، وكان عمر يدرك أن المسلمين لم يستوفوا أدوات العمل بالبحر ولا التدريب عليه ولا أنشأوا عمارة بحرية، كما كان يدرك ذلك من قبل رسول الله ﷺ وأبو بكر، فتأسى بهما عمر فى عدم الحرب فى البحر ونهى العلاء عن ركوبه والقتال فيه. ولكن العلاء حين رأى انتصار المسلمين فى كل مكان وهو مقيم بالبحرين لا يغزو، دفعته همته وطموحه إلى خطأ جسيم، فطلب من أهل البحرين أن يتطوعوا لغزو فارس، وقد كانت البحرين فى الجاهلية إلى عهد قريب من مناطق النفوذ الفارسى، فتسارعوا إلى ذلك. وقسمهم العلاء إلى ثلاث فرق عليها الجارود بن المعلى، والسوار بن همام، وخليد بن منذر بن ساوى وهو أميرهم جميعاً، ثم حملهم فى البحر بغير إذن من عمر.. وعبر هذا الجيش الخليج حتى هبط على الشاطئ الفارسى تجاه اصطخر. وقابلهم الفرس بجيش يقوده هربذ، ونجح هربذ أن يحول بين المسلمين وبين سفنهم، فقام خليد يخطب فى جيشه وقال:

«أما بعد، فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبه، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب. فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين».

فأجابوه إلى ذلك وصلُّوا الظهر، ثم دارت المعركة بمكان اسمه طاوس. وكان السوار يرتجز ويذكر قومه ويقول:

يا آل عبد القيس للقراع	قد حفل الامداد بالجراع
وكلهم فى سَنَنِ المصَاعِ	يحسن ضرب القوم بالقطَّاعِ

(١) الطبرى ٤ / ٧٩ س ش س عن محمد والمهلب وعمرو.

وكان الجارود يرتجز ويقول:

لو كـان شيئـاً أمماً أكلتُه ... أو كـان مـاء سـاد مـا هجرتُه
لكن بحـراً جـاءنا أنكرته

وارتجز خليد بقوله:

يال تميم أجْمِعوا النزول ... وكـاد جيشُ عمـر يزول
وكلكم يعلم مـا أقـول

واستشهد فى المعركة الجارود بن المعلى والسوار وابنه عبدالله[1]، وقد أنزلوا بالفرس خسائر جسيمة فى الأرواح، ولكنهم فقدوا سفنهم وقيل غرقت ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلاً. وأرادوا أن يشقوا طريقهم إلى البصرة براً للانضمام إلى المسلمين هناك، ولكن جيشاً فارسياً من أهل اصطخر يقوده شهرك أخذ عليهم السبل فحصرهم فأقاموا حيث كانوا يدافعون عن أنفسهم فحسب، فى حين استصرخ أهل اصطخر العجم فى سائر أنحاء مملكتهم. كان المسلمون هناك فى موقف لا يُحْسَدون عليه.

نجدة

وبلغ عمر ما صنع العلاء، فعزله وسيره إلى سعد ليعمل تحت إمرته عقاباً له، ولم يكن العلاء يحب سعداً فكان ذلك أثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه. وقال عمر: «إلحق بسعد بن أبى وقاص فيمن قبلك». وكتب إلى عتبة ابن غزوان يأمره بنجدة الجيش المحصور قبل أن يجتاحه الفرس الذين كانت أمدادهم تتدفق على الطريق إلى اصطخر:

«إن العلاء بن الحضرمى حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصانى، وأظنه لم يرد الله بذلك، فخشيت عليهم أن لا يُنصروا وأن يغلبوا وينشبوا. فاندب إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا».

وعرض الأمر فى معسكر عتبة، فتطوع فرسان المسلمين وأبطالهم وقادتهم: عاصم بن عمرو - وكان انتقل من الكوفة إلى البصرة - وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن ومجزأة

(١) فى رواية أخرى أن معاوية بن أبى سفيان استعمل عبدالله بن سوار على بعض الهند. فاستشهد بها (الإصابة ٣٥٩٠).

بن ثور ونهار بن الحارث والترجمان بن فلان والحصين ابن أبى الحر والأحنف بن قيس وسعد بن أبى العرجاء وعبدالرحمن بن سهل وصعصعة بن معاوية، تطوعوا لهذه المهمة الشاقة الصعبة، فخرجوا فى اثنى عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل. لن يكون السير إلى هذه المهمة على أرض صحراوية بل على طرق جبلية من بلاد فارس، ولذلك تركوا الجمال واتخذوا البغال، فضلاً عن أن البغال أسرع من الإبل والمهمة تحتاج إلى سرعة. ولا شك أن المسلمين، بعد أن فتحوا ما فتحوا وغنموا ما غنموا، صاروا يمتلكون ما يلزم من البغال لمثل هذا التحرك، فتخلوا عن ما ألفوا من استخدام الإبل التى ثبتت فعاليتها فى عمليات سابقة إلى ما هو أصلح وأكثر فاعلية لأداء العمل المطلوب، وهى مرونة فى التفكير والتصرف تستحق التسجيل. ولعل هذه وخروج القعقاع من الكوفة إلى الشام كانتا أول استخدام من المسلمين للبغال فى شئون الحملة بدلاً من الإبل. خرج ذلك الطابور من البصرة يقوده أبو سبرة ابن أبى رهم أحد بنى مالك بن حسل بن عامر بن لؤى القرشى. هذا فى حين كانت الحاميات والثغور والذمم بالأهواز على حالها، حماية واحتياطاً وراء ظهر هؤلاء.

اتخذت هذه القوة طريق الساحل، فلم تلق أحداً حتى التقت بخليد والمحصورين معه. حينذاك وصلت أمداد المجوس إلى شهرك ثم التحم المسلمون بالفرس وهزموهم ورجعوا جميعاً إلى البصرة. ثم كان ما ذكرنا فى الباب السابق استأذن عتبة عمر فى الحج، فلما تم له ذلك وأدى الحج استعفاه من عمله، فأبى عمر وأعاده إليه، ولكنه توفى بالطريق فى بطن نخلة. وفى رواية أنه كان قد استخلف على قطاع البصرة أبا سبرة بن أبى رُهم فأقره عمر بقية السنة، ثم استعمل عليها المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الأشعرى.

هرمزان عند عمر

انتقاض آخر

استقر يزدجرد بأقصى مملكته في مرو ،واستثار شعبه فاستجابوا له واتجهت جموعهم نحو تستر ، وجاءت أخبارهم إلى غالب وكليب . فكتب سلمى وحرملة إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة .

وكتب عمر إلى سعد إلى أن يبعث من جيش الكوفة إلى الأهواز بصورة عاجلة جندًا كثيفًا مع النعمان بن مقرن المزنى ، وأن يبعث بقوات أخرى مع سويد بن مقرن المزنى وعبد الله بن ذى السهمين وجرير بن عبد الله الحميرى وجرير بن عبد الله البجلى لينزلوا تجاه هرمزان حتى يتبينوا وجهته .

وكتب عمر إلى أبى موسى أيضًا أن يبعث إلى الأهواز جنداً آخر من البصرة وأن يؤمر عليهم سهل بن عدى أخا سهيل ، وفيهم البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب[1] بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وعبدالرحمن بن سهل والحصين بن

(١) كعب بن سور بن بكر بن عبيد بن ثعلبة بن سليم بن ذهل بن لقيط من الأزد ومن كبار التابعين ، وله خبر مع عمر بن الخطاب ، فقد كان كعب جالساً عند عمر فجاءت امرأة فقالت : «ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجى ، إنه ليبيت ليله قائماً ويظل نهاره صائماً فى اليوم الحار ما يفطر» . فاستغفر لها عمر وأثنى عليها وقال : «مثلك أثنى بالخير» ، فاستحيت المرأة وقامت راجعة . فقال كعب : «يا أمير المؤمنين ، هلا أعديت المرأة على زوجها إذ جاءتك تستعديك ؟» فقال : «أكذلك أرادت ؟» قال : «نعم» . قال : «ردوا على المرأة» فردت ، فقال لها عمر : «لا بأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا يزعم أنك جئت تشتكين أنه يجتنب فراشك» . قالت : «أجل ، إنى امرأة شابة وإنى أبتغى ما تبتغى النساء» . فأرسل إلى زوجها فجاء ، فقال عمر لكعب : «اقض بينهما» ، فقال : «أمير المؤمنين أحق بأن يقضى بينهما» . فقال : «عزمت عليك لتقضين بينهما فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم» . قال كعب : «فإنى أرى أن لها يوماً من أربعة أيام إن كان زوجها له أربع نسوة ، فإذا لم يكن له غيرها فإنى أقضى له بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ولها يوم وليلة» ، فقال عمر : «والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاض على أهل البصرة» . فكان كعب بن سور أول قاض بالبصرة ، واستقضاه عثمان أيضاً على البصرة ، ولما ولى ابن عامر استقضى كعباً ، فلم يزل قاضياً على البصرة حتى كان يوم الجمل . فلما اجتمع الناس بالخريبة واصطفوا للقتال ، وكان كعب مع عائشة خرج وبيده المصحف فنشره وشهره وجال بين الصفين يناشد فى دمائهم فأتاه سهم لا يدرى راميه فقتله (الإصابة ٧٤٩٥ – الاستيعاب ٣ / ٢٨٥) .

معبد . وعليهم جميعاً : جيش الكوفة وجيش البصرة ، أبو سبرة بن أبى رهم .

وسلك النعمان وسط السواد حتى عبر دجلة عند ميسان وطلع على الأهواز ، واجتاز نهر تيرى ومناذر وسوق الأهواز ، على البغال يجنبون الخيل ، وقد خلف حرقوصاً وسلمى وحرملة .

وخرج[1] هرمزان من رامهرمز مستجيباً لنداء يزدجرد . وبادر المسلمين بالهجوم عليهم وقد اطمأن إلى أن أمداد المجوس بدأت تصل إلى تُسْتَر[2] ، وفى أربك هزم النعمان هرمزان فانسحب إلى تستر وأخلى رامهرمز وجلت قواته عنها .

إتمام فتح الأهواز

واستولى النعمان على رامهرمز وصعد منها إلى أيذج فصالحه عليها تيرويه ، ثم رجع النعمان إلى رامهرمز . تم هذا بجيش الكوفة الذى يقوده النعمان قبل أن يصل الجند الذين

(١) انظر خريطة رقم (١٠) .

(٢) وصف ابن بطوطة مدينة تستر كما رآها عام ٧٢٧هـ فى رحلته فقال :

«مدينة كبيرة رائقة نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهى قديمة البناء . . ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب فى نهاية من الصفاء شديد البرودة فى أيام الحر ، ولم أر كزرقته إلا نهر بلخشان . ولها باب واحد للمسافرين . ولها أبواب غيره شارعة إلى النهر . وعلى جانبى النهر البساتين والدواليب (السواقى) . والنهر عميق ، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحِلة . والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لأسواقها فى الحسن . . ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً فى جبال شامخة . . ووصلنا إلى مدينة أيذج . . وتسمى هذه البلاد بلاد اللور (١٤٥ – ١٤٧)» .

ومدينة تستر تسمى أيضاً شستر أو شوشتر Shushtar وهى مدينة فى ولاية عربستان الفارسية وهى خوزستان القديمة ، وتقع على خط طول ٤٩ شرقاً وخط عرض ٣٢ شمالاً ، وهى على جرف يجرى إلى غربه نهر دجيل (كارون) الذى يبدأ مجراه الأوسط فى شمال المدينة على بعد أميال قليلة منها . وقد أضفى هذا الموقع عليها أهمية تجارية وحربية كبيرة ، ويسر إنشاء المشروعات المائية المختلفة التى تشتهر بها من زمن بعيد وأشهرها قناة آب كركر (نهر مسروقان) ، وتأخذ من الجانب الأيسر للنهر على مسافة ٦٠٠ ياردة شمالى المدينة ، وتنحدر جنوباً بمحاذاة الجانب الشرقى من جوف تستر ثم تتصل بالنهر مرة أخرى عند بندقير فى مكان عسكر مكرم القديم . وقناطر بند قيصر المعروفة باسم شادروان وطولها ٤٤٠ ياردة على أكبر روافد هذا النهر المعروف باسم الشطيط أو نهر تستر شرقى المدينة ، وكان عليها جسر يصل المدينة بضفة النهر الغربية . وقناة ميناو (أو ميان آب وكانت تعرف أيضاً بنهر داريان) التى تبدأ من أعلى القناطر على شكل سرداب منحوت فى الصخر فى جانب المدينة الغربى وتقوم القلعة فوق هذا الجانب . وكانت هذه القنوات موجودة منذ الجاهلية ، والمدينة قديمة جداً .

طلعوا من البصرة بقيادة سهل بن عدى، فلما كانوا بسوق الأهواز علموا بسقوط رامهرمز فى يد النعمان فاتجهوا نحو تستر، ولحق بهم النعمان وكذلك سلمى وحرملة وحرقوص وجزء. ثم سار أبو موسى مدداً إليهم فكان على جيش البصرة وكان النعمان على جيش الكوفة وكان عليهما جميعاً أبو سبرة.

وحاصرت هذه القوات تستر، وفيها هرمزان، حصاراً دام أشهراً وقع خلالها ثمانون زحفاً كانت دولاً بين المسلمين والمجوس. وفى آخر تلك الزحوف انكشف المسلمون، وكان فيهم البراء[1] بن مالك الذى قال رسول الله ﷺ فيه: «رب أشعث أغبر لا يُؤبه له لو أقسم على الله عز وجل لأبره، منهم البراء بن مالك».

وذكر المسلمون قول نبيهم، فقالوا له: «يا براء أقسم على ربك».

فقال: «أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك»[2].

ولما طالت حربهم خرج رجل من المجوس فأرشد النعمان إلى مدخل للمدينة من جهة مخرج النهر مقابل أن يؤمنوه[3]، ورمى رجل آخر بنشابة إلى جهة جيش أبى موسى فيها رسالة جاء فيها:

«قد وثقت بكم وأمنتكم واستأمنتكم على أن دللتكم على ما تأتون منه المدينة ويكون منه فتحها».

فقبلوا منه ورموا نشابة فيها رسالة بالأمان إلى الجهة التى جاءت منها تلك الرسالة، فرمى إليهم الرجل بنشابة تحمل رسالة:

---

(١) شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ). وكان شجاعاً مقداماً ولشجاعته كان عمر يكتب لقادة جيوشه: «لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم». يوم اليمامة اشتد قتال بنى حنيفة على الحديقة التى بها مسيلمة، فقال البراء: «يا معشر المسلمين القونى عليهم». فاحتملوه حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين، وجرح يومها بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد شهراً حتى برأ من جراحه. وكان البراء حسن الصوت يحدو بالنبى فى أسفاره، فكان هو حادى الرجال وأنجشة حادى النساء. وهو أخو أنس بن مالك خادم رسول الله. قال أنس: دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى ويرنم قوسه (يدندن به)، فقلت: إلى متى هذا؟ فقال: يا أنس، أترانى أموت على فراشى موتاً؟ والله لقد قتلت بضعة وتسعين سوى من شاركت فيه، يعنى من المشركين. وهو البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة.

(٢) أسد الغابة ٣٩١.

(٣) الطبرى ٤ / ٨٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.

«إنهدوا من قبل مخرج الماء فإنكم ستفتحونها».

وتطوع عدد كبير من معسكر جيش البصرة، فيهم عامر بن عبد قيس وكعب بن سور ومجزأة بن ثور وحسكة الحنظلى. كما تطوع عدد كبير من جيش الكوفة، فيهم سويد بن المثعبة وورقاء بن الحارث وبشر بن ربيعة الخثعمى (وهو بسر بن أبى رهم) ونافع بن زيد الحميرى وعبدالله بن بشر الهلالى.

والتقى جند البصرة وجند الكوفة ليلاً عند ذلك المدخل، فتسلل سويد بن المثعبة وعبدالله بن بشر يتبعهما سائر المتطوعين، حتى إذا صاروا داخل الأسوار كبروا وكبر المسلمون فى الخارج، وفتح من دخل الأبواب فتدفق المسلمون من خلالها والتحموا مع المجوس فى معركة ليلية عنيفة. واجتمع المسلمون وانزووا، فركب البراء بن مالك فرسه وحمل المسلمون معه وحصروا هرمزان فى قلعة لم يجد منها مخرجاً، وقد قتل بنفسه البراء بن مالك ومجزأة بن ثور بعد أن قتل البراء من أول الحصار مائة رجل مبارزة سوى من اشترك فى قتله مع غيره، وكذلك مجزأة بن ثور قتل مائة، وكعب بن سور وأبو تميمة من جيش البصرة، وحبيب بن قرة وربعى بن عامر وعامر بن عبدالأسود من جيش الكوفة.

هرمزان الأسير

وقال هرمزان للمسلمين الذين حصروه: «ما شئتم. قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم، ومعى فى جعبتى مائة نشابة، والله ما تصلون إلى ما دام معى منها نشابة وما يقع لى سهم، وما خير أسارى إذا أصبت منكم مائة ما بين قتيل وجريح»؟

قالوا: فتريد ماذا»؟

قال: «أن أضع يدى فى أيديكم على حكم عمر يصنع بى ما شاء».

قالوا: «فلك ذلك».

فرمى بقوسه فشدوا وثاقه.

شهد السائب بن الأقرع الثقفى فتح مهرجان ودخل دار هرمزان (لم نستدل على دار هرمزان فى أى مدن مهرجان كانت) فرأى فيها تمثال ظبى ماداً يده، فقال السائب: «أقسم بالله إنه ليشير إلى شيء»، فنظر فإذا فيه مخبأ لهرمزان فيه سقط (كيس) من جوهر. (الإصابة ٣٠٥٦).

سقطت تستر، واستطاعت بعض الشراذم من الفلول أن تفر فى اتجاه السوس، وخرج أبو سبرة وخرج معه النعمان وأبو موسى وقد أخذوا معهم أثمن أسير أسروه: هرمزان، حتى أحاطوا بالسوس، وكان يقود حاميتها شهريار أخو هرمزان. وكتب المسلمون إلى عمر بأخبارهم، فرد أبا موسى الأشعرى إلى البصرة، ورد عمر بن سراقة من البصرة إلى المدينة[١]، وجعل على جيش البصرة الذى فى سوس المقترب (الأسود) بن ربيعة[٢]، وأمرهم عمر أن يسير زر بن عبدالله[٣] بن كليب الفقيمى إلى جُنْدَىْ سابور، قريباً من السوس. وأرسل أبوسبرة وفداً إلى المدينة فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس والمغيرة ابن شعبة، وأرسل معهم هرمزان مقبوضاً عليه، فقدموا البصرة مع أبى موسى الأشعرى ثم خرجوا منها. فلما اقتربوا من المدينة هيأوا هرمزان فى هيئته، فألبسوه كسوته من الديباج المطعم بالذهب ووضعوا على رأسه الآذين، وهو تاج له كان يلبسه مكللاً باليواقيت، وعليه حليته حتى يراه المسلمون فى صورته التى كان عليها، ثم دخلوا به المدينة.

هرمزان أمام عمر

اتجهوا إلى بيت عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل لهم: «جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة». فانطلقوا إلى المسجد فلم يروه به، فانصرفوا فمروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون، فقال الصبيان:

«ما تَلَدُّدُكم؟ تريدون أمير المؤمنين؟ فإنه نائم فى ميمنة المسجد متوسداً برنسه».

كان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة فى برنس، فلما فرغ من كلامهم وقاموا من مجلسه نزع برنسه ثم توسده فنام. وانطلق الوفد ومعهم هرمزان راجعين إلى المسجد وحولهم الناس والصبيان، حتى إذا رأوا عمر جلسوا دونه وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره، والدرة فى يده معلقة.

(١) الطبرى ٤ / ٨٦ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.

(٢) الأسود بن ربيعة أحد بنى ربيعة بن مالك بن حنظلة من الصحابة المهاجرين، وفد على النبى (ﷺ) وقال: جئت لأقترب إلى الله عز وجل بصحبتك، فسماه المقترب وترك الأسود. شهد صفين مع على.

(٣) زر بن كليب الفقيمى من بنى تميم له صحبة ووفادة على النبى (ﷺ) فى نفر من بنى تميم فأسلم وقال: «فنى بطنى وكثر إخوتنا فادع الله لنا»، فدعا له النبى ولذريته وقال: «اللهم أوف لزر عميرته»، فتحول العدد إليهم. وهو من المهاجرين، كان فى حملة خالد بن الوليد وأرسله إلى أبى بكر بخبر ذات السلاسل والأخماس وبعث معه فيلاً غنموه. وسيأتى له ذكر آخر فى فتح نهاوند، إذ كان عليه أن يشغل المجوس من بين فارس والأهواز عن المسلمين بنهاوند.

وتعجب هرمزان فسأل: «أين عمر؟»

قالوا: «هوذا».

وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن يسكتوا. ومال هرمزان إلى الوفد يسأله: «أين حراسه وحجابه عنه؟»

قالوا: «ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان».

قال: «فينبغى أن يكون نبياً».

قالوا: «بل يعمل عمل الأنبياء».

وكثر الناس، فاستيقظ عمر من لغطهم وضوضائهم.

فنظر وقال: «هرمزان!»

قالوا: «نعم».

فتأمله وتأمل ما عليه وقال:

«أعوذ بالله من النار وأستعين بالله. الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشياعه. يا معشر المسلمين، تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرارة».

فقال الوفد: «هذا ملك الأهواز فكلمه».

قال: «لا، حتى لا يبقى عليه من حليته شىء».

فخلعوا عنه كل شىء إلا شيئاً يستره وألبسوه ثوباً صفيقاً.

محاكمة هرمزان

فقال عمر: «هيه يا هرمزان. كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله؟» فقال: «يا عمر، إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم، فلما كان معكم غلبتمونا».

قال عمر: «إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا.. ما عذرك وما حجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة؟»

قال: «أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك».

قال : «لا تخف» .

فطلب هرمزان ماء ليشرب فأتى به فى قدح غليظ .

قال : «لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا» .

فأتى به فى إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف وقال :

«إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء» .

قال عمر : «لا بأس عليك حتى تشربه» .

فأكفأه هرمزان على الأرض .

قال عمر : «أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش» .

فقال : «لا حاجة لى فى الماء ، إنما أردت أن أستأمن به» .

وعجب عمر ، فأى أمان فى الماء ، قال : «إنى قاتلك»[1] .

قال هرمزان : «قد أمّنتنى» .

قال : «كذبت» .

فقال أنس بن مالك : «صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته» .

ولا يغيب عنا هنا أن أنس بن مالك أخ البراء بن مالك الذى قتله هرمزان بيده فى آخر معاركه التى أسر فيها بتستر ، فلم تمنعه فجيعته فى أخيه أن يشهد شهادة حق لقاتله تنجيه من القتل وتمنحه الحياة .

قال عمر : «ويحك يا أنس ! أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء ؟ والله لتأتينى بمخرج أو لأعاقبنك» .

قال : «قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى ، وقلت لا بأس عليك حتى تشربه» .

وقال له من حوله مثل ذلك ، فأقبل عمر على هرمزان وقال : «خدعتنى .. والله لا أنخدع إلا لمسلم» .

فأسلم هرمزان .

وكان المترجم بين عمر وبين هرمزان المغيرة بن شعبة ، وكان يفقه شيئاً من الفارسية ، وذلك

(١) الطبرى ٤ / ٨٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

إلى أن جاء زيد المترجم[1] .

وفى رواية أن عمر قال للمغيرة : «قل له من أى أرض أنت ؟»

فقال المغيرة : «از كدام أرضى ؟»[2] .

قال هرمزان : «مهرجانى» .

فقال : «تكلم بحجتك» .

قال : «كلام حى أو ميت ؟»

قال : «بل كلام حى» .

قال : «قد أمنتنى» .

قال : «خدعتنى ! إن للمخدوع فى الحرب حكمه ، لا والله لا أؤمنك حتى تسلم» .

فأسلم ، وفرض له عمر ألفين من العطاء وأنزله المدينة ، وقال للمغيرة :

«ما أراك بها (باللغة الفارسية) حاذقاً ، ما أحسنها منكم أحد إلا خَبَّ وما خَبَّ إلا دَقَّ ، إياكم وإياها فإنها تنقض الإعراب» .

(١) الطبرى ٤ / ٨٨ س ش س عن أبى سفيان طلحة بن عبدالرحمن عن أبى عيسى .

(٢) بالفارسية معناها «من أى أرض أنت ؟»

فتح السوس[1]

أحاط المسلمون بالسوس وعليها شهريار أخو هرمزان، وحدثت بين الطرفين عدة مناوشات ومصادمات أصاب فيها المجوس من المسلمين. وأشرف الرهبان والقسيسون يوماً من على أسوار المدينة وقالوا:

«يا معشر العرب، إن مما عهد إلينا علماؤنا وأوائلنا أنه لا يفتح السوس إلا الدجال أو قوم فيهم الدجال. فإن كان الدجال فيكم فستفتحونها، وإن لم يكن فيكم فلا تعنوا بحصارنا».

كان ذلك قبل إعادة أبى موسى الأشعرى إلى البصرة. ثم بدأ تجمع كبير آخر للمجوس فى نهاوند. وعاد الرهبان والقسيسون وأشرفوا على المسلمين مرة أخرى فقالوا:

«يا معشر العرب لا تعنوا بحصارنا، فإنه لا يفتحها إلا الدجال أو قوم معهم الدجال».

وصاحوا بالمسلمين وغاظوهم. ورأى المسلمون أن يهاجموا السوس قبل أن يضطروا إلى تفريق قواتهم بينها وبين الجمع الذى يحتشد فى نهاوند، فشنوا هجوماً على المدينة واستطاعوا أن يخترقوا تحصيناتها، فبادر أهلها يستسلمون ويطلبون الصلح. وكان يقود جند البصرة المقترب مكان أبى موسى، ويقود جند الكوفة النعمان بن مقرن مع أبى سبرة وعلى خيل النعمان صاف بن عياد[2].

(١) الطبرى ٤ / ٩١ عن سيف.
(٢) الطبرى ٤ / ٩٢.

أمان ووفاء فى جندى سابور

ثم خرج النعمان بجيش الكوفة من السوس فنزل على ماء على الطريق إلى نهاوند، بينما بعث أبو سبرة المقترب الأسود بن ربيعة إلى جندى سابور فانضم[1] بها إلى زر بن عبدالله بن كليب.

ولحق بهم أبو سبرة فأقاموا على المدينة يتراوحون القتال[2]. وفى يوم فوجئ المسلمون بأبواب جندى سابور تفتح ثم خرج الناس والمواشى ونصبوا أسواقهم. فأرسل المسلمون إليهم يسألونهم: «ما لكم؟!»

قالوا: «رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا».

فأنكر المسلمون وقالوا: «ما فعلنا».

وقال الآخرون: «ما كذبنا».

فسأل المسلمون فيما بينهم فوجدوا عبداً بينهم يدعى مكنفاً كان أصله من جندى سابور، هو الذى كتب لهم الأمان ورماه إليهم من عسكر المسلمين.

فقال المسلمون: «إنما هو عبد».

قال أهل المدينة: «لا نعرف حُرّكم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل، فإن شئتم فاغدروا».

فكف المسلمون عنهم حتى رجعوا إلى عمر فكتب إليهم:

«إن الله عظَّمَ الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا. ما دمتم فى شك أجيزوهم وَفُوا لهم».

فانصرف المسلمون عنهم وفاء لأمان عبد بينهم.

(١) الطبرى ٤ / ٩١ س ش س عن محمد وطلحة وأبى عمرو ودثار أبى عمر عن أبى عثمان وللمدائنى رواية مخالفة اكتفينا بهذه عنها.
(٢) الطبرى ٤ / ٩٣ س ش س عن محمد وطلحة وأبى عمرو وأبى سفيان والمهلب.

وفى ذلك قال عاصم بن عمرو :(١)

لعَمرى لقد كانت قرابة مكنفٍ ... قرابة صدقٍ ليس فيها تقاطع
أجارهم من بعد ذلٍّ وقلَّةٍ ... وخوفٍ شديدٍ والبلادُ بلاقع
فجاز جوار العبد بعد اختلافنا ... وردَّ أموراً كان فيها تنازع
إلى الركن والوالى المصيب حكومة ... فقال بحق ليس فيه تخالع

(١) معجم البلدان...

حشود بنهاوند

وتحدث عمر إلى وفد البصرة وسأل عن سبب انتقاض أهل الذمة.

قال: «لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم؟»

قالوا: «ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة».

قال: «فكيف هذا؟»

فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويزيده بصيرة إلا ما كان من الأحنف بن قيس، فإنه قال:

«يا أمير المؤمنين أخبرك، إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا. وإن ملك فارس حى بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم. ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه. وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم. وإن ملكهم هو الذى يبعثهم، و لايزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا، فلنسح فى بلادنا حتى نُزيله عن فارس ونُخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضربوا جأشاً».

قال عمر: «صدقتنى والله وشرحت لى الأمر عن حقه»(١).

وقد لفتت هذه الإجابة نظر عمر إلى الأحنف بن قيس وما له من نظر استراتيجى، فأعاد عمر الوفد إلى البصرة.

ثم قدم على عمر كتاب بانتهاء أهل مهرجانقذق والأهواز إلى مشيئة هرمزان، وكأنما كان هرمزان قلعة من قلاع الفرس سقطت، وباجتماع الفرس فى نهاوند، وكان المسلمون مازالوا محاصرين السوس لم يفتحوها، وكان قباذ بن عبدالله الفارسى المسلم الذى استخلفه القعقاع بن عمرو على حلوان، هو الذى أرسل إلى سعد باجتماع المجوس بنهاوند، فكتب سعد إلى عمر.

(١) الطبرى ٤ / ٩٤ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو عن الشعبى وسفيان عن الحسن.

عزل سعد

شكوى وتحقيق

وذهب نفر من أهل الكوفة إلى عمر يشكون سعداً: «إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية ولا يغزو فى السرية ولا يحسن الصلاة!».

قال عمر: «إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد (يقصد المجوس بنهاوند). وأيم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم».

وبعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة للتحقيق فى الأمر، وكان ابن مسلمة هو النيابة الإدارية المختصة بالتحقيق مع الولاة الذين تصل إلى عمر شكايات فى حقهم. بعثه والمسلمون بالعراق يستعدون للخروج إلى المجوس الذين اجتمعوا بنهاوند، فهم فى حركة واجتماع تموج بهم الكوفة.

وأخذ محمد سعداً ليطوف به على أهل الكوفة فى مساجدها، لا يسأل عنه سراً فلم يكن السؤال فى السر من شأنهم إذ ذاك. فكان لا يقف به فى مسجد من مساجد الكوفة فيسألهم عنه إلا قالوا خيراً:

«لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهى به بدلاً ولا نقول فيه ولا نعين عليه».

إلا من مالأ الجراح بن سنان الأسدى وأصحابه الذين شكوا سعداً، فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً ولا يسوغ لهم، ويتعمدون ترك الثناء، حتى انتهوا إلى مسجد بنى عبس، فقال محمد بن مسلمة:

«أنشد بالله رجلاً يعلم حقاً إلا قال».

فقال رجل يدعى أسامة بن قتادة: «اللهم إن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسويّة ولا يعدل فى الرعية ولا يغزو فى السرية».

دعوة سعد المستجابة

قال سعد: «اللهم إن كان قالها كاذباً ورياء وسمعة، فأَعْم بصره وأكثرْ عياله وَعَرِّضْهُ لمضلاّت الفتن».

وكان سعد مستجاب الدعاء، فعاش ذلك الرجل حتى عمى واجتمع عنده عشر بنات، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسها ويتعرض للجوارى فى السكك، فإذا عُثر عليه أو خوطب فى ذلك قال:

«مفتون أصابته دعوة سعد بن أبى وقاص الرجل المبارك!»

وأقبل سعد يدعو على أولئك النفر:

«اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً وكذباً فأجهد بلاءهم».

فجهد بلاؤهم حتى قُطِّع الجراح بن سنان بالسيوف يوم ثار على الحسن بن على ليغتاله بساباط، وشُدِخَ قبيضة بالحجارة، وقُتِل أربد بالوَجْءِ وبنعال السيوف.

واستمر سعد الصحابى البطل المفترى عليه يتكلم، فقال:

«إنى لأول رجل أهرق دماً من المشركين. ولقد جمع لى رسول الله ﷺ أبويه وما جمعهما لأحد قبلى، ولقد رأيتنى خمس الإسلام وبنو أسد تزعم أنى لا أحسن أصلى وأن الصيد يلهينى؟!»

سعد يعود إلى المدينة

وخرج محمد من الكوفة بسعد ومعهما أولئك النفر حتى قدم بهم على عمر فأخبره الخبر.

قال عمر: «يا سعد ويحك! كيف تصلى؟».

قال: «أطيل الأولين وأحذف الأخرين».

فقال: «هكذا الظن بك».

ومن المؤكد أن سعداً كان يقول الحقيقة، فلم يكن ليداهن أو يقابل عمر بوجه وأهل الكوفة

بوجه آخر، فسعد هو الذى روى عن رسول الله ﷺ قوله[1]: «ذو الوجهين فى الدنيا يأتى يوم القيامة وله وجهان من نار».

فما كان ليروى الحديث مع ما فيه من ترهيب ثم يخالفه.

ثم قال عمر: «لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيِّناً. من خليفتك يا سعد على الكوفة؟»

قال: «عبدالله بن عبدالله بن عتبان»[2].

فأقره عمر واستعمله. فكانت كل مقدمات نهاوند ومشورتها وترتيبها وبعوثها فى إمارة سعد، أما الموقعة ذاتها فكانت فى إمارة عبدالله.

(١) الطبرانى فى الأوسط.

(٢) الطبرى ٤ / ١٢٢ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

الباب السادس

نهاوند وما بعدها

نهاوند

مقدمات

حين استطاع جيش البصرة أن ينقذ جيش العلاء بن الحضرمى ووطئوا أرض فارس وأعجزوا هرمزان، كاتب الفرس يزدجرد وهو يومئذ بمرو فأثاروه لتحرك جديد، فكتب إلى كافة أقاليم مملكته فتكاتبوا وقال بعضهم لبعض:

«إن محمداً الذى جاء العرب بالدين لم يغرض غرضنا. ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض أهل فارس إلا فى غارة تعرض لهم فيها وإلا فيما يلى بلادهم من السواد. ثم ملك عمر من بعده فطال مُلكه وعرض حتى تناولكم وانتقصكم أهل السواد والأهواز وأوطأها. ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أخرب بيت مملكتكم واقتحم بلاد ملككم وليس بِمُنْتَهٍ حتى تخرجوا من فى بلدكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين (الكوفة والبصرة) ثم تشغلوه فى بلاده وقراره».

وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً[1]. وأجابوا يزدجرد وركب بعضهم إلى بعض واختاروا نهاوند ليجتمعوا بها ويبرموا فيها أمورهم. ونهاوند مدينة حصينة تقوم على ربوة شاهقة ترتفع ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترتفع كثيراً فوق ما أمامها من أرض. وجاؤوا إليها من بين خراسان إلى حلوان ومن بين الباب إلى حلوان ومن سجستان إلى حلوان وأهل الجبال.

وكان قباذ بن عبدالله على ثغر حلوان منذ استخلفه القعقاع بن عمرو عليها. فكتب بذلك إلى سعد وكتب سعد إلى عمر. ثم عزل سعد عن الكوفة وقدم المدينة فحدث عمر فى شأن حشود العجم بنهاوند وقال له:

«إن أهل الكوفة يستأذنونك فى الانسياح فى أن يبادروهم الشدة».

---

(١) الطبرى ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.
وشاركهم موسى عن حمزة بن المغيرة بن شعبة بن أبى طعمة الثقفى وكان قد شهدها.

وكان عمر مازال يمنع المسلمين من الانسياح فى الجبال. ومن الكوفة كتب ابن عتبان وغيره إلى عمر مع رسول اسمه قريب بن ظفر العبدى:

«إنه قد تجمع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة. وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم».

وقرأ عمر الرسالة ثم قال للرسول: «ما اسمك؟»

قال: «قريب».

قال: «ابن من؟»

قال: «ابن ظفر».

فتفاءل عمر وقال: «ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله».

هرمزان يشير وعمر يستشير

وفى الروايات أن عمر حين أمّن هرمزان قال له: «لا بأس، انصح لى».

قال: «نعم، إن فارس اليوم رأس وجناحان».

قال: «وأين الرأس؟»

قال: «بنهاوند مع بندار، فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان».

قال: «وأين الجناحان؟»

قال: «آذربيجان[1]. فاقطع الجناحين يُهن الرأس».

قال عمر: «كذبت يا عدو الله، بل اعمد إلى الرأس فاقطعه، فإذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان».

ثم نودى فى الناس[2]: «الصلاة جامعة»، فاجتمع الناس ووافاه سعد وقام عمر على المنبر

---

(١) الطبرى ٤ / ١١٧ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد ابن جبير عن أبيه.. وقال الراوى: «فذكر مكاناً نسيته»، وقد أكملناها من رواية البلاذرى أن هرمزان قال: «أصبهان الرأس وآذربيجان الجناحان، فإن قطعت الرأس سقط الجناحان والرأس». فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبى عمران الجرنى عن علقمة ابن عبدالله عن معقل بن يسار.

(٢) الطبرى ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

فأخبر الناس بخبر حشود نهاوند واستشارهم فقال:

«هذا يوم له ما بعده من الأيام. ألا وإنى قد هممت بأمر وإنى عارضه عليكم فاسمعوه ثم أخبرونى وأوجزوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ويلتوى عليكم الرأى.

أفمن الرأى أن أسير فيمن قبلى ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضى ما أحب فإن فتح الله عليهم أضربهم عليهم فى بلادهم وليتنازعوا ملكهم؟».

فقام طلحة بن عبيد الله[1]، وكان من خطباء الصحابة، فتشهد ثم قال:

«أما بعد، يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور وعجمتك البلايا واحْتَنَكَتْكَ التجارب وأنت وشأنك وأنت ورأيك. لا ننبو فى يديك ولا نكل عليك. إليك هذا الأمر فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب ووفدنا نفد وقدنا ننقد. فإنك ولى هذا الأمر وقد بلوت وجربت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار».

ثم جلس وقد رد الرأى إلى عمر أو كأنه وافقه على ما عرض، وعمر يطلب الرأى، فعاد عمر يقول:

«إن هذا يوم له ما بعده من الأيام، فتكلموا».

فقام عثمان بن عفان فتشهد وقال:

«أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شأمهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين (الكوفة والبصرة)، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين. فإنك إذا سرت بمن معك وعندك قل فى نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنت أعز عزاً وأكثر.

يا أمير المؤمنين، إنك لا تستبقى من نفسك بعد العرب باقية، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز. إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه».

ثم جلس. هذا رأى عثمان، فكما بعث عمر جيش الكوفة إلى الشام ليرد هجوم الروم

---

(١) الطبرى ٤ / ١٢٤ س ش س عن أبى بكر الهذلى.

وأهل الجزيرة عن حمص، فينبغى أن يتحرك جيش الشام للقاء اجتماع العجم بنهاوند، ومن حيث أن عددهم كبير فليضم عمر إلى جيشه كافة قواته من اليمن والحرمين وجيش البصرة وجيش الكوفة ثم يكون معهم بشخصه. إنهاوجهة نظر. ويريد عمر أن يرى إن كان هناك آراء أخرى، فعاد يقول:

«إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا».

فقام[1] الزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف فى رجال من أهل الرأى من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا، وكان العباس بن عبدالمطلب هو الذى ينقد له الرأى، قالوا:

«لا نرى ذلك (يعنى أن يسير عمر بنفسه)، ولكن لا يغيبن عنهم رأيك وأثرك. بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ومن قد فض جموعهم وقتل ملوكهم وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك، فأذن لهم واندب إليهم وادع لهم».

وقالوا: «نذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تسير بنفسك إلى حلبة العجم، فإن أصبت لم يكن للمسلمين نظام ولكن ابعث الجنود».

ثم قام على بن أبى طالب فقال: «أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأى، وفهموا ما كتب به إليك، ومكانك منهم مكانَ النظام من الخرز يجمعه ويمسكه فإذا انحل تفرق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً.

والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهى عزيز بالإسلام.

فإنك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات.

فأقم وأقرر هؤلاء فى أمصارهم، واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومن لم يحفل بمن هو أَجْمع وأَحَد وأَجَد من هؤلاء، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث. واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق، فلتقم فرقة لهم فى حرمهم وذراريهم، ولتقم فرقة فى أهل عهدهم (بالأهواز) لئلا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم.

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب، فكان ذلك أشد

(١) الطبرى ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد.

لكَلَبِهم وأَلْبَتَهم على نفسك. وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر، وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة. هو دينه الذى أظهر، وجنده الذى أعز وأيده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله، والله منجز وعده وناصر جنده».

وقال سعد[1] بن أبى وقاص: «يا أمير المؤمنين خفض عليك، فإنهم إنما جمعوا لنقمة».

فسر عمر بحسن رأيهم وأعجبه ذلك منهم، فقال:

«أجل. لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضنَّ علىَّ الأرضُ من أطرافها وأكنافها. ولئن نظرت إلى الأعاجم لا يفارقنّ العرصة (الميدان) وليمدُّنَّهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب. فأشيروا علىّ برجل أُوَلِّه ذلك الثغر غداً».

قال قائل منهم: «أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة»

قال عمر: أشيروا علىّ واجعلوه عراقياً (من جيش فتح العراق)».

قالوا: «يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم».

فقال: «أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكونن لأول الأسنة إذا لقيها غداً».

قالوا: «من يا أمير المؤمنين؟»

قال: «النعمان بن مُقَرِّن المُزَنى».

قالوا: «هو لها».



رسم تصورى لموقع نهاوند

(١) الطبرى ٤ / ١٢٤ س ش س عن حمزة بن المغيرة بن شعبة عن أبى طعمة الثقفى.

النعمان أمير الجيش

كان النعمان يومئذ قد فرغ من عمليات الأهواز فى أربك ورامهرمز وتستر والسوس وجُنْدَىْ سابور، فاستعمله سعد بن أبى وقاص قبل عزله على خراج كسكر، كما استعمل أخاه سويد بن مقرن على خراج ما سقى الفرات. فكتب النعمان إلى عمر يشكو إليه استعماله على الخراج وأنه لا يحب مناصب الإدارة ولكنه يرغب فى الجهاد[1]. وكان مما كتب إلى عمر:

«مثلى ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطر، فأنشدك الله لما عزلتنى عن كسكر وبعثتنى إلى جيش من جيوش المسلمين»[2].

وكتب سويد بن مقرن إلى عمر بمثل ذلك.

وكتب عمر إلى النعمان مع زر بن كليب والمقترب الأسود بن ربيعة:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن.

سلام عليك. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند. فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار»[3].

---

(١) الطبرى ٤ / ١١٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

(٢) الطبرى ٤ / ١٢٦ عن محمد بن عبيد الله بن صفوان الثقفى عن أمية بن خالد عن أبى عوانة عن حصين بن عبدالرحمن عن أبى وائل.

وهناك روايات أخرى بأن النعمان كان بالبصرة بعد الفراغ من فتح الأهواز، وذهب آخرون إلى أنه كان قد عاد إلى المدينة فبعثه عمر مشافهة. (فتوح البلدان ٧٥٩ عن محمد بن سعد عن الواقدى عن محمد بن نجاد). وإن عمر دخل المسجد فأبصر بالنعمان فقعد إلى جنبه فلما قضى صلاته قال: «أما إنى سأستعملك». قال النعمان: «أما جابياً فلا، ولكن غازياً». قال: «فأنت غاز». (فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن علقمة بن عبدالله عن معقل بن يسار). ولكننا وقفنا على تسعة وجوه تذهب إلى أن النعمان كان عاملاً على كسكر حين بعثه عمر إلى نهاوند. (فتوح البلدان ٧٥٩ عن الواقدى عن محمد بن نجاد - الطبرى ٤ / ٢٣ س ش س عن محمد بن كريب عن نافع بن جبير - الطبرى ٤ / ١١٤ عن ابن اسحق - الطبرى ٤ / ١٢٦ عن أبى وائل - الطبرى ٤ / ١٣٩ عن سيف عن كل من محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد).

(٣) الطبرى ٤ / ١١٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

فسِرْ من وجهك ذلك حتى تأتى ماه، فإنى قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها. فإذا اجتمع لك جنودك فسر إلى فيرزان ومن تجمع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله[1]. والسلام عليك».

كذلك كتب إلى عبدالله بن عبدالله بن عتبان بالكوفة مع ربعى بن عامر: «أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا (الثلثان الذين أشار بهم على ابن أبى طالب)، فإنى قد كتبت إليه بالتوجه من الأهواز إلى ماه. فليوافوه بها وليسر بهم إلى نهاوند، وقد أمرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهى إلى النعمان بن مقرن. وقد كتبت إلى النعمان إن حدث بكِ حدث فعلى الناس حذيفة بن اليمان، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن»[2].

وكان الذى على جند البصرة أبو موسى الأشعرى[3].

توغل فى بلاد العجم

وردَ عمر قريب بن ظفر العبدى إلى الكوفة، ورد معه السائب بن[4] الأقرع الثقفى أميناً للأقباض وقسم الفىء، وكان رجلاً كاتباً حاسباً، ولن تكون هناك أقباض وفىء إلا مع النصر، فقال له:

«الحق بهذا الجيش فكن فيهم، فإن فتح الله عليكم فاقسم ما أفاء الله عليهم بينهم، وخذ خمس الله وخمس رسوله. ولا تخدعنى ولا ترفع إلى باطلاً، وإن نُكِبَ القوم فلا ترانى ولا أراك فاذهب فى سواد الأرض، فبطن الأرض خير من ظهرها»[5].

---

(١) الطبرى ٤ / ١٢٤ س ش س عن أبى بكر الهذلى.

(٢) فى رواية ابن اسحق أن خليفة النعمان كان حذيفة ثم جرير بن عبدالله ثم قيس بن مكشوح - الطبرى ٤ / ١١٥. وفى رواية ابن سعد عن الواقدى عن محمد بن نجاد أنهم كانوا النعمان ثم حذيفة ثم جرير البجلى ثم المغيرة بن شعبة ثم الأشعث بن قيس.

(٣) فتوح البلدان ٧٧١.

(٤) السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر بن سفيان بن عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم ابن ثقيف الثقفى وأمه مليكة. دخل مع أمه على النبى (ﷺ) فمسح النبى برأسه ودعا له. استعمله عمر على المدائن ثم ولى أصبهان ومات بها وله فيها ذرية. (أسد الغابة ١٩٠٢).

(٥) الطبرى ٤ / ١١٦ بدون إسناد.

فتوح البلدان ٧٦٣ عن القاسم بن سلام عن محمد بن عبدالله الأنصارى عن النهاس بن قهم بن القاسم بن عوف عن أبيه عن السائب بن الأقرع.

فقدِما الكوفة بكتاب من عمر يستحثهم على الخروج فتسارعوا إلى ذلك، وخرج بهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن حتى قدموا على النعمان فى مكان اسمه الطراز (بينها وبين نهاوند بضعة وعشرون فرسخاً – حوالى ١٣٠ كلم). فجعلوا بمرج[1] القلعة قوة من الخيالة عليها النسير بن ديسم العجلى يدلنا مكان الطرز ومكان مرج القلعة على الخريطة على أن حذيفة ونعيم وجيشهما الذى خرج معهما من الكوفة قد سلكا طريق حلوان، وأنهم جعلوا من الطراز مكان تجمع ونقطة التقاء حتى يسيروا جميعاً جيشاً واحداً على تعبئة إلى نهاوند. كذلك كتب عمر إلى سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وزر بن كليب والمقترب الأسود بن ربيعة والقواد الذين كانوا بين فارس والأهواز – وهم الذين كانوا يمثلون الثلث الثالث من جند البصرة الذى تحدث عنه على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما – أن يشغلوا الفرس عن قطاع نهاوند، وقال لهم:

«اشغلوا فارس عن إخوانكم وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم. وأقيموا على حدودها بين الأهواز وفارس حتى يأتيكم أمرى».

وبعث مجاشع بن مسعود السلمى إلى الأهواز وقال له: «انصل منهاعلى ماه» يعنى يسلك الأهواز إلى ماه. فخرج حتى إذا كان فى غُضَى شجر أمره النعمان أن يقيم مكانه شأن القادة الآخرين الذين عليهم مهمة تأمين ظهر القوة الأساسية وتأمين مواصلاتها. فأقام بين غضى شجر ومرج القلعة (وكان النسير بمرج القلعة) وخرج سلمى وحرملة وزر والمقترب فكانوا بتخوم أصبهان وفارس. وبذلك قطعوا عن قوات نهاوند من المجوس طريق أى أمداد جديدة من تجاه فارس والجنوب، فكانت هذه الحاميات الكثيرة المنتشرة على طول الحدود (أو خط اقتسام النفوذ) بين ما غزا المسلمون وبين ما يملك يزدجرد، وتقيم خط دفاع قوياً يتيح للنعمان أن يتقدم إلى نهاوند فى الطرق الجبلية الوعرة بجيشه فى ثقة وأمان.

السير فى الجبل

كثيراً ما نرى من بعض الجيوش الكبرى حتى عصرنا هذا أنها تعنى قدر جهدها بالجبهة

(١) من حلوان إلى مدراوستان أربعة فراسخ ثم إلى مرج القلعة ستة فراسخ ثم إلى قصر يزيد أربعة فراسخ ثم إلى الزبيدية ستة فراسخ ثم إلى حشكاريش ثلاثة فراسخ ثم إلى قصر عمرو أربعة فراسخ ثم إلى قرميسين (كرّمانشاه) ثلاثة فراسخ، فذلك من قرميسين إلى حلوان ثلاثون فرسخاً (قدامة بن جعفر ١٩٨)، والفرسخ = ٥٥٤٤ متر (يرجع إلى الجزء الأول من الطريق إلى المدائن).

بمعناها الضيق المحدود، وتنسى ما وراء ذلك فتفقد حرصها وحذرهاوأخذها بعنصر الأمان، فتأتيها النكبة من حيث لم تحتسب وتكون كارثتها مضمونة محققة دون ما قتال جدى. ولكن عباقرة الحرب من الصحابة المحاربين (عمر وأصحابه) لم يغفلوا عن هذا المبدأ من مبادئ الحرب. نلحظ ذلك فى هذا التحرك وهم يحمون ظهورهم وأجنابهم ببعض قواتهم، ويسدون المسالك على أية قوات فارسية عسى أن تفكر فى دخول الميدان من أجنابه أو من ظهره. ولعلنا لم ننس ما ذكرنا فى هذا الشأن فى تعليقنا على حملة خالد بن الوليد بالجزء الثانى من الكتاب الأول «الطريق إلى ا لمدائن».

لقد رأينا المسلمين فيما مضى من فتوح قد خاضوا معارك الصحراء ومعارك الأنهار، وكانت بعض معارك الأهواز معارك جبال، كذلك كانت معركة نهاوند معركة جبال وهى أحق بهذا الوصف من أية معركة سبقت. ويتسم هذا النوع من العمليات بصعوبة لا حد لها للسير فى الجبال بأرتال كبرى. ونستعير هنا تصوير كلاوز فيتز لهذا النوع من المسيرات فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى، وكان يعتمد أيضاً على الخيل والبغال، يقول[1]:

«عندما يتلوى قول من القولات بصعوبة بالغة على طول المضائق الضيقة ليتسلق جبلاً من الجبال ويتقدم فيه بخطوة تشبه خطوة السلحفاة.. وعندما يشتم المدفعيون وسائقوا العربات أحصنتهم ورواحلهم ويسوقونها بضربات سياطهم عبر وديان قاحلة، وعندما ينبغى أن نبعد كل عربة محطمة وأن نبذل فى سبيل ذلك جهوداً مضنية لا توصف، على حين يتعثر كل شىء خلفنا ونحن نطلق الشتائم والسباب.. عندما يحدث كل ذلك يقول كل واحد لنفسه: «يكفى أن يظهر العدو بمئات من الرجال ليطير كل شىء هباءً منثوراً».

وحتى لا يحدث ذلك للجندى المسلم فى مسيرته، مع ما قد يحدثه من ردود فعل ربما أثرت فى معنويته، فقد أمن المسلمون ظهورهم وأجنابهم وبقى احتمال الخطر من أمامهم أثناء تلك المسيرة الخطرة، ولذلك عمد النعمان إلى الاستكشاف، ولقد كان النعمان ومن معه ذوى تجربة لها قيمتها فى الحرب. يقول كلاوز فيتز بعد ما تقدم:

«.... ومع ذلك فإن كل من لديه بعض التجربة فى الحرب يعرف، أو عليه أن يعرف، أن مسيرة من هذا النوع عبر الجبل لا علاقة لها مع الهجوم الجبلى، وأن من الخطأ أن نستنتج من صعوبة المسير هذه صعوبة هجوم فى الجبل، لأن هذه الصعوبة فى الواقع أهم وأكبر».

(١) فى الحرب ٢٠٠ للجنرال كارل فون كلاوز فيتز – تعريب أكرم ديرى والمقدم الهيثم الأيوبى.

استكشاف

لما قَدِم جند الكوفة على النعمان بالطراز حمل إليه قريب بن ظفر كتاب عمر :

«إن معك حد العرب ورجالهم فى الجاهلية ، فأدخلهم دون ما هو دونهم فى العلم بالحرب ، واستعن بهم وأشرب برأيهم ، وسل طليحة وعمرا ولا تولهم شيئاً» .

فبعث النعمان من طراز طليحة بن خويلد وعمرو بن أبى سلمى العنزى وعمرو بن معدى كرب الزبيدى طليعة ليأتوه بالخبر ، وطلب منهم ألا يوغلوا فلما ساروا يوماً إلى الليل رجع عمرو بن أبى سلمى إلى المسلمين .

فقالوا : «ما رجعك ؟»

قال : «كنت فى أرض العجم وقَتَلَتْ أرضٌ جاهِلَها وقتل أرضاً عالِمُها» .

ومضى طليحة وعمرو بن معدى كرب حتى إذا كان آخر الليل رجع عمرو ، قالوا : «ما رجعك ؟»

قال : «سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً وخفت أن يؤخذ علينا الطريق» .

أما طليحة فلم يحفل بهما ومضى وحده حتى انقطعت أخباره وظن المسلمون به الظنون فقالوا : ارتد مرة أخرى ولحق بالمجوس . سار طليحة حتى انتهى إلى نهاوند - وبين طِرَاز ونهاوند حوالى ١٣٠ كيلو متراً - فعلم علم القوم وأطلع على ما أراد ثم رجع ، فلما انتهى إلى جيوش المسلمين ورأوه عاد كبّروا .

فقال : «ما شأن الناس ؟»

فأخبروه بالذى خافوا عليه ، فأنكر عليهم ظنونهم ثم دخل على النعمان فأخبره الخبر وأعلمه أن ليس بينه وبين نهاوند شىء يكرهه ولا أحد من المجوس على ذلك الطريق .

تعبئة وتقدم

عند ذلك نادى النعمان بالرحيل وأمر جنده بالتعبئة . وبعث إلى مجاشع بن مسعود أن يتحرك من خلفهم مؤخرة لهم . وبالرغم من خلو الطريق وفق ما أعلمه به طليحة ، فقد سار النعمان على تعبيته ، فقد استكشف الطريق ولم يستكشف أجنابه ، فكان على المقدمة أخوه

نعيم بن مقرن ، وعلى الميمنة حذيفة ابن اليمان ، وعلى الميسرة أخوه سويد بن مقرن ، وعلى المجردة (الفرسان) القعقاع بن عمرو ، وعلى المؤخرة مجاشع بن مسعود . هذا السير يشرحه لنا قول كلاوز فيتز[١] :

«تحتاج كل قطعة عسكرية غير مستعدة للقتال بشكل تام ، لمقدمة تفتش عن العدو وتكتشف تقدمه قبل أن يدخل فى حقل أنظار القطعة» .

كان فى هذا الجيش وجوه جند الكوفة والبصرة وأمداد من أهل المدينة فيهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وجرير بن عبدالله البجلى وجرير بن عبدالله الحميرى وسويد بن مقرن ومعقل بن مقرن ونعيم بن مقرن إخوة النعمان ، والقعقاع بن عمرو ومجاشع بن مسعود وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوبر وربعى بن عامر والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد وقيس بن مكشوح المرادى[٢] ، فساروا حتى انتهوا إلى أسبيذهان والعجم وقوف على تعبيتهم قبل وَايْ خُرْد .

تعبية العجم

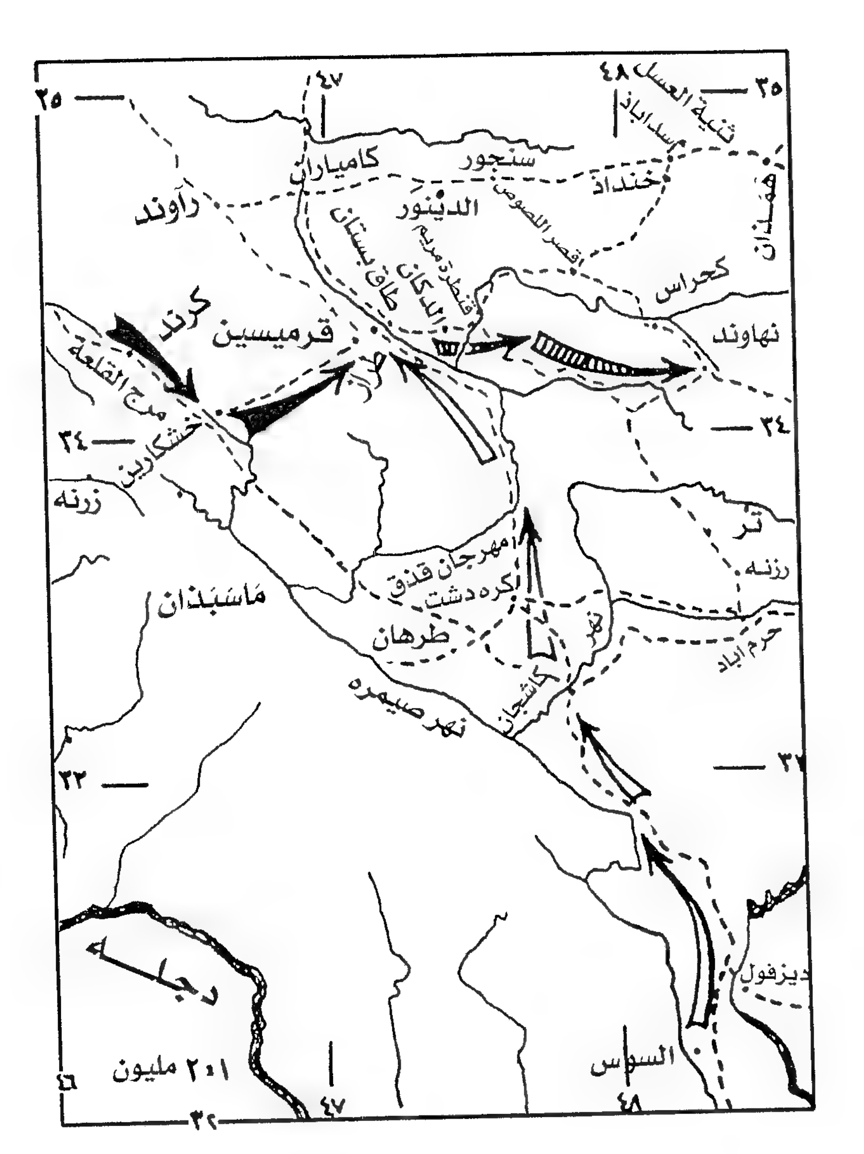
وكان قائد العجم فيرزان وعلى ميمنته زردق وعلى ميسرته شخصية غامضة قال الرواة عنها إنه «بهمن جاذويه الذى جُعل مكان ذى الحاجب» ، ولكننا نعلم أن بهمن جاذويه هو نفسه ذو الحاجب الذى قتله القعقاع بن عمرو مبارزة يوم أغواث بالقادسية . وبعض الرواة قال : «ذو الحاجبين»[٣] . وكان على فرسانهم أنوشق . وقد اجتمع لهم فى ذلك الحشد كل من غاب عن القادسية والملاحم التى بعدها ، من قوات الثغور وأمرائهم وأعلامهم ، وقد استشعروا بالخطر الذى كان يدق أبواب دولتهم وينتقص من أطرافها وينتزع عاصمتهم المدائن التى كانت فى الواقع خارج أرض فارس نفسها . هذا الخطر الداهم شرع يتوغل إلى قلب المملكة ويعيد مع الفرس سيرة الإسكندر الأكبر . فاجتمع لهم جمع من القوات المقاتلة لم يجتمع لهم من قبل فى معركة ضد المسلمين . كان جيشهم فى القادسية مائة وعشرين ألف مقاتل ، وجيشهم الآن بنهاوند مائة وخمسون ألفاً .

---

(١) فى الحرب ٤١ .

(٢) الطبرى ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٣) وفى رواية عن معقل بن يسار قال : «وملكهم ذو الجناحين» (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ٤ / ٢٧٨) . ولعله يقصد هذا .



خريطة (١٢) الزحف إلى نهاوند   المقياس ١ / ٢ مليون

تكبير

فلما رآهم النعمان كبر وكبر المسلمون معه فتزلزل لتكبيرهم العجم. إن من شهد منهم القادسية لم ينسوا تكبيرات سعد وتكبيرات المسلمين معه، ومن كان فى المدائن لم ينسوا تكبيرات ضرار بن الخطاب والمسلمين معه، ومن كان فى تستر لم ينسوا تكبيرات من تسلل ليلاً إلى داخلها، ومن لم يشهد شيئاً من ذلك لابد أن يكون قد سمع عنه ممن شهده، ففى كل موقعة لقى العجم فيها المسلمين فانهزموا أمامهم كان للمسلمين تكبير اقترن فى لفظه ومعناه وأدائه هتافاً أو ترنيماً بنصر المسلمين وهزيمة المجوس.

وأمر النعمان بحط الأثقال وضرب الفسطاط، فابتدره أشراف أهل الكوفة وسابقوا فى بنائه أكفاءهم فى تحرك ينم عن حبهم لقائدهم النعمان، فسبقوهم وأقاموه والنعمان واقف، وكانوا أربعة عشر هم: حذيفة بن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب وابن الهوبر وربعى بن عامر وعامر بن مطر وجرير الحِمْيَرى والأقرع بن عبدالله الحميرى وجرير البجلى والأشعث بن قيس الكندى وسعيد بن قيس الهمذانى ووائل بن حجر، فلم يكن بُناة فسطاط بالعراق كهؤلاء. فما أن حطت الأثقال حتى أنشب النعمان القتال فاقتتلوا، وكان ذلك يوم الأربعاء ويوم الخميس التالى له والحرب بينهما سجال. ثم لم يخرج العجم من خنادقهم يوم الجمعة والمسلمون مقيمون عليهم.

سفارة المغيرة

وفى رواية أنهم لما اجتمعوا بنهاوند أرسل إليهم بندار يقول:

«أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه».

فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة. يقول جبير «الراوى»: كأنى أنظر إليه رجلاً طويل الشعر أعور. واستشار بندار أصحابه فقال:

«بأى شىء نأذن لهذا العربى، بشارتنا وبهجتنا وملكنا، أو نتقشف له فيما قبلنا حتى يزهد؟»

قالوا: «لا بل بأفضل ما يكون من الشارة والعدة».

فتهيئوا بها. فلما أتاهم المغيرة كادت الحراب والنيازك تخطف البصر من لمعانها. وكان بندار على سرير من ذهب وقد وضع تاجاً على رأسه ومن حوله أصحابه، ومشى إليه المغيرة

ودخل عليه ثم جلس فدفعوه ونهنهوه.

فقال لهم: «الرسل لا يفعل بهم هذا».

قالوا: «إنما أنت كلب».

قال: «معاذ الله، لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه».

فانتهروه وقالوا له: «اجلس» فجلس وأقيم الترجمان فقال:

«إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير وأطول الناس جوعاً وأشقى الناس شقاءً وأقذر الناس قذارة وأبعدهم داراً. وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجّساً لجيَفِكم فإنكم أرجاس. فإنْ تذهبوا نُخَلِّ عنكم وإن تأبوا نُركُم مصارعكم».

وأجاب المغيرة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«والله ما أخطأت من صفتنا شيئاً ولا من نعتنا. إن كنا لأبعد الناس داراً وأشد الناس جوعاً وأشقى الناس شقاء وأبعد الناس من كل خير حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله ﷺ، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة. فوالله مازلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم. وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نقتل بأرضكم».

قال بندار لمن حوله: «أما والله إن الأعور لقد صدقكم الذي في نفسه».

ثم انصرف المغيرة. يقول: «فقمت وقد والله أرعبت العلج جهدي».

ثم أرسل بندار إلى المسلمين: «إما أن تعبروا إلينا بنهاوند، وإما أن نعبر إليكم».

فقال النعمان: «اعبروا».

يقول جبير[1] صاحب هذه الرواية: «فلم أر والله مثل ذلك اليوم. إنهم ليجيئون كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفروا من العرب، وقد قرن بعضهم بعضاً (كل) سبعة في قران، وألقوا حسك الحديد خلفهم وقالوا: من فر منا عقره حسك الحديد».

هذه الرواية قد لا تتفق مع سابقتها التي ذهبت إلى أن النعمان ما لبث، حين حطت الأثقال، أن أنشب القتال. وفي تقديرنا أن الرواية الأولى أقرب إلى القبول عقلاً، فما نحسب المجوس، بعد أن لقوا على أيدي المسلمين من الهزيمة والهوان ما لقوا، أن يخاطبوا المغيرة بهذه

(١) الطبري ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه.

العنجهية وبأنه كلب وأنه لا يمنعهم من قتل المسلمين إلا أن جيفهم نجسة. غير أن وصف جبير لتحرك صفوف الفرس وصف صحيح، مر بنا مثله على لسان آمين مارسلين الضابط المؤرخ الروماني، وذلك في الحروب التي شبت بين الفرس والروم قبل الفتح الإسلامي، وقد أثبتناه في الجزء الأول من «الطريق إلى المدائن» (ص٨٩).

حصار نهاوند

يتحدث الرواة عن حصار نهاوند، ولكننا لا نعتقد أنه كان حصاراً بالمعنى المرادف لمفهوم التطويق. لقد كانت نهاوند[1] موقعاً مرتفعاً مشرفاً سبيله متصل من خلفه بهمذان إلى الشمال منه، ولا نرى أنه كان يمكن حصاره بجيش يأتيه من جانب واحد فقط. ولعل من تحدث عن حصار نهاوند إنما قصد المرابطة أمامها.

قالوا: «بينما نحن محاصروا أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم فقاتلونا فلم نلبثهم أن هزمهم الله. فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلاً منهم معه نفر ثمانية على أفراس لهم، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم. ثم عمل على الذي كانوا معه فأسره وأخذ سلاحه ودعا له رجلاً اسمه عبد فوكله به. فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدي إليه الجزية، وسلني أنت عن إسارك ما شئت، وقد مننت عليّ إذ لم تقتلني وإنما أنا عبدك الآن، وإن أدخلتني على الملك وأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكراً وكنت لي أخاً.

فخلى سبيله وأمنّه وقال له: مَن أنت؟ قال: أنا دينار - وكان ملك ذلك الإقليم في بيت دينار هذا من أسرة قارن[2] - فأتى به حذيفة. فحدثه دينار عن نجدة سماك وما قتل وعن نظره للمسلمين، فصالحه على الخراج، فنسبت إليه ماه وقيل له ماه دينار. وكان دينار بعد ذلك يصل سماكاً ويهدى إليه[3].

(١) قال الاصطخري: نهاوند على جبل، وهي مدينة بناؤها من طين ولها أنهار وبساتين وفواكه كثيرة تحمل إلى العراق لجودتها وكثرتها... وتصدر الزعفران. (المسالك والممالك ١١٨).

(٢) يرجع إلى فصل طبقات المجتمع الفارسي من الباب الرابع من الجزء الأول من «الطريق إلى المدائن» ص٨٥.

(٣) الطبري ٤ / ١٣٥ س ش س عن أبي معبد العبسي وعروة بن الوليد عمن حدثهم من قومهم.
فتوح البلدان ٧٦٨ عن الرفاعي عن العنقزي عن أبي معشر عن محمد بن كعب.
وقالوا: إنه كان يوافي الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة. فقدم الكوفة في إمارة معاوية، فقام في الناس فقال: «يا معشر أهل الكوفة، أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان. ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع: بخل وخب وغدر وضيق، ولم يكن فيكم واحدة منهن. فرمقتكم فإذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم، فإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز».

وكتب النعمان وحذيفة كتاباً لأهل الماهين:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١ - هذا ما أعطى النعمان بن مقرن أهل ماه بهراذان.

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم.

٢ - لا يُغَيَّرُون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم.

٣ - ولهم المنعة ما أدوا الجزية فى كل سنة إلى من وليهم، على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته.

٤ - وما أرشدوا ابن السبيل و أصلحوا الطرق وقَرُوا جنود المسلمين (أكرموهم) ممن مر بهم فآوى إليهم يوماً وليلة.

٥ - ووفوا ونصحوا، فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة.

شهد عبدالله بن ذى السهمين والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبدالله.

كتب فى المحرم سنة تسعة عشر»(١).

وكتب حذيفة بن اليمان كتاباً آخر بنفس هذه البنود فى المحرم أيضاً. شهد عليه القعقاع ابن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن.

(١) الطبرى ٤ / ١٣٦ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة.

ومرت الأيام والجبهة على ذلك، وقد طرح العجم حسك الحديد حول مواقعهم. وبعث النعمان طليعة (دورية استكشافية) وهم لا يعلمون بالحسك فغرزت حسكة فى حافر فرس فوقف ولم يبرح مكانه، فنزل فارسه ونظر فى يده فوجدها فرجع بها وأخبر النعمان الخبر(١). فى تلك الفترة كان للعجم الخيار إذا أرادوا الخروج للقتال خرجوا، وإن لم يشاءوا لم يجد المسلمون سبيلاً إلى إخراجهم، فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول الأمر عليهم وهم على ذلك، كان الفصل شتاء، فإن شهر محرم ١٩ هـ قد وافق شهر يناير ٦٤٠م. ومن المؤكد أن اختيار نهاوند كان انتقاء حاذقاً للموقع الدفاعى الجبلى، وهو اختيار يتيح قوة غريبة لخفر صغير فضلاً عن تحصينات واستعدادات كبيرة، وتستطيع قوة صغيرة أن تسمح لنفسها فى الجبل بمجابهة جيش بكامله بصورة(٢) فعالة تكتيكياً حتى يكون ذلك الجيش المهاجم مطالباً بالقيام بكافة إجراءات الحرب من هجوم وتطويق منظمين إلخ.. على حين تفر مثل هذه القوة الصغيرة فى السهل أمام قلة من الفرسان، وتعتبر نفسها سعيدة بتخلصها من التشتت والأسر وهى تنسحب. فما بالنا والجيش المهاجم ثلاثون ألفاً والقوة المدافعة فى استحكاماتها مائة وخمسون ألفاً. مرت الأيام على ذلك حتى كان ذات صباح من يوم جمعة، فاجتمعت مجموعة من أهل الرأى من المسلمين يتداولون فى الأمر، ثم قاموا إلى النعمان ليحدثوه فوجدوه مع آخرين يقلبون نفس الموضوع ويتحدثون فيه، فاستبقاهم النعمان وقال:

«على رسلكم لا تبرحوا».

وأرسل إلى من لم يكن حاضراً من أهل النجدة وأصحاب الرأى فى الحرب فقدموا إليه فعقد منهم مؤتمراً حربياً. قال النعمان:

«قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاءوا ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم وانبعاثهم قبل مشيئتهم، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق بالذى هم فيه وعليه من الخيار عليه فى الخروج. فما الرأى الذى به

(١) الطبرى ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

(٢) فى الحرب ٢٠١.

نحمشهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل ؟»

كان من عادتهم أن يبدأ الحديث أكبرهم سناً، وكان أكبرهم يومئذ عمرو بن ثبى، فقال:

«التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم، فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم».

لم يكن رأياً موفقاً فردوا عليهم جميعاً رأيه، وإنما كان اجتماعهم ليجدوا رأياً يخرجهم من ذلك وقالوا:

«إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا».

وتكلم عمرو بن معدى كرب فقال: «ناهدهم وكاثرهم ولا تخف».

كان رأيه مهاجمتهم فى الخنادق والحصون. فردوا عليه جميعاً رأيه وقالوا: «إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعواناً علينا».

بعض المسلمين يحسبون أنه من ثقتهم بالنصر ومن أن الله معهم أن يلقوا بأنفسهم فى مهالك دونما تخطيط مرسوم ونظر فى العواقب محسوب، أو على تعبير ذوى الرأى والفكر من جيش النعمان أن «يناطحوا الجدران». وليس من الضعف والخور فى دين الله أن يبحث المسلم عن حسن العاقبة. ونرى على مدى التاريخ الإسلامى ذلك الفهم القاصر قد أدى بالتحرك الإسلامى والمخلصين من المسلمين إلى الهزيمة والفشل، وهو فهم غير صائب من الناحية الحركية وليس هو الإدراك الصحيح لدين الله. كان جميلاً وصائباً من أصحاب الرأى وخبراء الحرب من مجلس النعمان أن يردوه على عمرو بن معدى كرب وأن يبينوا له وجه الخطأ فيه، ثم لم نجد عمراً ولا غيره يكابر فى ذلك.

لقد كانت نهاوند مرتفعاً حاكماً، وكل مرتفع يشكل حاجزاً أمام الاختراق والتقدم. نعم، قد لا يكون مدى الرمى من أعلى إلى أسفل أكبر من مدى الرمايات الأخرى، ولكنه أفضل بلا شك من الرمى بالاتجاه المعاكس[1]. كما وأن التمركز فى المرتفع يعطى صاحبه ميزة الحصول على منظر شامل للأرض. ومع ذلك فتأثير الأرض يأتى بعد النسبة بين وزنى الجيشين. وحتى هنا نجد أن جيش العجم كان خمسة أضعاف جيش المسلمين، يُضاف إلى ذلك أن الهجوم على تحصينات نهاوند يجعل المعركة من الناحية التكتيكية هجومية بالنسبة للمسلمين، دفاعية بالنسبة للمجوس. وللمعركة الدفاعية ميزات، فإن المحافظة على شىء مكتسب أسهل من اكتساب شىء مفقود. ومن المعلوم أن الدفاع أسهل من الهجوم[2] إذا تساوت الوسائل، كما وأن الوقت الذى ينقضى دون أن يستفيد منه المهاجم يتحول بالتالى إلى صالح المدافع، فضلاً عن العون الذى يُتيحه الموقع الدفاعى لأصحابه.

فالموقف إذاً ينطوى على مشكلة تحتاج إلى حل. وقد عرض على بساط البحث رأيان:

(١) فى الحرب ١٠٩.

(٢) فى الحرب ١١٥.

الرأى الأول: بالمطاولة، رفضه المؤتمر.

والرأى الثانى: بالهجوم على التحصينات، رفضه المؤتمر أيضاً.

ولقد كان الموضوع الذى طرحه النعمان هو «كيف نحمّشهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل». ثم كان ثالث المتحدثين طليحة بن خويلد الأسدى، فقدم رأياً ثالثاً، قال:

«قد قالا ولم يصيبا ما أرادا.

وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مُؤْدِية فيحدثوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمشوهم.

فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا (لجأوا) إلينا استطراداً (مبارزة على الخيل بالكر والفر)، فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قاتلناهم.

وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فى هزيمتنا ولم يشكوا فيها، فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب».

اقتراح طليحة أن تتقدم إلى العجم فرقة من الفرسان تتحرش بهم وتغريهم على الالتحام بها مبارزة بالكر والفر، بينما يترصد سائر الجيش فى أماكن إلى الخلف، فإذا التحموا بها تظاهرت بالانكسار وظلت تتراجع أمامهم حتى ترجع إلى حيث يستطيع جيش المسلمين أن يشترك فى المعركة ويلتحم بهم بعيداً عن تحصيناتهم. وفى رواية ابن اسحق ما يضيف لنا تفصيلاً أكبر، بأن الخطة اشتملت على تراجع صلب الجيش عن مواقفه التى كانوا عليها إمعاناً فى تضليل العجم، وأن المؤتمرين قالوا للنعمان:

«انتقل من منزلك هذا حتى يروا أنك هارب منهم فيخرجوا فى طلبك»[1].

القعقاع يتحرش

لقى هذا الرأى القبول، وفى حينها وكل النعمان تنفيذ دور الفرسان فيه إلى القعقاع بن عمرو. إنه قائد الفرسان وهو لها. فتقدم القعقاع بفرسانه نحو خنادق العجم وحصونهم وتحرش بهم ورماهم فأنشب القتال بعد احتجاز من العجم فأخرجهم. فلما خرجوا واقتتلوا جعل يتراجع ويتراجع ويتراجع على مراحل لا تنكشف بها الخطة وكأنه انهزام.

إن وضع الخطة هو نصف الطريق وإنفاذها هو النصف الثانى، وهى مهمة صعبة التنفيذ نجح القعقاع فى أدائها، بينما كان النعمان ينتقل بقواته إلى موقع وراء ما كان يقف فيه كلما تراجع القعقاع ثم ضرب عسكره وعبأ كتائبه، فى حين ظن العجم أنهم وجدوا فرصة من خصمهم العنيد أرادوا أن يقتنصوها كما قدر طليحة، فظلوا يخرجون قواتهم ويلقون بها ضد

(١) الطبرى ٤/١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

القعقاع حتى لم يبق فى حصونهم إلا من يقوم على أبوابها ، وكنسوا حسك الحديد وظهر تفوقهم على من أمامهم من المسلمين حتى رجع القعقاع إلى جيش المسلمين وانقطع العجم عن حصنهم بعض الشيء وهم يلاحقونه ، والمسلمون على تعبيتهم والنعمان معهم.

لقد كانت استحكامات العجم وحصونهم فى المرتفع مواقع دفاعية حصينة ، وإذا كان الدفاع هو الشكل الأقوى لإدارة الحرب فمن المسلم به أنه لا يلجأ إليه إلا فى حالة الضعف ، وأن من الواجب التخلى عنه عند الإحساس بكفاية القوة لتحقيق هدف إيجابى هجومى ، وإن البدء بالدفاع والانتهاء بالهجوم هو تطور طبيعى فى الحرب ، حتى قالوا : «إن أروع لحظات الدفاع هى لحظة الانتقال السريع والقوى إلى الهجوم كضربة ثأر بسيف بتار»[1] . وكم كان رائعاً من المسلمين أن يستفيدوا من تلك الطبائع ويحولوها إلى صالحهم حين بنوا خطتهم ، على أنه لم يكن من المتصور أن يجد المجوس المسلمين ينهزمون فى هجوم قاموا به ثم لا يستغلون ذلك بمزيد من الهجوم. وهذا أيضاً ما فعله المسلمون بتحولهم من تحرش دفاعى إلى عملية هجوم مضاد شامل.

---

(١) فى الحرب ١١٧ . وهى نظرية كلاوزفيتز فى الحرب.

خريطة (١٣) فتح نهاوند وهمذان   المقياس ١ :مليون

النعمان تلميذ سعد

كان ذلك من ذات يوم الجمعة الذى اجتمعوا فى صباحه ، وقد تم هذا فى صدر النهار ولم يحل الظهر بعد . وعهد النعمان إلى المسلمين عهده ، وأمرهم أن يلزموا أماكنهم ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا ، وظل المجوس يرمونهم بالنبل والمسلمون يستترون بالحجف لا يتحركون حتى أكثروا فيهم الجراح ، وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك ، ثم قالوا للنعمان :

«ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما لقى الناس ، فما تنتظر بهم ؟ ائذن للناس فى قتالهم» .

قال النعمان : «رويداً رويداً» .

فأعادوا عليه القول وهو يجيبهم «رويداً رويداً» .

وفعل النعمان كما فعل أستاذه سعد بالقادسية . كان يرى المعركة محتدمة عنيفة مع فريق من جيشه فلا يحمله هذا على أن يلقى بثقله فيها انتظاراً لشىء .

قال المغيرة بن شعبة وقد رأى كثرة جيوش العجم وما تفعل :

«لم أر كاليوم فشلاً ، إن عدونا يُترَكون يتأهبون ولا يُعْجلون ! ! أما والله لو أن هذا الأمر إلىّ (لكنتُ) قد أعجلتهم وعلمت ما أصنع ، ولو كنت بمنزلتك باكرتهم القتال» .

وكان النعمان رجلاً ليناً ، فقال له :

«رويداً ترى أمرك . وقد كنت تلى الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو فى المكث مثل الذى ترجو فى الحث ، ربما باكرت القتال ثم لم يسود الله وجهك ، فالله عز وجل يشهدك أمثالها ، فلا يحزنك ولا يعيبك موقفك .

إنه والله ما منعنى من أن أناجزهم إلا شىء شهدته من رسول الله ﷺ ، إن رسول الله كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة (صلاة الظهر) وتهب الأرواح (الرياح) ويطيب القتال ، فما منعنى إلا ذلك»[1] .

فانتظر حتى زالت الشمس عن كبد السماء وبدأ الظل يميل ، ثم قال :

«نصلى إن شاء الله ثم نلقى عدونا دبر الصلاة» .

(١) الطبرى ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

هذا والقعقاع وفرسانه يقاتلون . نفس الشىء فعله سعد يوم أرماث ويوم أغواث ويوم عمواس بالقادسية .

خطاب النعمان

فلما كان قريباً من تلك الساعة كان النعمان يتحرك فى حماس ، فسار فى المسلمين على برذون أحوى[1] قصير القوائم قريب من الأرض ، وكان يقف على الرايات راية راية ، فيحمد الله ويثنى عليه ويقول :

«قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادى ما وعدكم وصدوره ، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه . والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله . واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة . فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه .

وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذى لهم فى ظفركم وعزكم ، والذى عليهم فى هزيمتكم وذُلِّكمُ .

وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم . فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هذا السواد ، وأما ما أخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا . فلا يكونَنَّ على دنياهم أحمى منكم على دينك . وأتقى الله عبد صدق الله وأبلى نفسه فأحسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين إحدى الحسنيين من بين شهيد حى مرزوق أو فتح قريب وظفر يسير . فكفى كل رجل ما يليه ولم يَكِلْ قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه .

فإذا قضيت أمرى فاستعدوا فإنى مكبر ثلاثاً .

فإذا كبرت التكبيرة الأولى فشد رجل شسعه (رباط نعله) وأصلح من شأنه ، وليتهيأ من لم يكن تهيأ .

فإذا كبرت الثانية فشد رجل إزاره وليشد عليه سلاحه وليتأهب للنهوض ويتهيأ لوجه

(١) كُمَيت أحمر يخالطه سواد كلون صدأ الحديد – مختار الصحاح .

حملته.

فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل إن شاء الله، فاحملوا معاً.

اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، وذل يذل به الكفار، ثم اقبضنى إليك بعد ذلك على الشهادة واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

أمّنوا يرحمكم الله»[١].

فأمّن المسلمون وبكوا.

هجوم وشهادة ونصر

كان الأعاجم قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا. ورجع النعمان إلى موقفه فكبر الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، وجنود المسلمين سامعون مطيعون مستعدون للقتال والمناهضة، يحرص بعضهم أن يأخذ مواقف بعض وأن يغنى كل منهم عن أخيه. ثم حمل النعمان مع التكبيرة الثالثة وهو يحمل الراية وقد رآها المسلمون تنقض نحو العجم انقضاض العقاب، وكان النعمان مميزاً بقباء أبيض وقلنسوة بيضاء، فحملوا جميعاً كل إنسان على من تجاهه من العجم. يقول جبير الراوية:

«فوالله ما علمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يقتل أو يظفر، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا، فما كنا نسمع إلا وقع الحديد على الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة، فلما رأوا صبرنا وأنا لا نبرح العرصة انهزموا، فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة بعضهم على بعض فى قياد فيُقْتلون جميعاً، وجعلوا يعقرهم حسك الحديد الذى وضعوه خلفهم».

واقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً يصفه الرواة بقولهم: «لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد منها». واستمر القتال من انتصاف النهار حتى هبوط الظلام، وكثر قتلى الفرس حتى طبق أرض المعركة دماً يزلق فيه الناس والدواب، فانزلق فيه من خيول المسلمين وأصيب فرسانهم، وزلق فرس النعمان فلقى النعمان مصرعه. وفى رواية ابن اسحق[٢] وجبير أنه رمى

(١) الطبرى ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه.

(٢) الطبرى ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق.

الطبرى ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه.

بنشابة فأصابت خاصرته فقتلته، وكان أخوه نعيم بن مقرن قريباً منه، فقد كان نعيم هو قائد المقدمة، وحين تحتدم المعركة فى الجبهة تدخل المقدمة فى القلب وتكون جزءاً منه كما رأينا تفصيل ذلك فى القادسية. وأسرع نعيم فتناول الراية قبل أن تقع[١] وسجى النعمان بثوب، ثم أتى حذيفة بن اليمان فى الميمنة فدفع إليه الراية باعتباره خليفة النعمان، فترك حذيفة مكانه لنعيم بن مقرن واتجه هو إلى مكان القيادة من القلب حيث كان النعمان فأقام اللواء. وقال له المغيرة:

«اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكيلا يهن الناس».

واستمر القتال، حتى إذا أظلم الليل انكشف العجم وتراجعوا والمسلمون ملتحمون بهم ملتبسون فيهم لا يرفهون عنهم، فاختلط عليهم طريق التراجع وعمى عليهم قصدهم فخرجوا عنه واتجهوا نحو اللُّهْب (جرف من خندق أو واد عميق) الذى كانوا نزلوا دونه بأسبيذهان فوقعوا فيه، فكان لا يهوى منهم أحد إلا صرخ بالفارسية «وايه خرد»، وبذلك سمى المكان وايه خرد وعرف بذلك إلى عصر مؤرخنا الطبرى ٣١٠هـ وربما إلى بعدها. فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل بالمعركة. وفى رواية أنه قتل فى اللهب ممن هوى فيه ثمانون ألفاً و فى المعركة ثلاثون ألفاً مقترنون فى السلاسل سوى من قتل فى المطاردة[٢].

واجتمع المسلمون بعد المعركة فتساءلوا: «أين أميرنا؟»

قال معقل بن مقرن: «هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة».

فبايع الناس حذيفة، وعمر بالمدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الحُبْلى[٣]!

وفى رواية عن معقل بن يسار قال: «فأتيت النعمان وبه رمق فغسلت وجهه من أداوة ماء كانت معى. فقال: من أنت؟

(١) نرجح هذه الرواية على رواية ابن اسحق التى تجعل أخاه سويداً هو الذى لفه فى ثوبه وكتم قتله حتى تم النصر (الطبرى ٤ / ١١٦) حيث كان سويد قائد الميسرة. وفى رواية جبير أن أخاه معقل بن مقرن سجى عليه ثوباً وأخذ اللواء فقاتل.

(٢) الطبرى ٤ / ١٣٦ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبى.

(٣) فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن علقمة بن عبدالله عن معقل بن يسار.

قلت : معقل.

قال : ما صنع المسلمون؟

قلت : أبشر بفتح الله ونصره.

قال : الحمد لله، اكتبوا إلى عمر.

ولم يفلت إلا الشريد فكان منهم فيرزان، هرب مع الفلول نحو همذان التى تقع إلى الشمال من نهاوند بما يزيد قليلاً عن مائة كيلو متر.

قدوة لمن بعدهم

هذه الخطة التى اتبعها النعمان بن مقرن فى نهاوند بناء على مشورة طليحة بن خويلد الأسدى كانت درساً فى التاريخ الحربى وقدوة لمن بعدهم يقتدى بها فى مثلها من المعارك المستعصية. تلك الخطة هى التى اتبعتها جيوش جانكيز خان من التتار المغول فى اكتساح آسيا من أقصى شرقيها إلى أقصى غربيها حتى عين جالوت على الحدود بين فلسطين ومصر، أن يقوم بهجوم كبير عنيف على صفوف عدوه، فإذا اكتسحه كان بها، وإن لم يتم له ذلك تظاهر بالهزيمة وتراجع إلى كمين أعده من قبل فى الخلف، حتى إذا اتبعه عدوه مطارداً له فى نشوة انتصاره أطبق عليه وأباده. وهى نفس الخطة التى استخدمها قاهر التتار قطز فى إحراز النصر على تلك الجيوش ذاتها فى عين جالوت.

إن معركة نهاوند من وجهة النظر الفارسية كانت معركة دفاعية من الناحية الاستراتيجية. وفى المعركة الدفاعية الناجحة[1] :

١ - يستطيع المدافع الاستعانة فى إدارة العمليات بمعركة هجومية خالصة من الناحية التكتيكية - وإن كانت دفاعية من الناحية الاستراتيجية - إذا سار ضد خصمه وهاجمه فى الوقت الذى يجتاح فيه خصمه مسرح حربه.

٢ - وبوسعه انتظار ظهور المهاجم على جبهته لينتقل إلى الهجوم فيما بعد بمعركة هجومية أيضاً من الناحية التكتيكية.

٣- وبوسعه أيضاً انتظار الهجوم ضد مواقعه الدفاعية وأن يقاوم هذا الهجوم بدفاع محلى

(١) فى الحرب ١٦٠.

ثم يقوم بعمل هجومى بجزء من قواته.

ولقد اختار الفرس الأسلوب الثانى، ولكن المسلمين استطاعوا أن يخدعوهم فجعلوهم يخطئون التقدير فى توقيت انقلابهم من الدفاع إلى الهجوم. كان يتعين أن يتم ذلك بعد أن يطمئنوا إلى أنهم أوقعوا بالمسلمين خسائر جسيمة فى الأرواح فى ا لمعركة الدفاعية، حينئذ يكون خروجهم من الحصون مأموناً مضمون العواقب.. ولكن حين يكون ميزان القوى المادية والمعنوية كما هو لم يتغير فيه شىء فأى مبرر يكون فى التحول من الدفاع إلى الهجوم؟

لله جنود من عسل

ومع انهيار التماسك الفارسى فى الجبهة عاد نعيم بن مقرن يقود المقدمة إلى مطاردة الفلول الهاربة نحو همذان، وخرج معه فيها القعقاع بن عمرو بفرسانه فقدمه نعيم أمامه. وانطلق القعقاع فى أثر فيرزان حتى أدركه حين انتهى إلى ثَنِيَّة[1] همذان، وتصادف أن كانت الثنية مشحونة بقافلة من البغال والحمير محملة بحمولة من العسل فحبست فيرزان عن المرور. فلما رأى القعقاع فى أثره قد أدركه نزل عن جواده وجرى فى الجبل إذ لم يجد سبيلاً يذهب فيه، فللطرق الجبلية طبيعتها ولا يجتاز الجبل سوى الثنية وهى مسدودة بالبغال والحمير. ونزل القعقاع عن جواده أيضاً فتبعه حتى أدركه وقتله. وبذلك سميت الثنية ثنية العسل. وفى ذلك أيضاً قال المسلمون متفكهين:

«إن لله جنوداً من عسل».

واستاقوا البغال والحمير بما حملت من عسل وأحمال فأقبلوا بها، ومضت بعض الفلول إلى همذان وخيول المسلمين فى آثارهم حتى دخلوها، فنزل المسلمون تجاههم وحووا ما حولها.

همذان تستسلم

كان حاكم همذان رجل يدعى خسروشنوم، فلما رأى انهيار جيش نهاوند وبلوغ المسلمين مدينته وليس عنده إلا فلول يسيرة منهزمة، استسلم للمسلمين على الأمان وأن يضمن لهم

(١) الخل: الطريق فى الرمل. والنقب: الطريق فى الجبل. فإذا اتسع الطريق فى الجبل وعلا فهو ثنية - الكامل للمبرد ٢/ ١٥.

همذان ودستبى وأن لا يؤتى المسلمون منهم. وقبل المسلمون ذلك فأمن الناس ورجع كل من كان هرب ودخل المسلمون همذان[1].

خسروشنوم هذا التقينا به من قبل أكثر من مرة، فقد كان على إحدى كتائب جيش رستم بالقادسية، وممن حاولوا الصمود بها أمام ابن الهذيل الكاهلى بعد انهيار جيشهم الكبير. وحين خرج يزدجرد من حلوان ترك بها حامية عليها خسروشنوم لتعوق تقدم المسلمين حتى يبتعد، فجعل خسروشنوم على مقدمته زينبدى، فقتله القعقاع بن عمرو على رأس فرسخ من حلوان وهرب خسروشنوم، ويعرف بخسروشنوم الهمذانى نسبة إلى مدينته همذان.

وبلغ أهل الماهين الخبر بأن همذان قد سقطت فى أيدى المسلمين وأن نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو قد نزلاها، فاقتدى أهل الماهين بخسروشنوم وأرسلوا إلى حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا. وعزم ملوكهم على إتيان حذيفة، وكان أكبرهم اسمه قارن، ونصحهم واحد منهم اسمه دينار ألا يخرجوا إلى حذيفة فى زينتهم ولكن يظهروا البساطة والتقشف ففعلوا ذلك، غير أنه هو نفسه خالفهم فأتى فى الديباج والحلى وأعطى المسلمين ما أرادوا فعاقدوه عن الماهين، ولم يجد من معه من الملوك بُداً من متابعته والدخول فى أمره، وهذه قصة أخرى يعللون بها تسمية «ماه دينار». وكان النعمان قبل استشهاده قد عاقد بهراذان على مثل ذلك فنسبت جهته إليه. وكان النسير بن ديسم مازال تجاه القلعة التى بمرج القلعة، فلجأ إليها قوم لعلهم كانوا من فلول نهاوند، فجاهدهم حتى افتتحها فنسبت إليه وقيل عنها قلعة النسير. وبذلك تم تطهير ذمام نهاوند وهمذان.

وقال القعقاع بن عمرو:

ونحن حبسنا فى نهاوند خيلنا	لشرٍّ ليالٍ أنتجت للأعاجم
ملأنا شعاباً فى نهاوند منهم	رجالاً وخيلاً أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا	فلم يُنجِهِ منها انفساح المخارم

(١) الطبرى ٤ / ١٣٣ س ش س عن أبى بكر الهذلى.
وفى رواية البلاذرى أن الذى فتح همذان جرير بن عبدالله البجلى، وجهه إليها المغيرة بن شعبة سنة ٢٣هـ فى ولايته على الكوفة، وأن سهماً أصاب عينه فى قتال أهلها فاحتسبها عند الله. وقال الواقدى: إن جريراً فتحها عام ٢٤هـ.
وذهب آخرون إلى أن المغيرة سار إليها وفتحها وعلى مقدمته جرير. (فتوح البلدان ٧٧٦).

وفى نهاوند دخل المسلمون المدينة بعد اندحار قواتها خارجها واستولوا على كل ما فيها وما حولها، وجمعوا ذلك كله إلى السائب بن الأقرع صاحب الأقباض ثم مكثوا ينتظرون ما يأتيهم من إخوانهم بهمذان. وإنهم لكذلك إذ أقبل صاحب بيت النار ويدعى هربذ وقال لحذيفة:

«أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم؟»

قال: «نعم».

قال: «إن النخيرجان وضع عندى ذخيرة لكسرى، فأنا أخرجها لك على أمانى وأمان من شئت».

نخيرجان هذا مرّ بنا ذكره من قبل. فبعد هزيمة المجوس بالقادسية أبقوا نخيرجان على رأس قوة باللسان الذى عليه الحيرة والكوفة، فلما تقدم نحوه زهرة بن الحوية انسحب إلى الفلول المعسكرة فى بابل وكان عليهم فيرزان، فلما انهزموا ببابل هرب فيرزان إلى نهاوند فوضع يده على كنوز كسرى وبقى نخيرجان مع مهران للدفاع عن المدائن، وقد ترك نخيرجان قوة كبيرة بين كوثى ودير كعب عليها شهريار.

وافق حذيفة على ما عرض هربذ فأخرج له ذخيرة كسرى من الجواهر التى كان قد أعدها لنوائب الزمان. ونظر المسلمون فى ذلك فأجمع رأيهم على رفعه إلى عمر وأن يجعلوا أمر التصرف فيه إليه، فعزلوه حتى فرغوا ثم بعثوا به مع ما يرفع إليه من الأخماس. وقسم حذيفة بن اليمان الغنائم بين جنود جيشه، فكان نصيب الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين، ونفل حذيفة من الأخماس من شاء من أهل البلاء ورفع ما بقى من الأخماس إلى السائب بن الأقرع فاستلمها وخرج بها وبذخيرة كسرى إلى عمر. وأقام حذيفة فى نهاوند ينتظر أمر عمر، وقد كتب إليه بالفتح مع طريف بن سهم أخو بنى ربيعة بن مالك.

وجعل حذيفة مثل نصيب من شهد نهاوند لمن كان بمرج القلعة ومن أقام بغضى شجر ولأهل المسالح جميعاً لأنهم كانوا عوناً وحماية لظهر الجيش المقاتل، وفى ذلك إدراك من حذيفة ومن المسلمين بأن توفير الأمن للقوات المقاتلة عنصر من عناصر الحرب، وأن من يقوم به ويرابط فى مواقعه فقد ساهم فى المعركة، وألحق عمر من شهد نهاوند فأبلى بلاء فاضلاً بأهل القادسية فى العطاء، وكان عطاؤهم فى ألفين من الدراهم[1].

(١) الطبرى ٤ / ١٣٧ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة.

الخبر والغنائم فى المدينة

قدم طريف إلى المدينة بالفتح، فسأله عمر عن الخبر فقال:

«ما عندى أكثر من الفتح، خرجت والمسلمون فى الطلب (مطاردة عدوهم) وهم على رجلِ (يعنى على قدم وساق)».

وتقول الرواية أن طريفاً أخبر عمر بما يسره وكتم عنه ما يسوؤه، ونستبعد ذلك من رسول أرسل إلى عمر، فضلاً عن أن العادة جرت بأن يحمل الرسل رسائل مكتوبة بما أرسلوا به.

ثم خرج عمر إلى ظاهر المدينة كعادته حين ينتظر الأخبار وخرج معه أصحابه، فأمعن النظر فرأى راكباً مقبلاً عن بعد، فقال لمن معه: «قولوا».

فقال عثمان بن عفان: «السائب».

وردد عمر يوافق عثمان: «السائب».

فلما دنا قال له عمر: «ما وراءك؟»

قال: «البشرى والفتح».

قال: «ما فعل النعمان؟»

قال: «زلق فرسه فى دماء القوم فصرع فاستشهد».

فانطلق عمر راجعاً إلى المدينة والسائب بن الأقرع يسايره. فسأله عمر عن عدد من قتل من المسلمين، فأخبره بعدد قليل وبأن النعمان أول من استشهد يوم فتح الفتوح.

ودخل عمر المسجد فحطت الأحمال ووضعت فى المسجد، وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن أرقم بالمبيت فيه. ودخل عمر منزله فتبعه السائب بالسفطين اللذين كانت بهما ذخائر كسرى وأخبره خبرهما وخبر الناس، فلم يستحل عمر أن يقبضهما فهما حق لمن غنمهما، فقال له عمر: «يا ابن مليكة، والله ما دروا هذا ولا أنت معهم، فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتى حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه».

فأقبل راجعاً حتى انتهى إلى حذيفة وهو بماه، فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة ملايين درهم[1].

---

(١) الطبرى ٤ / ١٣٥ س ش س عن أبى بكر الهذلى.

يروى السائب بن الأقرع[1] قصة كنز كسرى وقدومه المدينة فيقول:

«... فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظاماً، فوالله إنى لأقسم بين الناس إذ جاءنى (ذو العوينتين) علج من أهلها، فقال: أتؤمننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى على أن أدلك على كنوز النخيرجان، وهى كنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك لا يشركك فيها أحد؟

قلت: نعم.

قال: فابعث معى من أدله عليها.

فبعث معه، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فلما فرغت من قسمى بين الناس احتملتهما معى ثم قدمت على عمر بن الخطاب فقال: ما وراءك يا سائب؟

فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان ابن مقرن رحمه الله.

فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم بكى فنشج حتى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده.

قال: ومن ويحك!؟

فقال: (فلان وفلان.. حتى عددت له ناساً كثيراً). يقول السائب:

فلما رأيت ما لقى قلت: والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه.

فقال (عمر وهو يبكى): المستضعفون من المسلمين! (لا يضرهم ألا يعرفهم عمر) لكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم. وما يصنعون بمعرفة عمر بن أم عمر؟

---

(١) الطبرى ٤ / ١١٦.
الطبرى ٤ / ١١٧ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن حدير عن أبيه.
فتوح البلدان ٧٦١ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن بن عثمان النهدى.
فتوح البلدان ٧٦٢ عن أحمد بن إبراهيم عن أبى أسامة وأبى عامر العقدى وسلم بن قتيبة، جميعاً عن شعبة عن على بن زيد عن على أبى عثمان النهدى.
فتوح البلدان ٧٦٣ عن القاسم بن سلام عن محمد بن عبدالله الأنصارى عن النهاس بن قهم عن القاسم بن عوف عن أبيه عن السائب بن الأقرع.

ثم قام ليدخل، فقلت: إن معي مالاً عظيماً قد جئت به. ثم أخبرته خبر السفطين، قال: أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما، والحق بجندك.

فأدخلتهما بيت المال وخرجت سريعاً إلى الكوفة. وبات تلك الليلة التي خرجت فيها، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة، فأنخت بعيري وأناخ بعيره على عُرقوبَيْ بعيري.

فقال: الحق بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن.

فقلت: ويلك! ماذا ولماذا؟

قال: لا أدري والله.

فركبت معه حتى قدمت عليه، فلما رآني قال:

ما لي ولابن أم السائب؟ بل ما لابن أم السائب وما لي؟

قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: ويحك! والله ما هو إلا أن نمت في الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً، يقولون لنكوينك بها، فأقول سأقسمهما بين المسلمين. فخذهما عني لا أبا لك والحق بهما فَبِعْهُما في أعطية المسلمين وأرزاقهم.

فخرجت بهما حتى وضعتهما في مسجد الكوفة، وغشيني التجار فابتاعهما مني عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف (مليونين) فباعهما بأربعة آلاف ألف، فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد.» اهـ.

وكان أبو لؤلؤة فيروز مولى المغيرة بن شعبة - وهو الذي سيقتل عمر بن الخطاب غيلة بعد ذلك عام ٢٣هـ- كان من أهل نهاوند فأسره الروم في حربهم مع فارس، ثم أسره المسلمون من الروم، فكان في المدينة حين قدم إليها سبي نهاوند، فكان لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال: «أكل عمر كبدي»(١).

ورجع أهل الحجاز إلى حجازهم وأهل البصرة إلى بصرتهم وأقام حذيفة بن اليمان في أهل الكوفة بنهاوند(٢).

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٦ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبي.
(٢) فتوح البلدان ٨١٦ عن عبدالله بن معاذ العنقزي عن أبيه عن سعد بن الحكم بن عتبة.

توقيت نهاوند

اختلف الرواة في توقيت نهاوند.

فقالوا: سنة ١٨ هـ(١).

وقالوا: عام ١٩هـ.(٢).

وقالوا: أول ١٩ هـ لتمام سنة ١٨هـ(٣).

وقالوا، ١٩هـ أو ٢٠هـ(٤)

وقالوا: عام ٢١هـ(٥). ويبدو أنه المختار عند الطبري.

وما دام الذي حرك الفرس إلى حشود نهاوند هو هزائم هرمزان بالأهواز ونجاح جيش البصرة في إنقاذ جيش العلاء من طاوس، وقد كانت تلك في أحداث عام ١٧هـ على ما ذهبنا إليه، فالذي نميل إلى الأخذ به أن عمليات نهاوند بدأت في أواخر ١٨هـ، وأن فتحها تم في أول ١٩هـ في يوم جمعة من شهر محرم. يؤيد هذا أن كتاب النعمان لأهل الماهين قبيل سقوط نهاوند كان في محرم ١٩هـ (وبعضهم جعلها ٢١هـ). ونرى على سبيل الظن أن فتح نهاوند كان يوم الجمعة ١٦ محرم ١٩هـ- ١٥ يناير ٦٤٠م، أو الجمعة ٢٣ محرم ١٩هـ- ٢٢ يناير ٦٤٠م، والله أعلم.

---

(١) الطبري ٤ / ١١٤ عن سيف.
(٢) الطبري ٤ / ١١٩ عن سيف عن أبي بكر الهذلي.
(٣) الطبري ٤ / ١٣٦ عن سيف عن عمرو بن محمد الشعبي.
(٤) فتوح البلدان ٧٦٥ عن أبي مخنف.
(٥) الطبري ٤ / ١١٤ عن ابن اسحق وعن أبي معشر وعن الواقدي.
فتوح البلدان ٧٦٦ عن أبي بكر الهذلي عن الحسن ومحمد. وهذه خلاف رواية الطبري عن أبي بكر الهذلي السابقة.

الباب السابع

انسياح من الكوفة

انطلاق إلى الشرق

أمر عمر جيوش المسلمين بطلب جيوش العجم وتعقبها حيث كانت للقضاء عليها. وكان ذلك على عدة محاور تتوازى أو تكاد من الجنوب إلى الشمال، فَتَشقّ ملك فارس من أرض إيران من الغرب إلى الشرق. فمن كان بقاعدة البصرة من جيش البصرة أو جيش الكوفة الذين انضموا إليهم أمرهم بالسير إلى أرض فارس وكرمان وأصفهان (ويقال لها أيضًا أصبهان). ومن كان بالكوفة أمرهم بالسير إلى أصفهان وآذربيجان والري.

فتح أصبهان

كان فتح أصبهان سنة ٢١ من الهجرة. وفي رواية البلاذري[١] أن فتحها وأرضها تم سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين. ونذهب إلى التقدير الأول فهو الذى يساير الوقائع والمنطق. وأصبهان (أو أصفهان) كانت مدينة عظيمة وكانت عاصمة إقليم الجبال – أو ما كانوا يسمونه العراق العجمى – وكانت تتكون من مدينتين متجاورتين بينهما حوالى ٣ر٥ كيلو متراً، هما: جى[٢] واليهودية، وبناؤهما من طين وهما أخصب مدن الجبال، وكانت جى هى العاصمة، وقد جاء فى صفتها أنها من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء، وقد اختارها ملوك الفرس سكناً لهم. وكانت أصبهان (وكذا همذان والرى) من بناء[٣] الإسكندر الأكبر حين اجتاح بلاد الفرس، وقد بنى لها سوراً على هيئة الحية على زعم ألا يأويها حية ولا فأرة[٤]. وكان على السور أبراج لكل برج قرية تقوم بنفقته. وكان فى داخل المدينة قلعة تقوم على تل شاهق منه.

وبعد أن تم فتح نهاوند واستتب أمرها واتجه عمر إلى استكمال فتح فارس، أو ما يعبر عنه بـ«الانسياح»، كتب عمر إلى عبدالله بن عبدالله بن عتبان الأنصارى الذى كان سعد قد استخلفه على الكوفة، أن يسير من الكوفة حتى ينزل المدائن، وأن يفتح باب التطوع[٥] لحملة ليس فيها مجند مجبر. فكان ممن تطوع معه عبدالله بن ورقاء الرياحى وعبدالله بن الحارث بن ورقاء الأسدى. وعيَّن عمر زياد بن حنظلة خلفاً لعبدالله على الكوفة، غير أن زياداً استعفى بعد قليل فأعفاه عمر وولى عمار بن ياسر مكانه على الكوفة.

كان عبدالله من الأبطال الشجعان من أشراف الصحابة، وكان حليفاً لبنى الحبلى من بنى

(١) فتوح البلدان ٧٨٦ عن محمد بن سعد عن الهيثم بن جميل عن حماد بن سلمة.
(٢) المسالك والممالك للاصطخرى ١١٧.
(٣) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ٢٦٥.
(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبة – هامش ١٦١.
(٥) الطبرى ٤/١٣٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

أسد. وقد أمده عمر لهذه المهمة بأبى موسى الأشعرى من قاعدة البصرة، كان أبو موسى هو أمير القاعدة فعين عمر بدلاً منه عمر بن سراقة. وكتب عمر إلى عبدالله:

«أن سر إلى أصبهان وزياد على الكوفة، وعلى مقدمتك عبدالله بن ورقاء الرياحى، وعلى مجنبتيك عبدالله بن الحارث بن ورقاء الأسدى (للميمنة) وعصمة بن عبدالله (ابن عبيدة بن سيف بن عبدالحارث – للميسرة).

رستاق الشيخ

وسار عبدالله بقواته حتى قدم على حذيفة بن اليمان، كان حذيفة أميراً على المدائن، ثم سار حتى نزل نهاوند فانضم إليه جمع من جند النعمان بن مقرن رضى الله عنه، الذين كانوا بنهاوند. ثم ساروا جميعاً نحو جموع الفرس الذين احتشدوا فى جمع كبير بأصبهان يقودهم استندار، وقد جعل على مقدمته قائداً شيخاً كبيراً مسناً اسمه شهربراز جاذويه، فالتقى المسلمون بهذه المقدمة فى رستاق من رساتيق أصبهان فاقتتلوا قتالاً شديداً وطلب شهربراز المبارزة فبارزه عبدالله بن ورقاء الرياحى وقتله وانهزم جيش أصبهان. وقد أطلق المسلمون على ذلك الرستاق «رستاق الشيخ». وطلب استندار الصلح فقبل عبدالله.

مبارزة وصلح

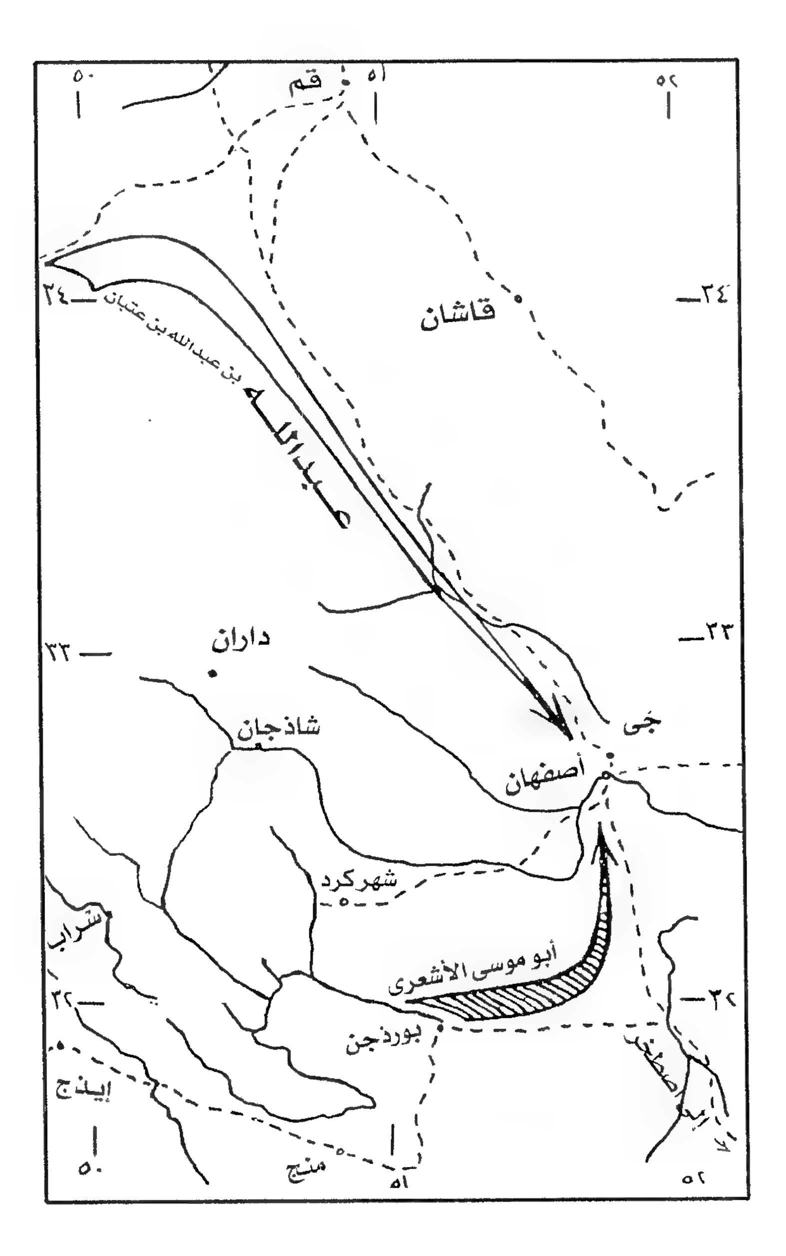
ثم سار لواء المسلمين من رستاق الشيخ نحو جَىْ وكان عليها أمير يدعى فاذوسفان، فحاصرهم عبدالله بها وتزاحفوا عدة مرات فاقتتلوا. وأخيراً قال فاذوسفان لعبدالله:

«لا تقتل أصحابى ولا أقتل أصحابك، ولكن ابرز لى (بارزنى) فإن قتلتك رجع أصحابك، وإن قتلتنى سالمك أصحابى، وإن كان أصحابى لا يقع لهم نشابة»[١].

وخرج له عبدالله فكانت المبارزة بينهما بالرمح. قال عبدالله لفاذوسفان: «إما أن (أقف لك[٢] و) تحمل علىّ، وإما أن (تقف لى و) أحمل عليك».

فقال فاذوسفان: «أحمل عليك».

(١) «الطريق إلى المدائن» ص٨٩.
(٢) إضافات من عندنا لتوضيح المعنى.



خريطة (١٤) فتح أصبهان المقياس ١ / ٢ مليون

ووقف عبدالله وقد تترس بترسه، وحمل عليه فاذوسفان ووجه إليه طعنة برمحه أصابت قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام الذى يمسك السرج فزال السرج وما تحته وسقط عبدالله عن فرسه ولكنه نزل واقفاً على قدميه، ثم قفز فاستوى على الفرس عرياً بدون سرج ولا ركاب. ومن المعلوم أنه وضع لا يتيح للفارس ثباتاً على الخيل ولا يقدر عليه إلا الأشداء الأقوياء من الفرسان، وقد كان عبدالله منهم، ثم طلب عبدالله من فاذوسفان أن يثبت حتى يهاجمه كما يقضى عرف المبارزة، ولكن هذا حاجزه وتراجع وقال:

«ما أحب أن أقاتلك، فإنى قد رأيتك رجلاً كاملاً، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك، على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله، وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه».

قال عبدالله: «لكم ذلك».

هذا مثال من مكر الفرس وخبث المجوس، فما كان لفاذوسفان أن يعرض مثل هذا إذا كان يحس بقوته ويثق فى جبهته، والذى لا شك فيه أنه كان يائساً منذ البداية، فأراد أن يأخذ فرصة بتحكيم المبارزة بينه وبين عبدالله، تلك المبارزة التى لم يتم منها إلا أن يقف عبدالله ليحاول هو قتله، فلما أن جاء دوره رفض إتمامها وألقى السلاح مقابل الصلح. وقد كتب إليه عبدالله كتاب صلح:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- كتاب من عبدالله لفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها.

٢- إنكم آمنون ما أديتم الجزية، وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم فى كل سنة تؤدونها إلى الذى يلى بلادكم عن كل حالم.

٣- ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه (إكرامه) يوماً وليلة، وحملان الراجل إلى مرحلة.

٤- لا تسلطوا على مسلم، وللمسلمين نصحكم (إخلاصكم) وأداء ما عليكم.

٥- ولكم الأمان ما فعلتم.

٦- فإذا غيَّرتم شيئاً أو غير مغيّر منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم.

٧– ومن سبَّ مسلماً بُلِغ منه، فإن ضربه قاتلناه.

كتب وشهد عبدالله بن قيس وعبدالله بن ورقاء وعصمة بن عبدالله»[1].

وفى رواية البلاذرى[2] أن فاذوسفان خاطب شعبه فى شأن هذه المعاهدة فقال:

«يا أهل أصبهان، رأيتكم لئاماً متخاذلين فكنت أهلاً لما فعلته بكم!».

وكان لأشراف[3] المجوس من أهل أصبهان معاقل فى جفرباذ من رستاق الصيمرة الكبرى ببهجاورستان بقلعة ماربين، فلما تم فتح جَيْ أنفوا من الجزية فأسلموا ودخلوا فى طاعة المسلمين على أن يؤدوا الخراج.

مدد من البصرة

وجاء أبو موسى الأشعرى فى جيشه (نتبين فيه عناصر من بنى تميم)، جاؤوا من طريق الأهواز، هذا الطريق يحدده ابن خرداذبة تحديداً دقيقاً بأبعاده[4] التى كان عليها قبل عام ٣٠٠هـ، ووصفه الرحالة ابن بطوطة كما عبره بعد نحو من أربعة قرون أخرى، ونعتقد أنها لم تتغير كثيراً عن العصر الذى نبحثه، ذلك أن الطريق فى الجبال ليس من السهل إنشاؤها أو تعديلها فى الزمن القصير، لاسيما وأننا لا نجد على الخرائط التى بين أيدينا اليوم سوى طريق واحد بين الأهواز وأصبهان نذهب إلى أنه هو نفس الطريق، ونقتطف مما قال ابن بطوطة[5]:

«... ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً فى جبال شامخة.. ووصلنا إلى إيذج.. وقد نحتت الطرق فى الصخور وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب بأحمالها. وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر (يوماً) فى عرض عشرة، وهى شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الأنهار، وشجرها البلوط، وهم يصنعون من دقيقه الخبز.. وسافرنا فى بلاد هذا السلطان عشرة أيام

(١) الطبرى ٤/١٤١ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.

(٢) فتوح البلدان ٧٨٤ عن محمد بن سعد عن الهيثم بن جميل عن حماد بن سلمة.

(٣) فتوح البلدان ٧٨٩ عن محمد بن يحيى التميمى.

(٤) قال: من ايذج إلى جواردان ثلاثة فراسخ ثم إلى رستاجرد أربعة فراسخ ثم إلى سليدست ستة فراسخ ثم إلى برين خمسة فراسخ ثم إلى سوجر ستة فراسخ ثم إلى الرباط سبعة فراسخ ثم إلى خان الأبرار سبعة فراسخ ومن الخان إلى أصبهان سبعة فراسخ – المسالك والممالك ٥٧ لابن خرداذبة.
والفرسخ = ٥٥٤٤ متراً – «الطريق إلى المدئن» ص١١٦.

(٥) النظار فى عجائب الأسفار/ وغرائب الأمصار ١٤٧ – ١٥٣.

فى جبال شامخة. وفى اليوم العاشر سافرنا فى بسيط من الأرض كثير المياه من عمالة (إقليم) أصفهان. ثم وصلنا إلى بلدة اشتركان وهى بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين.. ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان.. وهى مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين.. وبتنا بها ليلة، ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان، وهى كبيرة على نهر عظيم... وسرنا يوماً.. ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم... وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذى لا نظير له يسمونه بقمر الدين، وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو، ومنها السفرجل الذى لا مثل له فى طيب المطعم وعظم الجرم والأعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذى ليس فى الدنيا مثله إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم.. وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة...»

وصل أبو موسى الأشعرى[1] وجيش البصرة إلى أصبهان وقد تم الصلح بين فاذوسفان وعبدالله. ودخل أهل جى فى ذمة المسلمين إلا ثلاثين رجلاً خالفوا قومهم وتجمعوا ثم اتجهوا مع حاشيتهم إلى كرمان فانضموا إلى جيش آخر للفرس احتشد بها. ودخل عبدالله وأبو موسى مدينة جى عاصمة أصبهان، واغتبط من أقام بها من المجوس على الصلح والذمة، وندم من تركها وهاجر منها.

مدد إلى كرمان

وكتب عبدالله بأخباره إلى عمر فجاء جواب عمر:

«أن سر حتى تقدم على سهيل بن عدى فتجامعه على قتال مَن بكرمان وخلّف فى جى مَن بقى عن جى واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع».

فخرج عبدالله من أصبهان فى جيش من الفرسان ليس معه مشاة، وأدرك سهيلاً وهو مازال بالطريق قبل أن يصل إلى كرمان. وكان ذلك سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وفى رواية أنه كان سنة ثلاث وعشرين.

(١) فى رواية البلاذرى أن أبا موسى فتح قم وقاشان ثم جاء إلى عبدالله بن بديل فغزوا جميعاً أصبهان، وأن الأحنف بن قيس كان على مقدمة أبى موسى الأشعرى. ثم عاد – وقال: إن أصح الأقوال أن أبا موسى فتح قم وقاشان وأن عبدالله بن بديل فتح جى واليهودية.. نقول: من حيث أن أبا موسى جاء نحو أصبهان من الأهواز فى الجنوب الغربى، وأن قم وقاشان تقعان شمال أصفهان، فإنه يستحيل أن يكون قد فتحهما وهو فى طريقه من الأهواز إلى أصفهان. ولذلك أخذنا برواية الطبرى وأغفلنا هنا رواية البلاذرى.

جيوش الكوفة

بعث عمر خمسة بعوث تتبع قاعدة الكوفة بيانها كالآتى :

١ – نعيم بن مقرن المزنى إلى همذان إذ أنها انتقضت بعد صلحها، وبعد همذان كان عليه أن يسير إلى الرى.

٢ – ومن الرى بعث نعيم أخاه سويد بن مقرن إلى قومس وجرجان وطبرستان.

٣ – بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد إلى آذربيجان.

٤ – عمر بن سراقة إلى الباب من بعد آذربيجان.

وكانت تلك البعوث فى عام ٢٢هـ.

فتح همذان

انتقض أهل همذان بعد الصلح الذى أبرم معهم، فأرسل إليهم عمر لواء من جند الكوفة عليهم نعيم بن مقرن المزنى، وقد بلغ هذا اللواء اثنى عشر ألفاً كان على مقدمته سويد بن مقرن وعلى ميمنته ربعى بن عامر التميمى وعلى ميسرته مهلهل بن زيد الطائى. وسار نعيم على تعبيته هذه نحو ثنيّة العسل، فلما نزلوا كَنْكَوَر سرقت دواب من دوابهم فأطلقوا عليها قصر اللصوص.. ثم انحدر نعيم من الثنية حتى نزل على مدينة همذان وقد تحصن منه أهلها، فحاصرها واستولى على ما بينها وبين جرميذان (لم نستطع تحديدها على الخريطة) واستولى على ذمام بلاد همذان كلها، فسأله أهل همذان (المدينة) الصلح على أن يعاملهم معاملة من استجاب ولم ينتقض، فأجابهم نعيم إلى ذلك وقبل منهم الجزية على أن يمنعهم ويحميهم.

بقى نعيم فى همذان وفرق دستبى على خمسة أمراء لحكمها وحمايتها وهم جميعاً من قاعدة الكوفة، فكانوا :

عصمة بن عبدالله الضبى.

مهلهل بن زيد الخيل الطائى.

سماك بن عبيد العبسى.

سماك بن مخرمة الأسدى.

سماك بن خرشة الأنصارى.

كان ذلك سنة اثنتين وعشرين (على قول سيف).

وتكاتب[١] الديلم[٢] وأهل الرى[٣] وأهل آذربيجان. ثم خرج جيش الديلم بقيادة موتا حتى نزل واج روذ. وجاء جيش الرى يقوده زينبدى أبو فرخان حتى انضم إليه. وجاء جيش

---

(١) الطبرى ٤/١٤٧ – ١٥٠ عن سيف.
(٢) كانت مدينة قزوين هى ثغر الديلم – ابن خرداذبة ٥٧.
(٣) بالقرب من مكان طهران الحالى.

آذربيجان يقوده اسفندياذ أخو رستم. وأمام هذه التحركات تحصن أمراء مسالح دستبى فى مواقف دفاعية، وبعثوا إلى نعيم فى همذان بهذه الأخبار، وكتبوا إلى عمر. فاستخلف نعيم على همذان يزيد بن قيس[1] وخرج فى جنده حتى نزل عليهم واج روذ، فكان بينهم قتال شديد يعدل قتال نهاوند وقتل من المجوس عدد كثير لا يحصى. واستطاع اسفندياذ أن ينجو ببعض قواته.

وبلغت رسلهم إلى عمر باجتماع المجوس ففزع واهتم بهذه المعركة الجديدة، ثم فاجأه بريد آخر فقال له عمر: أبشير؟

قال: بل عروة.

فلما أعادها عليه عمر: أبشير؟

فطن إلى ما يريد فقال: بشير.

قال عمر: رسول نعيم؟

قال: رسول نعيم.

قال: الخبر؟

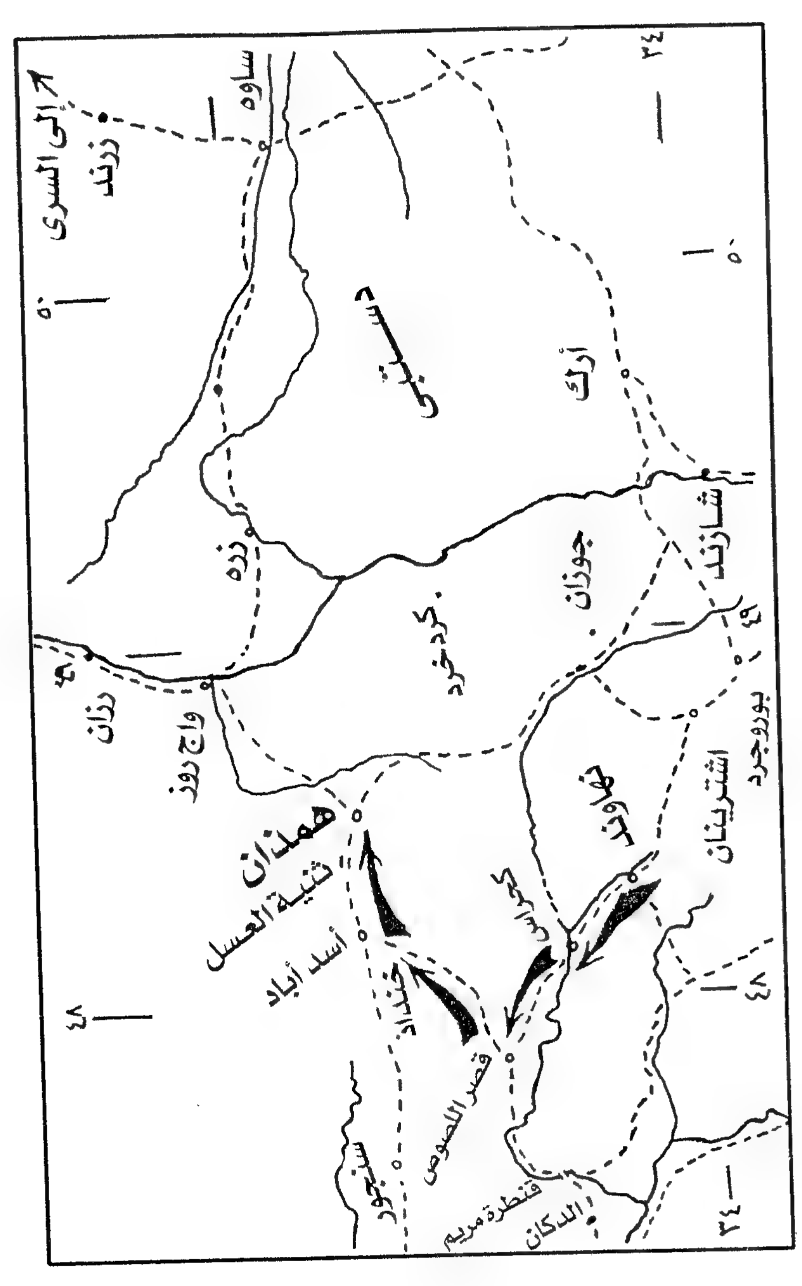
قال: البشرى بالفتح والنصر. وأخبره الخبر، فحمد الله وأمر بالكتاب فقرئ على الناس فحمدوا الله.

ثم قدم على عمر وفد بالأخماس من جيش الكوفة، فيهم سماك بن مخرمة وسماك بن عبيد وسماك بن خرشة، فذكروا أسماءهم سماك وسماك وسماك، فقال عمر: «بارك الله فيكم، اللهم اسمك بهم الإسلام (أيد بهم الإسلام) وأيد الإسلام بهم».

وكتب عمر إلى نعيم: «أما بعد، فاستخلف على همذان وأمد بكير بن عبدالله بسماك بن خرشة، وسر حتى تقدم الرى فتلقى جمعهم، ثم أقم بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد»... فأقر نعيم يزيد بن قيس الهمذانى على همذان وسار بالجيش من واج الروذ إلى الرى.

---

(١) يزيد بن قيس بن تمام بن حاجب بن تمام بن مسعود بن كعب بن علوى بن عليان بن أرحب بن عامر بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن حشم بن حيران بن نوف همذان الهمذانى الرحبى. كان رئيساً فى قومه. لما ثار أهل الكوفة على سعيد بن العاص زمن عثمان اجتمع قراء الكوفة وأقروا عليهم يزيد بن قيس. وكان مع على فى حروبه وولاه شرطته ثم ولاه أصبهان والرى وهمذان - أسد الغابة ٥٠٤٩.



خريطة (١٥) فتح همذان المقياس ١ : ٢ مليون

فتح الرى[1]

أخرب نعيم بن مقرن واج روذ، ثم خرج منها فى جيشه إلى دستبى ومنها اتجه نحو الرى، حتى إذا كان فى قها[2] لقيه جيش فارسى بعث به سياوخش ابن مهران بن بهرام جوبين[3]، وقد كانت هى الأسرة الحاكمة لإقليم الرى، هذا الجيش بقيادة زنبدى وقد كلف بالتصدى لنعيم. وكان زنبدى من أسرة منافسة لأسرة بهرام فكان يحسد سياوخش وآل بهرام جوبين، ثم رأى من الظفر المستطرد للمسلمين ومن وفائهم ما كان له من أثر عليه، فاستسلم لنعيم دون قتال وسالمه وسار معه إلى الرى.

واستمد سياوخش الأقاليم المجاورة فأرسل إلى حكام دنباوند وطبرستان وقومس[4] وجرجان يقول: «قد علمتم إنْ هؤلاء حلوا بالرى أنه لا مقام لكم»، فأمدوه واحتشدوا له وقاد سياوخش هذه القوات فالتقوا بنعيم على سفح جبل الرى بجانب مدينة الرى ذاتها ودارت بينهما المعركة. فقال زنبدى لنعيم: «إن القوم كثير وأنت فى قلة، فابعث معى خيلاً أدخل بهم مدينتهم فى مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك».

وفى الليل بعث نعيم خيلاً من جيشه عليها ابن أخيه المنذر بن عمرو بن مقرن، فساروا مع زنبدى متسللاً خلال ما يعرف من المسالك حتى دخل بهم مدينة الرى وسياوخش وجيشه لا يشعرون، فى حين شن نعيم بجيشه هجوماً ليلياً عنيفاً فصمدوا له وصبروا فى القتال حتى سمعوا تكبير المنذر فى جنده من خلفهم، فانهزموا وكثر القتل فيهم. يقول الرواة: «فقتلوا مقتلة عُدُّوا بالقصب فيها». وكانت غنائم المسلمين بالرى قريباً من غنائمهم من المدائن.

وصالح زنبدى سعيد بن مقرن عن شعب الرى فأقامه نعيم مرزباناً عليهم، وبذلك سقط

---

(١) الطبرى ٤ / ١٥٠.

(٢) لم نهتد إلى موقعها على الخريطة، وهى على الطريق بين واج روذ والرى.

(٣) بهرام جوبين هو صاحب الثورة المشهورة ضد هرمز الرابع ٥٨١م (الطريق إلى المدائن ٩٨) وابنه مهران هو الذى انخذل بالفرس فى معركة عين التمر ضد خالد بن الوليد ١١ رجب ١٢هـ (الطريق إلى المدائن ٢٣٠).

(٤) قومس منطقة واسعة فى شمال شرقى إيران تمتد بين الرى ونيسابور، ذات مدن وقرى ومزارع، تحجزها جبال طبرستان التى تقع فى شمالها عن بحر قزوين، ومن الرى إلى قومس ٣٥٠ كيلو متر.

الشرف عن آل بهرام ومازال بعدها فى آل زنبدى (وقد ظهر منهم ولداه فرخان وشهرام). وأخرب نعيم مدينة الرى (العتيقة) وأمر زنبدى فبنى مدينة الرى الحديثة.

وكتب نعيم بما فتح الله عليه مع المضارب[1] بن يزيد العجلى. وبعث أخماس الغنائم مع عتيبة بن النهاس العجلى[2] وأبو مفزر الأسود بن قطبة التميمى[3] من وجوه أهل الكوفة.

وكتب لشعب الرى كتاب معاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما أعطى نعيم بن مقرن، زنبدى بن قوله.

٢- أعطاه الأمان على أهل الرى ومن كان معهم من غيرهم.

٣- على الجزاء (الجزية) طاقة كل حالم فى كل سنة.

٤- وعلى أن ينصحوا ويدلوا، ولا يغلوا ولا يسلوا (سيفاً).

٥- وعلى أن يُقْرُوا (يكرموا) المسلمين يوماً وليلة.

٦- وعلى أن يفَخِّموا المسلم. فمن سب مسلماً أو استخف به نُهِك عقوبة، ومن ضربه قتل.

٧- ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير جماعتكم..

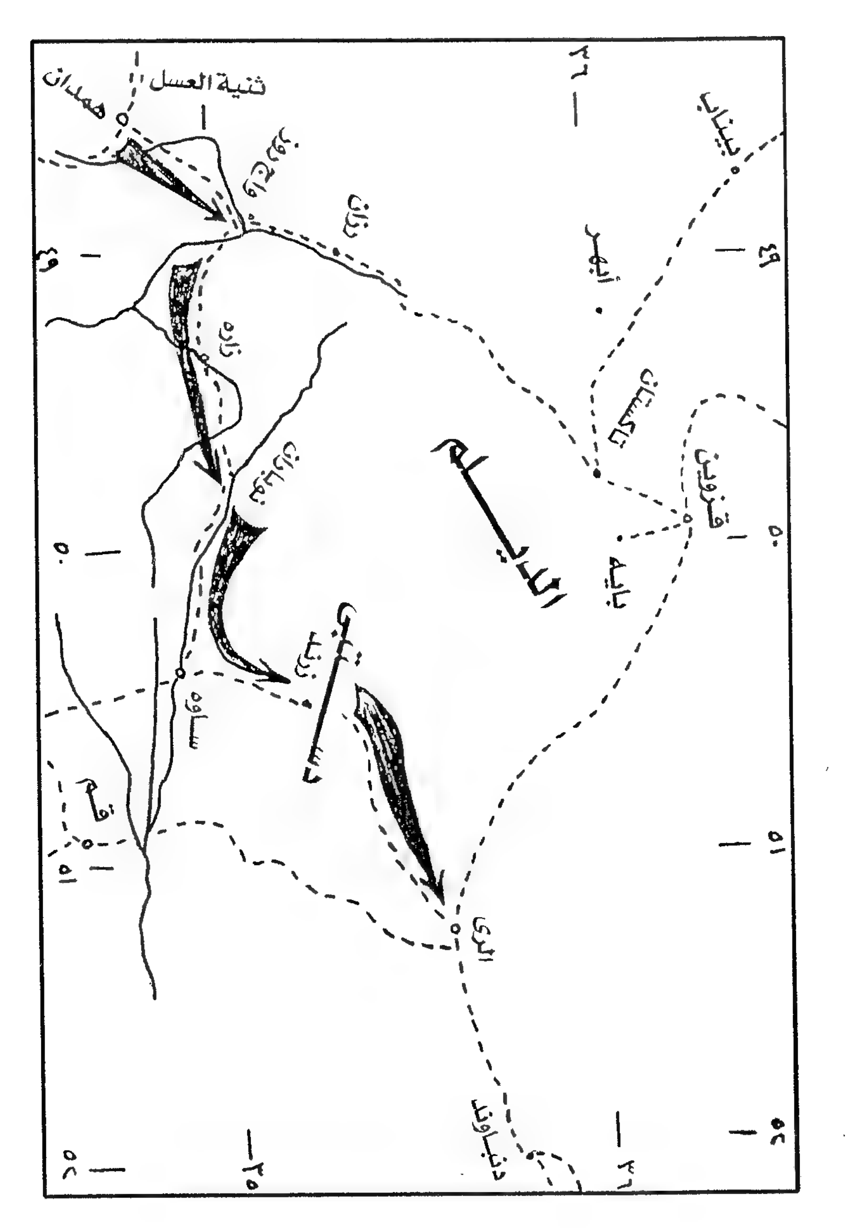
وكتب.. وشهد..

---

(١) المضارب بن يزيد العجلى شهد معركة البويب مع المثنى بن حارثة فى رمضان ١٣هـ، وخرج بعدها فى غارات المثنى على شمال العراق، وأغار المضارب على بنى تغلب بالكباث. وقد شهد القادسية وكان من رسل سعد إلى رستم على العتيق، كما كان من الخطباء الذين كلفهم سعد بن أبى وقاص يوم أرماث أن يخطبوا فى المسلمين ويحمسونهم. (الطريق إلى المدائن - والقادسية). وقال يحيى بن يونس: لا أدرى له صحبة أم لا. وقال جعفر: لا صحبة له وحديثه مرسل. (أسد الغابة ٤٩٣٠).

(٢) عتيبة بن النهاس العجلى: كان شريفاً فى قومه وكان ممن أقام على إسلامه حين ظهرت الردة فى بنى بكر بن وائل، وتعاون مع العلاء بن الحضرمى فى القضاء على الردة. وروى أنه كان مع خالد بن الوليد فى قتال مسيلمة باليمامة. وقد كان مع جيش خالد لفتح العراق وكذلك كان معه ابنه المغيرة بن عتيبة وصار المغيرة بعد قاضى الكوفة. وكان عتيبة من أمراء جيش خالد وقد بقى بالعراق مع المثنى بعد خروج خالد إلى الشام. شهد البويب مع المثنى بن حارثة وساهم فى الغارات على شمال العراق. كان عتيبة من الكماة الشجعان وكان أخوه عتاب شريفاً. ولم يرد ما يفيد صحبة عتبة للنبى (ﷺ). (الطريق إلى المدائن)

(٣) كان فى جيش خالد لفتح العراق وانتقل معه إلى الشام فشهد اليرموك كما شهد القادسية، وله فى ذلك كله أشعار كثيرة جيدة. وهو الذى قال لرسول كسرى: لا نصالحكم حتى نأكل عسل أفريذين بأترج كوثى. وقد بعث سعد سبى جلولاء إلى عمر معه. وكان أبو مفزر أحد ثلاثة عشر شهدوا وفاة أبى ذر بالربذة.



خريطة (١٦) فتح الري   المقياس ١ : ٢ مليون

استتب الأمر لنعيم على الري[١]، فبعث - كأمر عمر - سماك بن خرشة الأنصاري إلى آذربيجان مدداً لبُكير بن عبدالله، ونجد أخباره في الفصل الخاص بفتح آذربيجان. وأرسل مردانشاه مصمغان دنباوند (حاكمها) رسالة إلى نعيم يطلب الصلح على أساس شيء يفتدى به من المسلمين دون أن يسأله النصر والمنعة، فقبل نعيم منه وكتب بذلك كتاباً لا يتعهد فيه بحمايته ولا بمعونته على أحد خلافاً لما جرت عليه العادة في كتب الصلح:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

١- هذا كتاب من نعيم بن مقرن لمردانشاه مصمغان دنباوند وأهل دنباوند والخوار والشَّرَز.

٢- إنك آمن ومن دخل معك على الكف أن تكف أهل أرضك.

٣- وتتقي من ولي الفرج بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة.

٤- لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن ما أقمت على ذلك حتى تتغير.

٥- ومن غير فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه.

كتب ... وشهد ...

وبالرغم من أن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه العملية تحت صفة «الفتح»، إلا أننا بالتأمل في نصوص المعاهدة نشك في ذلك، فإن هذه النصوص صريحة في عدم الإغارة أو حتى دخول الإقليم إلا بإذن، والإذن الذي نفهمه هنا هو إذن مصمغان دنباوند العجمي غير العربي المجوسي غير المسلم، وما هكذا تكون صفة الغزو والفتوح.

لقد مر بنا في كتابنا «القادسية» ما عرض المسلمون على يزدجرد الثالث حين خيروه بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فأبى إلا القتال. وقد أعادوا هذا العرض على رستم حيث عرض

(١) يذكر البلاذري أن الري انتقضت في ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة، فبعث إليها كثير بن شهاب الحارثي فأخضعها وأذعنت بالخراج والجزية (فتوح البلدان ٧٩٢).. وروى عن يحيى بن ضريس قاضي الري قال: لم تزل بعد أن فتحت أيام حذيفة (على الكوفة) تنتقض وتفتح حتى كان آخر من فتحها قرظة بن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الكوفة لعثمان فاستقامت وكان عمالها ينزلون حصن الزنبدي (فتوح البلدان ٧٩٤).

عليه زهرة بن الحوية الإسلام، فقال له رستم: «ما أحسن هذا! أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى كيف يكون أمركم، أترجعون؟» قال زهرة: «أى والله، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة». ثم بعث سعد ربعى بن عامر فدعاه إلى الإسلام ثم قال: «... فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى موعود الله». وأخيراً بعث له سعد وفداً يدعوه فقالوا: «إن أميرنا يقول لك إن الجوار يحفظ الولاة، وإنى أدعوك إلى ما هو خير لنا ولك، العافية.. أن تقبل ما دعاك الله إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض، إلا أن داركم لكم وأمركم فيكم، وما أصبته مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا وكنا لكم عوناً على أحد إن أرادكم أو قوى عليكم...».

ونرى أن هذه المعاهدة نوع مما سبق أن عرضه المسلمون على الفرس قبل حربهم معهم، ولو افترضنا جدلاً أن الفرس كانوا قد قبلوه ما غزا المسلمون بلادهم.. والآن فقط يقبلها مردانشاه مصمغان دنباوند، فيجيبه المسلمون إلى ذلك ويعقدوا معه معاهدة سيادة وعدم اعتداء.. سيادة بأداء الجزية إلى المسلمين وعدم اعتداء متبادل، فعلى شعب دنباوند أن يكفوا أذاهم وحربهم عن المسلمين، وعلى المسلمين ألا يغيروا عليهم ولا يدخلون بلادهم إلا بإذنهم.

وأياً ما كان، فقد كان إتمام فتح أو صلح دنباوند مكسباً له قيمته للمسلمين، ذلك أن دنباوند كانت موقعاً حصيناً، وقد يستبين لنا هذا من وصف الاصطخرى له، ولو أنه ظاهر المبالغة. قال:

«.. ومن الجبال المذكورة بهذه الكورة (كورة الجبال) جبل دنباوند، جبل مرتفع جداً يرى فيما بلغنى من خمسين فرسخاً (٢٢٧ كيلو متراً) لارتفاعه وما أن أحداً ارتقاه[١].. وهو جبل رأيته أنا من وسط روذة الرى، وبلغنى أنه يرى من قرب سادة، وهو جبل وسط جبال يعلو فوقها كالقبة ويحيط بالموضع الذى يعلو على الجبال نحو أربعة فراسخ... ويرتفع من أعلاه دخان دائم الدهر كله.. إلا أن القلة التى ترتفع عن هذه البقعة جبل أقرع ليس عليه كثير شجر ولا نبات ولا يعلم بسائر الجبال ونواحى الديلم جبل أعظم منه[٢].

(١) المسالك والممالك ١١٩.
(٢) المسالك والممالك ١٢٣.

فتح قومس[١]

وصل المضارب بن يزيد العجلي وكذلك أخماس فتح الرى إلى عمر بالمدينة، فكتب إلى نعيم: «أن قدم سويد بن مقرن إلى قومس، وابعث على مقدمته سماك بن مخرمة[٢]، وعلى مجنبتيه عتيبة بن النهاس (العجلى – للميمنة) وهند ابن عمرو الجملى[٣] (المرادى للميسرة).

وخرج سويد بهذه التعبئة من الرى إلى قومس التى تبعد أول حدودها حوالى ٣٥٠ كيلومترًا ثم تمتد بعد ذلك إلى الشرق حتى خراسان. هذا الطريق الذى سلكه سويد بجيشه نذهب إلى أنه هو الطريق[٤] الذى ذكر تفصيله ومسافاته ابن خرداذبة[٥] وقدامة بن جعفر[٦] حوالى عام ٣٠٠هـ. هذا الطريق القديم لم نجد سواه طرقاً ولا دروباً على خرائط إيران الحديثة التى بين أيدينا. سار سويد على هذا الطريق من الرى فلم يعترضه أحد حتى قومس فاستولى عليها سلماً وعسكر بها. وهنا فشا فى المسلمين مرض قالوا عنه إنه القصر وذكروا أن أعراضه يبس فى العنق، وعزاه سويد إلى شربهم من نهر ملاذ[٧]، فقال لهم:

(١) الطبرى ٤/١١٥.
(٢) سماك بن مخرمة بن حمين بن ثلث بن الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة الهالكى الأسدى. كان بالكوفة فلما قدمها على هرب منه إلى الجزيرة ومات بالرقة (أسد الغابة ٢٢٣٧).
(٣) أول ما عثرنا عليه من أخبار هند بن عمرو أن عمر بن الخطاب فى عام ١٧هـ عزل الوليد بن عقبة عن عرب الجزيرة وأمر عليهم فرات بن حيان العجلى وهند بن عمرو (الطبرى ٤/٥٦) وقد قتل يوم الجمل مع على (الإصابة ٩٠٥٧) وله أخبار فى ذلك.
(٤) قال: من الرى إلى مفضل أباذ أربعة فراسخ ثم إلى كاسب ستة فراسخ ثم إلى افريذين ثمانية فراسخ ثم إلى خوار ستة فراسخ ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ثم إلى رأس الكلب سبعة فراسخ ثم إلى شرخ أربعة فراسخ ثم إلى سمنان أربعة فراسخ ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ثم إلى داية أربعة فراسخ ثم إلى قومس أربعة فراسخ فمن الرى إليها ثلاثة وستون فرسخاً. كما قال: من الرى إلى قومس ثلاثة وعشرون سكة يعنى (محطة) فتكون السكة هنا حوالى ١٥ كيلو متراً.
(٥) المسالك والممالك ص ٢٣، ٤١.
(٦) الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٠١.
(٧) نهر ملاذ لم نجده فيمارجعنا إليه من كتب البلدانيين والرحالة كما لم نجد له اسماً على الخرائط الحديثة، ولكننا وجدنا مدينة بسطام (سيأتى ذكرها) على نهر نرجح أنه ملاذ، وهو بذلك يحدد لنا مكان معسكر سويد.

غيروا ماءكم حتى تعودوا كأهله، ففعلوا واستمرؤوه. وفتحوا في سيرهم هذا الدامغان[1].

صلح قومس

وكتب إليه الذين لجأوا إلى طبرستان والذين كانوا قد ذهبوا في المفاوز فراراً أمام زحفه، فدعاهم إلى الصلح على أداء الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً :

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١ – هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم.

٢ – على أن يؤدوا الجزية عن يد، عن كل حالم (بالغ) بقدر طاقته.

٣ – وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا.

٤ – وعلى أن يدلوا (دلالة الطريق).

٥ – وعليهم نزل (تموين) من نزل من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم.

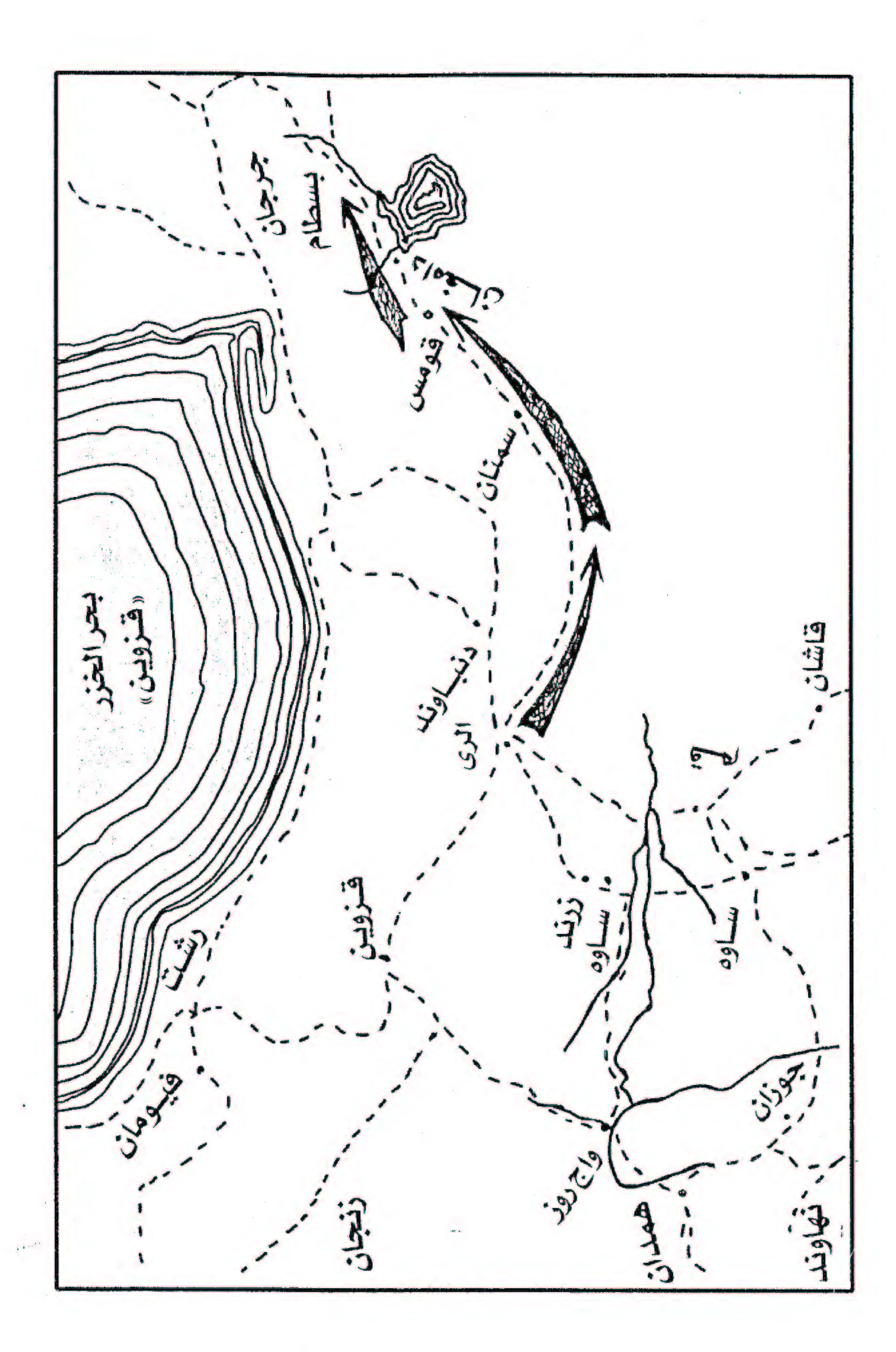
٦ – وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة..

كتب.. وشهد..».

وقد أورد الطبري فتح قومس ضمن أحداث عام ٢٢هـ..

هذا ويدلنا تضمين الكتاب نصاً عن دلالة الطريق على أن المسلمين بدءوا يعانون من توغلهم البعيد في أرض المجوس.

(١) يعزو البلاذري فتح الدامغان إلى سليمان بن عمر الضبي أو البراء بن عازب – فتوح البلدان ٢٩٧.



خريطة (١٧) فتح قومس وجرجان المقياس ١ : ٤ مليون

جرجان

وعسكر سويد بن مقرن ببسطام (من مدن كورة قومس) وكتب إلى ملك جرجان وكان يدعى رزبان صول، ثم سار إليها. وجاءه جواب رزبان صول يطلب الصلح على أن يؤدى الجزية وأن يكفيه حرب جرجان، فإن غلب أعانه. وقبل سويد ذلك منه، وخرج رزبان صول لاستقبال سويد قبل بلوغه جرجان فدخلها معه وعسكر بها حتى جبى إليه رزبان خراجها وحدد حدودها وحامياتها وتكفل بالدفاع عنها بعناصر من ترك دهستان، فأسقط سويد الجزية عمن أقام يدافع عنها وأخذ الخراج من سائر أهلها وكتب بينهم وبينه كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١ – هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان.

٢ – أن لكم الذمة.

٣ – وعلينا المنعة.

٤ – على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة قدر طاقتكم، على كل حالم.

٥ – ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضاً من جزائه.

٦ – ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم.

٧ – ولا يغير شىء من ذلك هو إليهم ما أدوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وقروا المسلمين (أكرموهم) ولم يبد منهم سل (لسيف) ولا غل (لمال).

٨ – ومن أقام فيهم فله مثل ما لهم، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه.

٩ – وعلى مَن سَبَّ مسلماً بلغ جهده (عوقب)، ومن ضربه حلَّ دمه.

شهد سواد بن قطبة وهند بن عمرو وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس».

وهنا فى هذه المعاهدة نص يستوقف النظر هو البند رقم (٥) الذى يفيد إسقاط الجزية ومنح الجزاء لمن يستعين المسلمون به من أهل جرجان. ومن المفهوم بطبيعة الحال أنها استعانة فى مجال الدفاع وأنهم مازالوا على مجوسيتهم. ولنا أن نتساءل هنا عن سر استعانة المسلمين بمجوس؟ لقد رأيناهم قبل ذلك ابتداء من القادسية يقبلون فى صفوفهم أفراداً من الفرس

دخلوا الإسلام زادوا عدداً حتى بلغوا أربعة آلاف بعد فتح حلوان، وكان عليهم رؤساء ممن أسلم من الفرس، أما الآن فى فتح جرجان فنجد المسلمين بدءوا يستعينون بعجم مازالوا على مجوسيتهم، فأى تعليل وراء ذلك؟

الذى نراه أنه ربما كان وراء ذلك دافعان:

الأول: أن حركة الفتح قد امتدت امتداداً شاسعاً كبيراً مع قلة فى عدد الغزاة الفاتحين أمام كثرة أعدائهم، ولقد كان جيش سويد بن مقرن اثنى عشر ألفاً منذ خرج بهم من نهاوند وفتح همذان والرى، ومن الرى بعث سماك بن خرشة إلى آذربيجان مدداً لبكير بن عبدالله، فنقصت قواته عما كانت عليه بما لا يقل عن ألفين، ومع ذلك سار نعيم يفتح قومس وجرجان وهو مقدم على فتح ما وراء ذلك من طبرستان، فكان حتماً عليه أن يستعين فى مجال الدفاع بأهل البلاد المفتوحة مادام ذلك ممكناً، ولا شك أنه تصرف ينطوى على قدر من المرونة والسماحة والإدارة والكياسة التى يتطلبها الإسلام فى القائد المسلم.

أما الدافع الثانى الذى ربما قام فى تقدير سويد هو أنه كان يفتح الباب لتمزيق جبهة المجوس سياسياً واجتماعياً بعد أن تمزقوا حربياً، فهم إذا بدأوا التعاون مع المسلمين والعمل لحسابهم مقابل إسقاط الجزية عنهم أو تقاضى أجر على ما يقومون به، فإنها سوف تكون بداية تشجع الآخرين للتهافت على ذلك التعاون، ثم يكون من بعد ذلك باباً مفتوحاً لشرح الإسلام لهم ونشر الدعوة إليه فى مناخ أكثر مناسبة.

إن معاهدة جرجان تستحق وقفة تسجل فيها منتهى الإعجاب بسويد بن مقرن الرجل المارد فى السياسة، كما أنه كان الرجل العملاق فى الحرب. وحرى بنا ونحن ندرس هذه الفتوح وتلك السير لنقدم منها لشبابنا وأمتنا الدروس والعبر، ألا ننسى أن سويد بن مقرن كان أعرابياً بدوياً بسيطاً من بنى مزينة أسلم وإخوته مع أخيهم الأكبر شهيد نهاوند النعمان بن مقرن وذلك منذ ثمانية عشر عاماً ليس إلا، فتتلمذوا على رسول الله ﷺ مع صحابته الأبرار الأطهار فى مدرسة الإسلام، ثم تابعوا تحت لواء الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ثم هم الآن يسيرون غزاة فاتحين بأمر الخليفة الثانى عمر بن الخطاب. وما أحوجنا اليوم إلى دراسة تلك التراجم المشرقة لصحابة رسول الله ﷺ الفاتحين، وللرسالة المبدعة المعجزة التى أحالتهم من بدو أعراب يرعون الإبل والغنم إلى قادة سادة يرعون الشعوب ويسوسون من الأمم إمبراطوريات اشتهرت من قبل بالعتو والجبروت.

فتح طبرستان[1]

وكتب إصبهبذ خراسان (حاكمها) إلى سويد فى طلب الصلح عن طبرستان وجيلان، وعلى أن يتوادعا ويؤدى شيئاً إلى المسلمين على غير نصر ولا معونة على أحد، فقبل سويد ذلك منه وكتب له به كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١ - هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان إصبهبذ خراسان على طبرستان وجبل جيلان من أهل العدو!

٢ - إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف لصوتك (لصوصك) وأهل حواشى أرضك، ولا تؤدى لنا بُغْية (قاطع طريق).

٣ - وتتقى من ولى فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك.

٤ - فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك.

٥ - سبيلنا عليكم (طريقنا إليكم) بالإذن آمنة، وكذلك سبيلكم، ولا تؤدون لنا بُغْية.

٦ - ولا تسلون لنا (سيفاً) إلى عدو.

٧ - ولا تغلون (من الضريبة المتفق عليها).

٨ - فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم.

شهد سواد بن قطبة التميمى، وهند بن عمرو المرادى، وسِماك بن مخرمة الأسدى، وسِماك بن عبيد الأسدى، وعتيبة بن النهاس البكرى. وكتب سنة ثمان عشرة»[2].

---

(١) الطبرى ٤ / ١٥٣ س ش س.

(٢) هذا فى النص، وقد ذهب الطبرى إلى إدراج فتح طبرستان ضمن أحداث عام ٢٢هـ. وهو ما نراه معقولاً.

فتح آذربيجان[1]

أما آذربيجان فقد بعث عمر إليها طابورين وقسم فتحها بينهما.. الأول يخرج من حلوان إلى آذربيجان يقوده بُكَيْر بن عبدالله[2] الليثى، والثانى يخرج من الموصل إلى غرب

---

(١) الطبرى ٤ / ١٥٣ عن سيف بن عمر - وآذربيجان معناها أرض النار.

(٢) بكير بن عبدالله بن مسعر بن جعفر بن كليب بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وأخوه غالب بن عبدالله أكبر منه، له ذكر فى السيرة وفى القادسية، ونجد فى التراجم بكير بن شداد بن عامر بن الملوح بن يعمر (وهو الشداخ) بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر.. إلخ...

وبالرغم من تباين النسب فى الحلقات الأخيرة، فإننا نعتقد أنه مجرد اختلاف عند النسابين وأن صاحب الترجمتين رجل واحد لانطباق الأحداث البارزة فيهما.

روى عنه عبدالملك بن يعلى الليثى أنه كان ممن يخدم النبى (ﷺ) وهو غلام، فلما احتلم جاء النبى فقال: يا رسول الله إنى كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال. فقال النبى (ﷺ): «اللهم صدق قوله ولقه الظفر». فلما كان فى خلافة عمر بن الخطاب جاء وقد قتل يهودياً فأعظم ذلك عمر وخرج وصعد المنبر وقال: «أفيما ولأنى الله واستخلفنى تقتل الرجال؟ أذكر الله رجلاً كان عنده علم إلا أعلمنى؟» فقام إليه بكير بن الشداخ فقال: أنا به. قال عمر: الله أكبر بؤت بدمه، فهات المخرج. قال: بلى. خرج فلان غازياً ووكلنى بأهله فجئت إلى بابه فوجدت هذا اليهودى فى منزله وهو يقول:

وأشْعثُ غرّه الإسلام منى ... خلْوت بعرسه ليل التمام

أبيتُ على ترائبها ويمسى ... على قود الأعنة والحزام

كأن مجامع الربلات منها ... فِئام ينهضون إلى فئام

فصدق عمر قوله وأبطل دمه بدعاء النبى (ﷺ): «اللهم صدق قوله».. الترائب: عظام الصدر، الربلات: أصول الأفخاذ، الفئام: الجماعة من الناس. وقد مر بنا ذكر بكير بن عبدالله فى كتابنا «القادسية» إذ كان فى مقدمة سعد بن أبى وقاص التى قادها زهرة بن الحوية، فما أن بلغ القادسية حتى بعث به على سرية من ثلاثين فارساً من أبطال المسلمين فيهم الشماخ الشاعر القيسى فأسروا زفة أخت مرزبان الحيرة.

وبعد أن انتهت معركة القادسية أمر سعد بن أبى وقاص القعقاع بن عمرو وشرحبيل بن السمط بمطاردة الفلول، فلما عاد أمر سعد زهرة بن الحوية بمطاردة أخرى أكثر عمقاً، فنادى فى المقدمة وانطلق حتى إذا أتى الردم وجد المجوس قد بثقوه خلفهم فى انسحابهم، وكان زهرة على حصان ذكر فقال لبكير: «يا بكير أقدم»، وكان على فرس أنثى اسمها اطلال وقد اشتهر بها وعرف بفارس اطلال، فضربها وقال: «ثبى اطلال» فتجمعت ثم وثبت فاجتازت البثق، وأوثب زهرةحصانه خلفها وكذلك سائر الخيل. (القادسية - فتوح البلدان ٨١٨ - أسد الغابة ٤٨٧ - الإصابة ٧٨٤، ٦٩٠٥ - الاستيعاب ٣ / ١٨١).

آذربيجان يقوده عتبة[1] بن فرقد. ويبدو أن القيادة العامة كانت لبكير بن عبدالله. كذلك - وكما مر بنا - أن عمر كتب لنعيم بن مقرن المزنى بعد أن هزم اسفندياذ بن فرخزاد فى واج روذ أن يبعث سماك بن خرشة الأنصارى إلى آذربيجان مدداً لبكير، ولكن نعيم بن مقرن أخر تنفيذ ذلك حتى تم له فتح الرى فأرسل سماكاً من هناك. وقد كان سماك بن خرشة وعتبة بن فرقد من أغنياء العرب، وقد جاءا إلى الكوفة بغناهما.

سار بكير بن عبدالله من حلوان حتى إذا كان تجاه جرميذان[2] طلع عليه اسفندياذ بن فرخهزاذ - أخ رستم قائد المجوس فى القادسية - كان اسفندياذ مهزوماً فيمن معه أمام نعيم بن مقرن فى واج روذ، ولم نجد ما يفيدنا وجهة فراره حينذاك، ومن المحتمل أنه كان متجهاً إلى آذربيجان. والتحم به بكير فهزمه مرة أخرى وأخذه أسيراً. وخاف اسفندياذ القتل فقال:

«الصلح أَحَبُّ إليك أم الحرب؟»

قال بكير: «بل الصلح».

قال: «فامسكنى عندك فإن أهل آذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجىء لم يقيموا لك وجلوا إلى الجبال التى حولها من القَبْج والروم، ومن كان على التحصن تحصن إلى يوم ما».

فحبسه بكير عنده وأقام وهو فى يده وصارت البلاد إليه إلا الحصون. وقدم سماك بن خرشة عليه وهو على ذلك، وقد سبق بكير فى فتح ما وكل إليه عتبة بن فرقد. وقال بكير لسماك حين قدم عليه: «ما الذى أصنع بك وبعتبة بأغنيين؟ لئن أطعت ما فى نفسى لأمضين قدماً ولأخلفنكما، فإن شئت أقمت معى وإن شئت أتيت عتبة فقد أذنت لك، فإنى لا أرانى إلا تارككما وطالباً وجهاً هو أكره من هذا.

(١) عتبة بن فرقد بن يربوع بن حبيب بن مالك بن أسعد بن رفاعة بن ربيعة بن رفاعة بن الحارث بن سليم بن منصور السلمى. شهد خيبر ٧هـ مع النبى (ﷺ)، وقسم له منها فكان يعطى نصيبه منها لبنى أعمامه عاما ولبنى أخواله عاماً، وكان له أربعة نسوة وقيل ثلاث. وأول ذكر له فى فتوح العراق وقفنا عليه هو إمارة الحرب والخراج للموصل ١٧ هـ خلفاً لعرفجة ابن هرثمة، وبعد أن استقر فى الموصل فتح شهر زور والصامغان ودراباذ عام ٢٢هـ ثم كتب إلى عمر: «إن فتوحى قد بلغت آذربيجان»، فولاه فتح آذربيجان وأعاد عرفجة إلى الموصل. وقد بقى عتبة على آذربيجان ما دام سعد على الكوفة، فلما وليها الوليد بن عقبة من قبل عثمان عام ٢٥هـ عزل عتبة عن آذربيجان فنقض أهلها الصلح مع المسلمين وأعاد الوليد غزوها..
وسكن عتبة الكوفة حتى توفى بها وخلف عقباً يقال لهم الفراقدة.

(٢) جرميذان لم نجدها على الخرائط الحديثة التى بين أيدينا ولا فيما رجعنا إليه من كتب البلدانيين. ونظراً للتشابه اللفظى فربما كانت جرميذان هى قرميسين التى هى تعريب كرمان شاهان وهى كرامنشاه اليوم. والله أعلم.

وكتب بكير إلى عمر بن الخطاب يستعفيه من أمر آذربيجان.

أما عتبة بن فرقد فقد سار من الموصل[1] وقد اعترض طريقه بهرام بن فرخزاذ[2] فى عسكره فاقتتلوا وهزمه عتبة وهرب بهرام. ولم تذكر المصادر أين كانت تلك الموقعة. ولعل مما يحدد لنا مساره رواية تفيد دخوله أردبيل[3]. وبلغت هذه الأخبار إلى معسكر بكير، فقال اسفندياذ:

«الآن تم الصلح وطفئت الحرب».

فصالحه واستجابت كل آذربيجان واستسلمت..

وكتب بكير بذلك إلى عمر وبعث إليه بالأخماس مع الوفود.

وكتب عتبة كتاباً لشعب آذربيجان:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما أعطى عتبة بن فرقد، عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، أهل آذربيجان - سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها - كلهم.

٢- الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم.

٣- على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبى ولا امرأة ولا زَمِنٍ[4] ليس فى يديه شىء من الدنيا، ولا متعبد متخل ليس فى يديه من الدنيا شىء، لهم ذلك ولمن سكن معهم.

٤- وعليهم قِرَى المسلم (إكرامه) من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته.

٥- ومن حشر منهم فى سنة (للدفاع) وضع عنه جزاء تلك السنة.

٦- ومن أقام فله مثلما لمن أقام من ذلك. ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

كتب جندب وشهد بكير بن عبدالله الليثى وسماك بن خرشة الأنصارى..».

وكتب عمر إلى بكير رداً على طلب استعفائه يأذن له فى التقدم نحو الباب وأمره أن يستخلف على عمله، فاستخلف عتبة على ما تم فتحه من آذربيجان كلها وأسلمه اسفندياذ

(١) فى رواية أنه سار من الموصل إلى شهر زور ومنها إلى آذربيجان.
(٢) يبدو أنه أخ رستم وبندوان واسفندياذ.
(٣) فتوح البلدان ٨١١ عن الحسين بن عمرو الأردبيلى عن واقد الأردبيلى.
(٤) الزمن: العجوز الكبير.

الأسير، ومضى بكير نحو مهمته لفتح الباب. وأمر عتبة سماك بن خرشة على ما كان بكير قد فتح من شرقى آذربيجان تحت رئاسته، فقد جمع عمر آذربيجان كلها لعتبة بن فرقد.

قال أبو عثمان النهدى[1]: «كنت مع عتبة بن فرقد حين افتتح آذربيجان فصنع سفطين من خبيص (طعام) وألبسهما الجلود واللبود ثم بعث بهما إلى عمر مع سحيم مولى عتبة. فلما قدم عليه قال: ما الذى جئت به؟ أذهب أم ورق؟ وأمر به فكشف عنه، فذاق الخبيص فقال: إن هذا لطيب أُثْرٌ! أكل المهاجرين أكل منه شبعه؟ قال: لا إنما هو شيء خصك به.

فكتب إليه: «من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد. أما بعد، فليس من كدك ولا كد أمك ولا كد أبيك. لا نأكل إلا ما يشبع منه المسلمون فى رحالهم».

---

(١) فتوح البلدان ٨١٤ عن المدائنى عن على بن المجاهد عن عاصم الأحول.

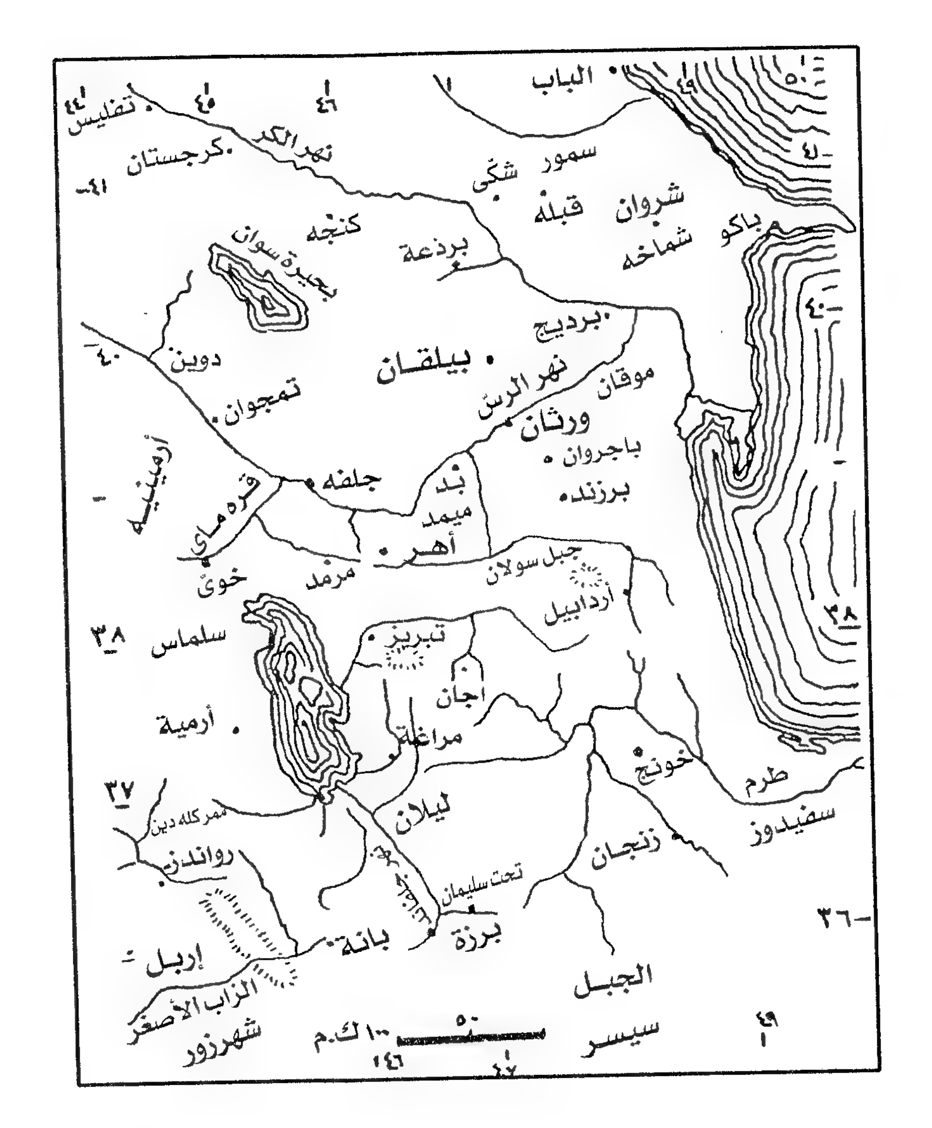
فتوح البلدان ٨١٧ عن العباسى بن الوليد النرسى عن عبدالواحد بن زياد عن عاصم الأحول. وأبو عثمان النهدى معدود فى كبار التابعين وهو من قبيلة قضاعة. واسمه عبدالرحمن بن مل بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن كعب بن خزيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد بن زيد بن ليث ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة.

سئل أبو عثمان: هل أدركت رسول الله (ﷺ)؟ قال: نعم، أسلمت على عهد رسول الله (ﷺ) وأديت إليه ثلاث صدقات (من الزكاة) ولم ألقه، وغزوت على عهد عمر رضى الله عنه غزوات. وقال عاصم الأحول: سألت أبا عثمان النهدى: رأيت النبى (ﷺ)؟ قال: لا. قلت: رأيت أبا بكر؟ قال: لا، ولكن اتبعت عمر حين قام.

شهد اليرموك والقادسية وجلولاء وتستر ونهاوند وآذربيجان، رغم أنه كان كبير السن، ويقال إنه عاش فى الجاهلية أكثر من ستين سنة وفى الإسلام مثل ذلك، وكان يقول: بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة فما منى شيء إلا وقد عرفت النقص فيه إلا أملى فإنه كما كان. ولقد توفى بالبصرة أول ولاية الحجاج بن يوسف العراق، قيل سنة مائة وقيل سنة خمس وتسعين..

ولقد كان أبو عثمان ورعاً تقياً أدى ستين حجة وعمرة، وكان يركع ويسجد حتى يغشى عليه. قال أبو عثمان: «أدركت الجاهلية، فما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى بالقرآن، وإن كان ليصلى بنا صلاة الصبح فنود لو قرأ بالبقرة من حسن صوته». وقال: «إنى لأعلم حين يذكرنى الله»، فقيل له: من أين تعلم؟ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: (اذكرونى أذكركم)، فإذا ذكرت الله ذكرنى». وقال الراوى: كنا إذا دعونا الله قال: «والله لقد استجاب الله لنا، ألم يقل (ادعونى أستجب لكم)؟». ولقد تلقى أبو عثمان عن كبار الصحابة، فروى عن عمر وعلى وسعد وسعيد وطليحة وابن مسعود وحذيفة وبلال وأبى هريرة وأبى موسى الأشعرى وعائشة، كما روى عن خالد بن عرفطة وعن سلمان بن ربيعة الباهلى وسليمان وأسامة وغيرهم. وكان ثقة فى روايته كما كان من رواة الفتوح. وكان من سكان الكوفة ولم يكن له بها دار لبنى نهد، فلما قتل الحسين تحول عنها فنزل البصرة وقال: «لا أسكن بلداً قتل فيه ابن بنت رسول الله (ﷺ)».

(الطبرى - الطبقات الكبرى ٧ / ٦٩-أسد الغابة ٦٠٨٧-الإصابة ٦٣٨١-الاستيعاب ٢ / ٤١٩- فتوح البلدان).



خريطة (١٨) آذربيجان

فتح الباب

وكان فتح الباب أيضاً عام ٢٢هـ، وهى التى يقال عنها أيضاً باب الأبواب، وهى مدينة دربند Derbent على الساحل الغربى لبحر قزوين من أرض أرمينيا، وهى تماماً على خط عرض ٤٢ شمالاً وتقع إلى الشرق قليلاً من خط طول ٤٨ شرقاً، والمدينة من بناء كسرى أنوشروان وعلى ذلك فقد كانت فى عصر الفتح مدينة جديدة واكتسبت اسمها من صفتها، ذلك أنها بُنيت[1] على طرق فى الجبل وأسكنها أنوشروان قوماً من جنده.. ذكر الاصطخرى[2] صفة المدينة على ما كانت عليه نحو عام ٣٠٠هـ فقال: «وأما باب الأبواب فإنها مدينة على البحر، وفى وسطها مرسى للسفن وبين هذا المرسى وبين البحر قد بنى على حافتى البحر سدان، حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة ولا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر، وهذان السدان من صخر ورصاص[3]، وباب الأبواب على بحر طبرستان هى مدينة تكون أكبر من أردبيل، ولهم زروع كثيرة وثمار قليلة إلا ما يحمل إليهم من النواحى، وهى مدينة عليها سور من حجارة وآجر وطين، وهى فرضة (قلعة) بحر الخزر (قزوين) من السرير وسائر بلدان الكفر، وهى أيضاً فرضة جرجان وطبرستان والديلم. ويرتفع منها ثياب كتان، وليس بالران وأرمينية وآذربيجان ثياب كتان إلا هناك، وبها زعفران ويقع إليها رقيق من سائر دور الكفر...».

ولقد كانت الباب من موارد الدولة من حيث الإمداد الحربى، فهى على حدودها الشمالية، وكان عليها الحماية من تلك التخوم. ولقد مر بنا بعد فرار فلول القادسية أن نخيرجان ترك قوة كبيرة عليها شهريار من دهاقين الباب بين كوثى ودير كعب، لعرقلة المسلمين فى زحفهم نحو المدائن.

(١) قدامة بن جعفر ٢٥٩.

(٢) المسالك والممالك ١٠٩.

(٣) نشك فى بناء سد من الرصاص.

وقد ذكر ابن خرداذبة أن الأبواب بنيت على أفواه شعاب فى جبل القبق وأن فيها حصن وأن لها أبواباً ذكر منها ١٣ باباً منها باب ضول وباب اللان وباب سمسخى.. (المسالك والممالك ١٢٢-١٢٤).

أعاد عمر إلى البصرة أبا موسى الأشعرى، وبعث سراقة بن عمرو الأنصارى[1] إلى الباب، وكان يقال له «ذا النور». وحدد عمر لسراقة تعبئة جيشه، فجعل على مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة[2] الباهلى، وكان أيضاً يدعى «ذا النور»، وجعل على الجناحين حذيفة بن أسيد الغفارى[3] وبُكَير بن عبدالله الليثى، وكان بكير قد سبق نحو الباب وقد اقترب منها قبل قدوم سراقة عليه، فكتب إليه عمر أن يلحق بسراقة بن عمرو وينضم إليه. كذلك جعل على الغنائم وقسمتها سلمان بن ربيعة الباهلى[4].

(١) سراقة بن عمرو بن زيد بن عبد بن مناة بن عامر بن عدى بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأنصارى، شهد أحداً وما بعدها، وذكر بعضهم أنه استشهد يوم القادسية (الإصابة ٣١١٠ - أسد الغابة ١٩٥٢).

(٢) عبدالرحمن بن ربيعة أدرك النبى (ﷺ) ولم يسمع منه ولا روى عنه. ولقد مر بنا ذكره فى القادسية إذ ولاه عمر القضاء وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء، وكان من أبطال المسلمين بالقادسية. ولقد وجدناه بعد انهيار جيش رستم وقد حاولت بضع وثلاثون كتيبة منهم أن تصمد أن تصدى لهم بضع وثلاثون كتيبة من المسلمين، فكان بن هربذ أمام عبدالرحمن بن ربيعة فأباد عبدالرحمن جنده بخيله وقتل بن هربذ. وهو عبدالرحمن بن ربيعة بن يزيد بن سهم بن عمرو بن ثعلبة بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك ابن أعصر، نسبوا إلى أمهم باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة ونسب ولد معن إليها، وباهلة من قيس عيلان.

(٣) حذيفة بن أسيد بن خالد بن الأغور (أو الأنوس) بن واقعة (أو وقيعة) بن حرام بن غفار بن مليل. يكنى ابن أبا سريحة. شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة وهى أول مشاهده مع النبى (ﷺ). وقد روى عن أبى بكر الصديق ونزل الكوفة، كما روى عن أبى ذر الغفارى وعن على. وروى عنه أبو الطفيل والشعبى والربيع بن عميلة وحبيب بن حماز وغيرهم. وأحاديثه فى صحيح مسلم وعند أصحاب السنن. توفى بالكوفة سنة اثنتين وأربعين فصلى عليه زيد بن أرقم. (الإصابة ١٦٤٤ و٥٠٦ كنى - الاستيعاب ١/ ٢٧٨، ٤/ ٩٧ - أسد الغابة ١١٠٨ و ٥٩٤٠).

(٤) أخ عبدالرحمن قائد المقدمة وكان عبدالرحمن أسن منه، مختلف فى صحبته وقد ذكره البخارى فى الصحابة، وكان يقال له سلمان الخيل ذلك أنه بلى أمر الخيول (الفرسان) أيام عمر، وهو أول من فرق بين الخيل العتاق الأصيلة والخيل الهجين المختلطة فى العطاء، فقد اتخذ عمر فى كل ناحية خيولاً على قدره من فائض مال بيت المال تكون احتياطاً للحوادث الطارئة، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة، وهو أول من استقضى على الكوفة وكان رجلاً صالحاً يحج كل سنة. قال أبو وائل: «اختلفت إلى (ترددت على) سلمان بن ربيعة أربعين صباحاً فلم أجد عنده فيها خصماً». وحين نظم سعد جيش القادسية فى شراف جعل سلمان على الفرسان. وقد شهد فتوح الشام مع أبى أمامة الباهلى ثم سكن العراق. وفى القادسية حاول بضع وثلاثون كتيبة من المجوس أن تصمد للمسلمين فتصدى لهم أمثالهم، وكان كنارى قائد فرسان رستم أمام سلمان فقتله سلمان، وأبصرهم تحت راية لهم قد حفروا لها وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم وقتلهم. وكان سلمان حقاً فارس المسلمين بالقادسية، فكان يقال لسلمان: «أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور». وهو الذى ولى قسمة الغنائم بالمدائن وبجلولاء. وفى ٢٤هـ جاشت الروم فأمد عثمان أهل الشام بثمانية آلاف من العراق =

وبعث سراقة[1] أمامه عبدالرحمن بن ربيعة ثم خرج فى أثره. فلما اجتازوا أرض آذربيجان وتقدموا نحو الباب التقوا ببكير بن عبدالله وتقدموا جميعاً على التعبئة المذكورة. كذلك بعث عمر إليهم بحبيب بن مسلمة مدداً من الجزيرة وجعل زياد بن حنظلة مكانه على الجزيرة. وكان ملك الباب يومئذ شهربراز، وهو رجل من أهل فارس، فلما اقترب عبدالرحمن كتب إليه شهربراز[2] يستأمنه على أن يأتيه، فأجابه عبدالرحمن إلى ما طلب، فجاء شهربراز وقال:

«إنى بإزاء عدو كَلِب وأمم مختلفة، لا ينسبون إلى أحساب، وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء، ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان، ولست من القبج فى شىء ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى، فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وميلى معكم وبارك الله لنا ولكم، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم».

قال عبدالرحمن: «فوقى رجل قد أظلك فسر إليه».

وبعث به إلى سراقة وعرض عليه ما عرضه على عبدالرحمن، أن تكون قواته مع المسلمين فى الدفاع عن تلك التخوم ضد الأمم التى وراءهم وأن يعفوا من الجزية. فقال سراقة:

«قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض (للدفاع)».

فقبل شهربراز ذلك منه وصارت سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين، فمن استنفر منهم للحرب وضعت عنه الجزية، فإنها إلى جوار كونها ضريبة سيادة فهى ضريبة دفاع.

= عليهم سلمان بن ربيعة، فدخلوا أرض الروم وشنوا الغارات وسبوا وافتتحوا الحصون.

روى عنه أنه قال: «قتلت بسيفى هذا مائة مستلئم كلهم يعبد غير الله ما قتلت رجلاً منهم صبراً (سجيناً أو أسيراً)». روى عنه عدى بن عدى والصبى بن معبد وأبو وائل شقيق بن سلمة وأبو ميسرة وأبو عثمان النهدى وسويد بن غفلة، من كبار التابعين، قتل فى بلنجر من أرمينيا سنة ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ زمن عثمان.

(القادسية - الإصابة ٣٣٥٤ - الاستيعاب ٢ / ٥٩ - أسد الغابة ٢١٤٦ - سير أعلام النبلاء ٢ / ٧٧ - وانظر أيضاً الحاشية (٢) صفحة ٧٩ من هذا الكتاب).

(١) الطبرى ٤ / ١٥٥ س ش س.

(٢) كان من سلالة شهربراز الملك الذى أذل بنى إسرائيل وأجلاهم عن الشام.

وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه واستحسنه، وطلب الأرمن من سراقة كتابا فكتب لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان.

٢- أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا.

٣- وعلى أهل أرمينية والأبواب، الطُّرَّاء منهم والتُّناء (الرحل والمقيمين) ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً.

٤- على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر (التجنيد) والحشر عوض من جزائهم.

٥- ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً، فإن حشروا وضع ذلك عنهم، وإن تركوا أخذوا به.

شهد عبدالرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبدالله..

وكتب مَرْضِيّ بن مُقَرِّن وشهد».

بعث سراقة بعد ذلك:

١- بكير بن عبدالله إلى موقان.

٢- حبيب بن مسلمة إلى تفليس.

٣- حذيفة بن أسيد إلى جبال اللان.

٤- سلمان بن ربيعة إلى وجه آخر (لم نقف على تحديده من المصادر).

وكتب سراقة بالفتح وبالوجوه التى وجه إليها هؤلاء القادة إلى عمر بن الخطاب. فلما بلغ الكتاب إلى عمر رأى أنه أمر لا يستتم من حيث أن تلك اللواءات لم تكن من القوة والمؤونة بحيث تفتح ما وجهت إليه، وقد كان أعداؤهم فى جند عظيم وكان شعب فارس فى كل مكان آخر يعلق عليهم كل آماله وينتظر ما يصنعون، فإن انتصروا فى أرمينيا بعثوا الحرب فى سواها، وإن خسروا معركتها وضعوا أوزار الحرب.

وهم كذلك، توفى سراقة بن عمرو وقد استخلف عبدالرحمن بن ربيعة، وقد مضى هؤلاء القواد بقواتهم إلى ما كلفوا به، ولم يفتح أحد منهم ما وجه إليه فيما عدا بكير بن عبدالله فقد فض موقان ثم اتفقوا على الجزية، وكتب لشعب موقان كتاباً بذلك:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١- هذا ما أعطى بكير بن عبدالله أهل موقان من جبال القبج، الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم.

٢- على الجزاء دينار على كل حالم (بالغ) أو قيمته.

٣- والنصح (الإخلاص).

٤- ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته.

٥- فلهم الأمان ما أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء، والله المستعان.

٦- فإن تركوا ذلك واستبان منه غش فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم، وإلا فهم متمالئون.

شهد الشماخ بن ضرار[1]، والرسارس بن جنادب، وحَملة بن جُوَيّة

(١) الشماخ من فحول الشعراء المخضرمين، مُجيد فى شعره من طبقة عالية يتساوى مع لبيد والنابغة وأخيه مزرد. مات أبوه وتركه وأخويه مزرد (وكان أسن من الشماخ) وجَزّء، تركهم صبياناً فكانوا جميعاً شعراء. واسم الشماخ معقل بن ضرار بن حرملة بن سنان بن أمامة بن عمرو بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث الغطفانى، وأمه معاذة بنت بجير بن خلف بن إياس أنمارية من بنات الخوشب ويقال إنهن أنجب نساء العرب. ولقد قال الحطيئة فى وصيته: «أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان».

وكان شديد متون الشعر صحيح الكلام. ومما يتمثل به من قوله:

ليس بما ليس به بأس باس　　　ولا يضر البر ما قال الناس

وكان من أوصف الناس للحمر وللقوس.. وهو أحد من هجا عشيرته وهجا أضيافه ومَنَّ عليهم بالكرم. وقد هوى الشماخ امرأة اسمها كلبة بنت حوأل وغاب فتزوجها أخوه جزء فلم يكلمه بعدها وماتا متهاجرين.

أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه. وفى رواية أنه هو الذى قتل الحطم زعيم ردة البحرين. قدم الشماخ المدينة فلقيه عرابة بن أوس فسأله عما أقدمه فقال: أردت أن أمتار لأهلى، وكان معه بعيران فحملهما =

(الكنانى)[1]، وكتب سنة إحدى وعشرين»[2].

وفى غزوة موقان توفى الشماخ الشاعر وأحد شهود الكتاب، وفيها أيضاً قال بيته المشهور:

وغنّيت عن خيل بموقان أسلمت　　　بُكَيْر بنى الشّدّاخ فارسَ أطلال

= له عرابة براً وتمراً وكساء، فخرج من المدينة وامتدحه بقصيدته المشهورة التى فيها:

رأيت عرابة الأوسى يسمو　　　إلى الخيرات منقطع النظير

إذا ما راية رفعت لمجد　　　تلقاها عرابة باليمين

مر بنا ذكره فى «القادسية» فكان من الفرسان الأبطال وكان من مقدمة سعد بقيادة زهرة بن الحوية وكان فى سرية بكير بن عبدالله الليثى التى أغارت على السيلحين فأسرت أخت مرزبان الحيرة من زفتها، ويبدو أنه من يومها وهو يجاهد تحت قيادة بكير. وكان ممن كلفهم سعد يوم أرماث أن يخطبوا الناس ويحمسوهم قبل المعركة. وقد نشرت دار المعارف ديوانه وكتاباً عنه.

(الإصابة ١٩٢٤ و٣٩١٨ و٦٤٠٥ و٧٩٢١ - أسد الغابة ٤٨٥١ - الأغانى ٣ - البخلاء ٢ / ١٣٤ - البيان والتبيين ٤ / ٣٤ - فتوح البلدان ٨١٨ - الطبرى ٢ / ٥٠٥ - ٣ / ٤٩٣ و٥٣٣ - ٤ / ١٥٧).

(١) حملة بن جوية الكنانى: ذكره ابن حجر فيمن أدرك النبى (ﷺ) ولم يرد أنه رآه. (الإصابة ٢٠٠٨)، وهو أحد الذين بعثهم سعد بن أبى وقاص إلى يزدجرد ليدعوه إلى الإسلام (القادسية ٦١).

(٢) أورد الطبرى هذه الوقائع من أحداث عام ٢٢هـ، ونذهب إلى أنه الأرجح.

غزو الترك

أقر عمر استخلاف سراقة لعبدالرحمن بن ربيعة على الباب وأمره بغزو الترك . فسار عبدالرحمن بجيشه حتى اجتاز الباب ، فقال له شهربراز : «ماذا تريد أن تصنع ؟» قال : «أريد بلنجر»[1] .

قال : «إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب» .

قال : «لكنا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم فى ديارهم ، والله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الروم» .

قال شهربراز : «وما هم ؟»

قال عبدالرحمن : «أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا فى هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرُّم فى الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرّمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ولايزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يُلْفَتوا عن حالهم بمن غيرهم» .

فغزا عبدالرحمن بلنجر فى عهد عمر دون أن تصاب قواته بأية خسائر حتى قال عنها الرواة إنها «غزاة لم تئم فيها امرأة ولم ييتم فيها صبى» . وأوغل عبدالرحمن فى أرض الترك حتى بلغت خيله البيضاء على مسافة مائتى فرسخ من بلنجر (أكثر من ١١٠٠ كيلو متر) .
وكانت العوامل النفسية من أسباب نجاح المسلمين فى ذلك الغزو ، فكما رأينا كيف كانت نفسيات المسلمين على ما وصف عبدالرحمن لشهربراز ، كانت نفسيات الترك على النقيض .
روى سلمان[2] بن ربيعة فى ذلك فقال : «لما دخل عليهم عبدالرحمن بن ربيعة حال الله بين الترك والخروج عليه ، وقالوا ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت . فتحصنوا منه وهربوا . فرجع بالغنم والظفر . وذلك فى إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات من زمن عثمان ، ظفر كما كان يظفر ...» .

---

(١) بناها كسرى أنو شروان . وبلنجر والبيضاء من مدن بحر قزوين (ابن خرداذبة ١٢٣ و ١٢٤) .
(٢) الطبرى ٤ /١٥٨ س ش س عن الغصن بن القاسم عن رجل عن سلمان بن ربيعة .

ليس لدينا خطوط واضحة لمسار عبدالرحمن فى ذلك الغزو ، ولكن الذى يبدو لنا أنه ساير بحر الخزر (قزوين) فدار حوله من جهة الشمال ، فإن بعض الروايات تعود بنا فى مسار ذلك الجيش إلى جرجان ، وهى إلى الجنوب الشرقى لبحر قزوين .

ويمضى سلمان فى روايته التى بدأناها فيقول :

«... حتى إذا تبدل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد ، فغزاهم بعد ذلك ، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم (المسلمون) لا يموتون ! قال : انظروا ، وفعلوا فاختفوا لهم فى الغياض ، فرمى رجل منهم رجلاً من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك ، فاقتتلوا فاشتد قتالهم» . وقاتل عبدالرحمن حتى قتل وانكشف الناس وأخذ الراية سلمان بن ربيعة وخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسى على جيلان فقطعوها إلى جرجان ، وقد أثبتت هذه الحادثة للترك أن وهمهم الأول كان خاطئاً وأن المسلمين بشر يموتون كما يموت البشر فاجترءوا بعدها . ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبدالرحمن وتعظيمة فهم يستسقون به (يقول الطبرى حتى الآن - يعنى عصره) .

الباب الثامن

انسياح من البصرة

جيوش البصرة

لعلنا لاحظنا أن جيوش الكوفة قد اختصت بغزو أقاليم الشمال والشمال الغربى للدولة، أما الشرق والجنوب الشرقى فقد كان من نصيب جيوش البصرة التى كانت كالآتى:

١- مجاشع بن مسعود السلمى إلى أردشير خرة وسابور.

٢- سارية بن زنيم الكنانى إلى فسا ودرابجرد.

٣- عثمان بن أبى العاص - من البحرين - إلى إصطخر.

هذه الجيوش الثلاثة اقتسمت فتح إقليم فارس.

٤- سهيل بن عدى الأنصارى، وعبدالله بن عبدالله بن عتبان الأنصارى مدد له من أصبهان إلى كرمان.

٥- عاصم بن عمرو التميمى إلى سجستان.

٦- الحكم بن عمرو التغلبى ومعه شهاب بن مخارق وسهيل بن عدى وابن عتبان أمداد له إلى مكران.

٧- الأحنف بن قيس فى أثر يزدجرد إلى خراسان.

فتح فارس

وضح لنا مما سبق من دراسة ابتداء من «الطريق إلى المدائن» إلى «القادسية» ثم إلى هذا الكتاب، أن هذه البلاد التى يغزوها المسلمون ويقتطعون منها قطعة بعد قطعة، لم تكن دولة بالمعنى البسيط وإنما كانت إمبراطورية تضم دويلات أو ولايات تخضع للحكم الفارسى. ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول: إن فارس كانت هى الدولة التى قام فيها ملك بن ساسان ثم ضمت إليها ما جاورها مما ورد ذكره فى هذه الفتوح.. الأهواز والعراق والجزيرة وآذربيجان وأرمينية والجبال والرى وطبرستان وكرمان وسجستان وخراسان. وبذلك كان ملك فارس يلقب بملك الملوك (شاهنشاه).

والآن - فى عام ٢٣هـ = ٦٤٤م - تتجه جيوش المسلمين نحو أصل هذه الإمبراطورية... إلى أرض فارس بأقاليمها... إلى أرض الشعب الذى حكم الشعوب المجاورة أربعة قرون. ولقد كانت فارس بحكم طبيعتها الجبلية وبحكم ما تركز فيها من قلاع واستحكامات، من أحصن البلاد التى تعرضت لغزو المسلمين. يقول الاصطخرى[1]: «وأما القلاع بها فإنه يقال فيما بلغنى أن لفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة مفردة فى الجبال وبقرب المدن وفى المدن، ولا يتهيأ تقصيها إلا من الدواوين، وكذلك ما ذكرناه من المدن المحصنة فإنى لا أقدر على تقصيها...». ولقد كانت فارس خمسة أقاليم أو كور كما كانوا يسمونها:

١- أَرَّجان، وهو أولها من جهة الأهواز وكان ثالث أقاليم فارس من حيث الاتساع بعد إصطخر وأردشيرخرة، وكانت عاصمته مدينة أرجان ويقال عنها أيضاً أرغان وهى على نهر طاب، وربما كانت مكان مدينة بهبهان اليوم أو قريبة منها.

٢- أَرْدَشِيرخُرَّة على ساحل الخليج قريباً من البصرة، وكانت عاصمتها مدينة جور التى بناها أردشير فكانت دار ملكه وكان لجور حصن، وقد تغير اسمها بعد ذلك إلى فيروز أباد فى عهد عضد الدولة البويهى وإلى الآن. ومن مدن هذا الإقليم شيراز، غير أن شيراز محدثة فى العصر الإسلامى ولم تكن فى عصر الفتح. ومن حيث الاتساع فأردشيرخرة ثانى أقاليم فارس بعد إصطخر.

(١) المسالك والممالك ٧٣.

٣- درابجرد وفسا، وعصامتها مدينة درابجرد المنسوبة إلى الملك دارا الذى ابتناها وكان لها حصن، ولكن فسا كانت أكبر منها وأكثر عمراناً وكان لها حصن أيضاً.

٤- إصطخر، وكانت أوسع كور فارس وأكثرها مدناً ونواحى.

٥- سابور، وهى أصغر كور فارس وتشتهر باسم شهرستان، وعاصمتها سابور نسبة إلى الملك سابور الذى بناها وكان لها سور.

وتحركت اللواءات التى بعثها عمر بن الخطاب من قاعدة البصرة إلى وجهاتها وأهدافها. كانت القوات الفارسية محتشدة فى تَوَّج[1]. لقد اتجه العلاء بن الحضرمى إلى غزوها بحراً من قبل دون إذن عمر فى تلك الحملة التى لم تكلل بالنجاح، وكان نجاحها أن تمكن المسلمون من إنقاذها بعد أن تحطمت سفنها وحُصرت بأرض فارس.. ذكرناها من قبل بالباب الخامس تحت عنوان «عملية طاوس». فى توج ذلك المكان الساحلى احتشدت قوات فارس فى انتظار التحرك الإسلامى. ونهج المسلمون نهجاً مغايراً لما اعتاده الفرس منهم من قبل... لم يوجهوا جيوشهم نحو توج! وإنما سار كل جيش من جيوشهم إلى وجهته تاركين حشود الفرس فيها. فكانت كالآتى:

١- مجاشع بن مسعود إلى أردشيرخرة وسابور.

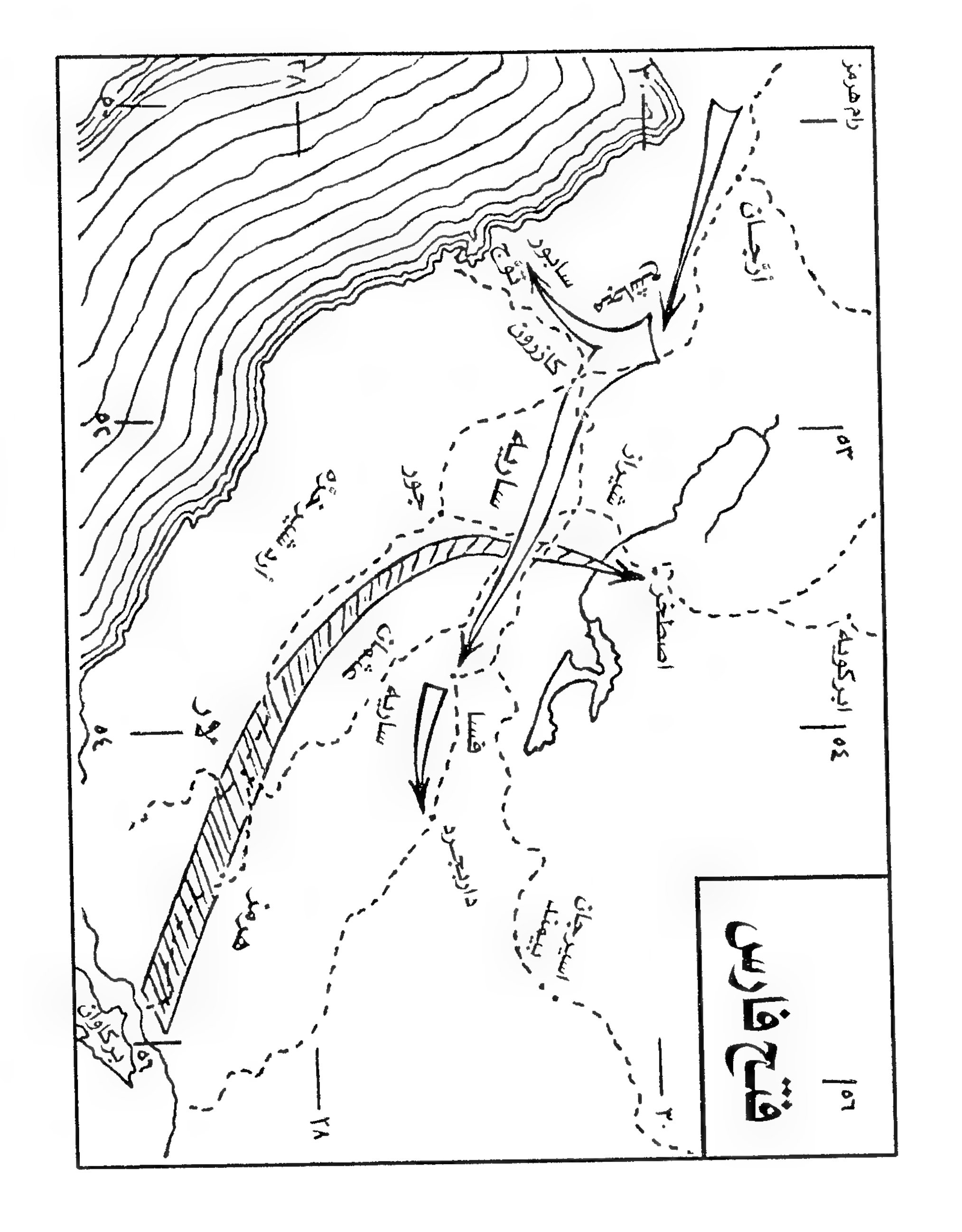
٢- عثمان بن أبى العاص إلى إصطخر.

٣- سارية بن زنيم الكنانى إلى فسا ودرابجرد.

أما إقليم أَرَّجان فقد كان فى طريقهم جميعاً، ويبدو أنهم قد اجتازوه جميعاً دون لقاءات أو معارك. وفى رواية[2] أن أبا موسى الأشعرى وعثمان بن أبى العاص فتحا أرجان صلحاً على الجزية والخراج.

(١) الطبرى ٤ / ١٧٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.

(٢) فتوح البلدان ٩٥٦.



خريطة (١٩) فتوح فارس

فتح توج

وبلغت تلك الأخبار إلى القوات الفارسية فى توج فكان لها أثرها الطبيعى... انفض تجمعهم واتجهت كل وحدة من وحداتهم إلى مواطنها لتذود عنه.. تماماً كما حدث فى برس بعد القادسية حين وجه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة، فأجبر هرمزان أن يتخلى عن معركة المدائن واتجه بجند الأهواز ومهرجانقذق إلى الأهواز ليحمى دياره. والآن يحدث نفس الشىء، فكان ذلك أول هزيمة الفرس وبه تفرقت جموعهم وتشتتت حشودهم وتشاءموا هم أنفسهم بذلك، وكما نعلم إنهم كانوا أهل تشاؤم وتفاؤل وكان ذلك يؤثر فى معنوياتهم وسلوكهم الأثر كله. من تلك الألوية التى اتخذت سبلها فى أرض فارس كان مجاشع بن مسعود السلمى يسير بلوائه نحو إقليمى سابور وأردشيرخرة، والتقى فى توج بمن بقى بها من الفرس.. ولا تسعفنا الروايات هنا بتفاصيل تلك المعركة، وإنما تقول الرواية المقتضبة: «فاقتتلوا ما شاء الله، ثم إن الله عز وجل هزم أهل توج للمسلمين وسلط عليهم المسلمين فقتلوهم كل قتلة، وبلغوا منهم ما شاءوا، وغنمهم ما فى عسكرهم فحووه، وهذه توج الآخرة، ولم يكن لها بعد شوكة... ثم دعوا إلى الجزية والذمة، فراجعوا وأقروا، وخمس مجاشع الغنائم وبعث بها، وَوَفَدَ وفداً. وقد كانت البشراء والوفود يجازون وتقضى لهم حوائجهم لسنة جرت بذلك من رسول الله ﷺ».

أمانة

عن عاصم بن كليب عن أبيه قال[١]:

«خرجنا مع مجاشع بن مسعود غازين توج، فحاصرناهم وقاتلناهم ما شاء الله، فلما افتتحناها وحَوَينا نَهْبَهَا نهباً كثيراً، وقتلنا قتلى عظيمة، وكان علىَّ قميص قد تخرق، فأخذت إبرة وسلكاً وجعلت أخيط قميصى بها. ثم نظرت إلى رجل فى القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه فلبسته، فلما جمعت

(١) الطبرى ٤ / ١٧٥ س ش س عن محمد بن سوقة عن عاصم بن كليب عن أبيه.

الرثة، قام مجاشع خطيباً فحمد الله وأثنى عليه فقال: أيها الناس لا تغلوا، فإنه من غل جاء بما غل يوم القيامة. ردوا ولو المخيط. فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته فى الأخماس».

حملة بحرية

وكان عثمان بن أبى العاص الثقفى عامل عمر على البحرين بعد العلاء بن الحضرمى. ومن البحرين بعث عثمان أخاه الحكم فى البحر فى جيش كبير من عبدالقيس والأزد وتميم وبنى ناجية وغيرهم، فغزا جزيرة ابر كاوان ومنها اتجه إلى توج فى أرض أردشيرخرة (ومعناها بهاء أردشير)[1]. وفى رواية أن عثمان بنفسه كان على رأس تلك الحملة وأنه نزل توج وبنى بها المساجد وجعلها داراً للمسلمين وأسكنها بنى عبدالقيس وغيرهم، فكان يغير منها على أرجان وهى متاخمة لها. ولقد مر بنا أن فتح توج قد قام به مجاشع بن مسعود السلمى براً من البصرة، ومعنى هذا أن المسلمين غزوا أردشيرخرة براً وبحراً. وتختلف الروايات فى تحديد تاريخ ذلك، فبعضهم يجعلها عام ١٩هـ، وبعضهم يجعلها من أحداث عام ٢٣هـ. ونذهب إلى أن خلطاً وقع فى الروايات وأن ما ذكر على أنه وقع عام ١٩هـ إنما كان ينصرف إلى عملية طاوس.

(١) فتوح البلدان ٩٥٤.

فتح اصطخر

مدينة اصطخر

جاء بدائرة المعارف الإسلامية أن مدينة اصطخر كانت أهم مدن الإقليم بل كانت هى مدينة فارس، تقع على خط عرض ٢٩° - ٥٠َ شمالاً وخط طول ٥٣° شرقاً فى وادى بُلْوَر أو مرغاب الضيق (ويسمى أيضاً وادى سيوندرود) الذى لا يلبث أن يدخل فى الأراضى الخصبة، وهو الآن وادى مَرْوْدَشت الذى تغمر المياه بعض أجزائه.

كانت اصطخر مقر الزعماء الوطنيين قبل اضمحلال دولة الاشكانيين بعشرات السنين، كما يعتبر إقليم اصطخر أيضاً موطن الساسانيين، وكان ساسان جد أردشير الأول سادناً لبيت نار الآلهة أناهيذ فى اصطخر، وهو المعبد الذى يقال إن نيرانه انطفأت فجأة ليلة ولد رسول الله ﷺ. واستمرت اصطخر مركزاً دينياً بعد قيام الدولة الساسانية، وكان ملوكهم يعلقون رءوس أعدائهم ومن بينهم شهداء النصارى فى هذه المدينة التى اعتبرت العاصمة الرسمية للدولة وإن ظلت طيسفون (المدائن) هى العاصمة الحقيقية، وذلك بسبب أن إقليم فارس البعيد كان يصعب الوصول إليه ولا يصلح كثيراً لأن يكون مركزاً مناسباً لدولة قوية. ويبدو أن البيزنطيين لم يعرفوا شيئاً عن اصطخر، بل كانوا يظنون طيسفون هى العاصمة الوحيدة للساسانيين. ولم يكن لإصطخر شأن فى التاريخ فلم تذكر إلا من حين لآخر.

وبعد أن فتح المسلمون العراق غزوا إقليم فارس وقاوم سكان اصطخر بصفة خاصة مقاومة عنيفة. وكانت محاولة العلاء بن الحضرمى والى البحرين عام ١٩هـ للاستيلاء على اصطخر هى أولى المحاولات، ولكنها فشلت لقلة قواته ولتصرفه دون أمر عمر، فحصرت قواته حتى تحرك جيش البصرة لإنقاذه ومكن جيش العلاء من الانسحاب إلى البصرة بعد أن تحطمت سفنه. ولم تقع اصطخر فى أيدى المسلمين إلا عام ٢٣هـ على يدى أبى موسى الأشعرى وعثمان بن أبى العاص. ثم سار سكانها وقتلوا واليها العربى وتمكن والى البصرة عبدالله بن عامر من إخضاعها مرة أخرى بعد قتل عدد كبير من الفرس فى ٢٨ أو ٢٩هـ. وظلت

لإصطخر أهميتها حتى بنيت شيراز عام ٦٤هـ على مسيرة يوم إلى الجنوب منها. ومنذ القرن الثالث الهجرى – التاسع الميلادى – اضمحلت اصطخر بشكل محسوس. وقد وصفها الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى فكانت تشغل مساحة ميل عربى مربع وكانت أسوارها مهدمة ...

وقد كانت بعض نقود الساسانيين تسك فى اصطخر، وظلت تسك بها حتى عام ٧٠هـ. ويبلغ محيط أطلال اصطخر حالياً ثمانية أو تسعة كيلو مترات يقسمها وادى بُلْوَر – وهو قناة صغيرة – إلى قسمين متساويين تقريباً، ويبدو أن أهم أجزائها هو الذى قامت فيه قرية حاجى آباد. وفى جنوب اصطخر على مرحلة ساعة منها على الشاطئ الجنوبى لنهر بلور يوجد تخت (عرش) جمشيد، كما يوجد بشمالها بحوالى كيلو مترين نقش رستم على الشاطئ الشمالى لهذا النهر، وهما من أهم الآثار الساسانية.

ويوجد على مسيرة ثلاث أو أربع ساعات إلى الشمال الغربى من اصطخر ثلاث حصون مقامة على رءوس الجبال الصخرية، وبين كل واحد منها والآخر ما بين كيلو مترين وثلاثة كيلو مترات. وهذه الحصون الثلاثة تقع على خط مستقيم، وتسمى جميعاً قلعة أو «كُوَة اصطخر» ومعناه جبل اصطخر ... وأشهر الحصون الثلاثة لقلعة اصطخر ميان قلعة أى الحصن الأوسط.. وكانت هذه الحصون المنيعة تعد مراكز حربية هامة تسيطر على الأقاليم المجاورة. وقد كان ولاة إقليم فارس فى عهد الخلفاء يقيمون غالباً فى هذا الحصن لسهولة الدفاع عنه لمناعة موقعه، وقد صمد فيه زياد بن أبيه طويلاً لمعاوية بعد وفاة على. وكانت هناك بركة طبيعية كبيرة بهذه المنطقة تكفى لشرب سكانها. وكان الحصن يقوم على هضبة قطرها ٣٠٠ ياردة وترتفع ١٣٠٠ قدم عن سطح البحر. ،قد بقى حتى اليوم من التحصينات القديمة الأسوار القوية التى شيدت من صميم الصخر (انتهى ما أخذناه عن دائرة المعارف الإسلامية).

سقوط اصطخر

هبطت الحملة البحرية التى بعث بها عمر من البحرين وقوامها قبائل عبد قيس من ربيعة بقيادة عثمان بن أبى العاص الثقفى، سواحل أردشيرخرة وسار عثمان بحملته متجهاً نحو اصطخر فالتقى بجيشها فى جور وأوقع به هزيمة فادحة حتى صار بين قتيل وشريد هارب. ثم خضع الهربذ (رجل الدين للإقليم) وكل من هرب على أداء الجزية والدخول فى ذمة

المسلمين، وذلك بعد أن راسلهم عثمان على ذلك. وجمع عثمان الغنائم ففرقها على الجند، ويذكر الرواة عنهم أنهم عَفُّوا عن النهاب وأدّوا الأمانة واستدقوا الدنيا (استصغروها)، فبعث الأخماس إلى عمر وخطب فى جنده[1] فقال: «إن هذا الأمر لايزال مقبلاً ولايزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يَغُلّوا، فإذا غلوا رأوا ما ينكرون ولم يسد الكثير مسد القليل اليوم. إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفهم ووفر أمانتهم فاحفظوها، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، فإذا فقدتموها جدد لكم فى كل يوم فقدان شىء من أموركم».

وكان شهرك هو قائد الفرس فى تلك الموقعة وقد قتل فيها.

وتختلف الروايات بعض الشىء عن بعضها فى تفاصيل الوقائع وفى تحديد أوقاتها، ونرى أن السبب هنا هو تداخل الروايات مع ما كان من حملة العلاء بن الحضرمى فى عملية طاوس.

(١) الطبرى ٤ / ١٧٥ س ش س عن محمد بن سوقة عن عاصم بن كليب عن أبيه.
الطبرى ٤ / ١٧٦ س ش س عن أبى سفيان عن الحسن.

فتح فسا ودرابجرد

(من فارس)

وكانت وجهة سارية بن زنيم الكنانى الدؤلى إلى فسا ودرابجرد، فسار إليها[1] حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم فطلبوا المدد ممن وراءهم فجاءتهم أمداد من الشمال من أكراد فارس وجاءوه من كل جانب، ووجد المسلمون أنفسهم أمام أمر عظيم وحشد كبير. وفى المدينة حدث أمر عجيب ذكرته سلاسل متعددة من الرواة أثار كثيراً من تعليقات المعلقين عن الإحساس عن بعد، ذلك أن عمر بن الخطاب كان نائماً فرأى فى منامه موقف جيش سارية بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم وإن لجأوا إلى جبل من خلفهم استطاعوا أن يسندوا إليه ظهرهم فيواجهوا عدوهم من وجه واحد، كما رأى عمر ما يواجهه المسلمون من أعداد غفيرة من الفرس، وذلك فى ساعة معينة من النهار. فلما كان من غده نادى: «الصلاة جامعة»، فاجتمع المسلمون بالمسجد، حتى إذا كان بالساعة التى أريها فى منامه خرج عمر إليهم فقال:

«يا أيها الناس، إنى رأيت هذين الجمعين» (وأخبر المسلمين بما رأى من حالهما)، وانفعل عمر فى حديثه فصاح وهو يتحدث: «يا سارية الجبل، الجبل!» ثم قال: «إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم». وبعضهم يروى أن ذلك كان وعمر يخطب الجمعة، فى نفس تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل، وقاتلوا عدوهم من وجه واحد فكتب لهم النصر، وكتبوا بذلك إلى عمر. لاتسعفنا المصادر هنا بتبيان ذلك الجبل ولا البلد التى فتحها سارية فى تلك الموقعة.

وأصاب المسلمون مغانم كان فيها سفط فيه جوهر، فاستوهبه سارية من المسلمين إلى عمر فوهبوه له. فبعث به وبأخبار الفتح مع رجل[2]، وكما مر بنا أن رسل ووفود البشارات كانوا

(١) الطبرى ٤ / ١٧٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.
الطبرى ٤ / ١٧٨ س ش س عن أبى عمر دثار بن أبى مشبيب عن أبى عثمان وأبى عمرو بن العلاء عن رجل من بنى مازن.

(٢) فى رواية أخرى أوردها الطبرى ٤ / ١٧٨ - ١٩٠ عن عبدالله بن كثير العبدى عن جعفر بن عون عن أبى جناب عن أبى المحجل الردينى عن مخلد البكرى وعلقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة أن هذا الرجل كان من جند سلمة بن قيس الأشجعى، غير أنه ذكر القصة فى موضع آخر هو قتال كان بين سلمة وبين الأكراد. والروايات على هذا الذى أخذنا به أكثر.

يجازون وتقضى لهم حوائجهم. فقال سارية لذلك الرسول: «استقرض ما تبلغ به وما تخلفه لأهلك على جائزتك». وقدم الرجل البصرة فاقترض على أن يسدد قرضه من جائزته المرتقبة، ثم قدم المدينة على عمر فوجده يطعم الناس ومعه عصاه التى يزجر بها بعيره كما يصنع الراعى ويدور على القصاع يقول: يا يرفأ زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً زد هؤلاء مرقة، فقصد له ولم يفاتحه فيما جاء به حتى يفرغ مما هو فيه، فأقبل عليه عمر وبيده عصاه فقال: «اجلس»، فجلس فى أدنى الناس. يقول سلمة: «فإذا طعام فيه خشونة، طعامى الذى معى أطيب منه»، حتى إذا أكل القوم قال عمر: «يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر»، وانصرف عمر فقام الرسول يتبعه حتى باب داره، فظن عمر أن الرجل لم يشبع فأدخله داره، فلما جلس جىء لعمر بغذائه وكان خبزاً وزيتاً وملح جريش لم يُدق، وخاطب عمر امرأته وهى فى حجاب بيتها فقال: «يا أم كلثوم.. ألا تخرجين يا هذه فتأكلين؟» قالت: «إنى لأسمع عندك حس رجل»، قال: «نعم ولا أراه من أهل البلد»، قالت: «لو أردت أن أبرز للرجال اشتريت لى غير هذه الكسوة ولَكَسَوْتنى كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته»، فقال: «أو ما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت على وامرأة أمير المؤمنين عمر؟» قالت: «ما أقل غناء ذلك عنى!» فترك عمر حديثها والتفت للرجل وقال له: «ادْنُ فلو كانت راضية لكان أطيب مما ترى». فأكلا حتى إذا فرغ عرفه بنفسه، فقال: «رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين».

قال عمر: «مرحباً وأهلاً». ثم أدناه حتى مسَّت ركبته ركبته، وراح كعادته يسأله عن أحوال المسلمين وعن سارية، فأخبره الرجل.. وذكر له: «سمعنا يا سارية الجبل، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا».

قال عمر: «حدثنى عن المهاجرين كيف هم؟» قال: «هم يا أمير المؤمنين كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم»، قال: «كيف أسعارهم؟» قال: «أرخص أسعار»، قال: «كيف اللحم فيهم فإنها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها»، قال: «البقرة فيهم بكذا والشاة فيهم بكذا يا أمير المؤمنين... إلخ». ثم ذكر له قصة السفط الذى جاء له به، فنظر إليه عمر فلما رأى ما به من فصوص حمر وصفر وخضر انتفض قائماً ثم جعل يده فى خاصرته ثم صاح به: «لا ولا كرامة حتى تقدم على ذلك الجند فتقسمه بينهم. لا أشبع الله إذن بطن عمر»، وطرده عمر فظن نساء البيت أن الرسول يريد أن يغتال عمر، فجئن إلى الستر ينظرن من ورائها. فقال عمر: «كف ما جئت به؟ يا يرفأ جَأْ عنقه!».

يقول الرجل: «فأنا أصلح سفطى وهو يجأ عنقى».

قال الرجل: «يا أمير المؤمنين إنى قد انضيت إبلى واستقرضت فى جائزتى، فأعطنى ما أتبلَّغ به..» ومازال به حتى أبدله بعيراً ببعيره من إبل الصدقة وأخذ بعيره فأدخله، وقال عمر: «أما والله لئن تفرق المسلمون فى مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة». ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً حتى قدم البصرة.

هذه المعارك

بذلك تم فتح أرض فارس أم الإمبراطورية الساسانية.

والآن يحق لنا أن نتساءل: أهكذا تكون معركة فارس؟

لقد كانت جميع عملياتها معارك صغيرة إذا ما قيست بسابقاتها، فلم نجد معركة فى حجم البويب أو القادسية أو جلولاء أو نهاوند.. إلخ. ثم أين ذهبت الخمسة آلاف قلعة والمدن المحصنة التى ذكر الاصطخرى وجودها؟ ولماذا لم نشهد مقاومتها؟ نعم، لقد انتقضت بعض تلك الجهات فى أول عهد عثمان فأعادها إلى طاعة المسلمين، ولكننا نتناول الآن عملية الفتح ذاتها فيستوقف نظرنا هذا الضعف والتهافت.. لا ريب أن إمبراطورية بنى ساسان كانت تترنح من أثر اللكمات كالملاكم الذى تصيبه ضربات قاضية تلقيه أرضاً، فإذا ما حاول القيام عاد فسقط من تلقاء نفسه.

فتح كرمان

تقع كرمان إلى الشرق من فارس وإلى الجنوب من صحراء خراسان وسجستان وحدها الجنوبى بحر فارس. وقد وجه عمر إلى كرمان سهيل بن عدى الأنصارى الخزرجى من مجموعة جيوش البصرة. فكان على مقدمته النسير ابن عمرو العجلى، وكان عبدالله بن عبدالله بن عتبان قد فرغ من فتح أصبهان فبعثه عمر مدداً لسهيل، وإذ يبعث عمر عبدالله مدداً لسهيل لا يغيب عن أذهاننا أن سهيلاً وعبدالله قد عملاً معاً قبل ذلك فى فتوح الجزيرة[1] تحت قيادة عياض، كان كل منهما يقود لواء، سهيل إلى الرقة وابن عتبان إلى نصيبين، ثم سارا معاً إلى حران. والآن يعود القائدان المتعارفان إلى العمل معاً فى فتح ذلك الإقليم النائى.

لم يكن أهل كرمان يجهلون ما أحرز المسلمون من انتصارات حتى بلغوا أرضهم، ولا شك أنه كان لذلك أثره النفسى عليهم، وقد ضاعف هذا الأثر أن عثمان بن أبى العاص الثقفى حين خرج بحملته البحرية من البحرين إلى توج أن مر بجزيرة أبركاوان[2] (أو ابن كاوان) بالقرب من الساحل، وتبعد عن هرمز بمقدار سبعة فراسخ[3]، وكان بها مرزبان كرمان فى غير قواته فقتله عثمان فوهن ذلك قلوب شعبه. علم أهل كرمان بزحف المسلمين إليهم ولا بد أنهم كانوا يتوقعونه، فاستعانوا بعناصر من جبال القفس بجنوب كرمان فأعانوهم.. يقول عنها الاصطخرى[4] فى القرن الرابع الهجرى: «... ويقال إنها سبعة أجبل وبها نخيل كثير وخصب من زرع وضرع، وهى جبال منيعة ولكل جبل رئيس، وهم ممتنعون وللسلطان عليهم جراية يستكفهم بها، وهم مع ذلك يقطعون الطريق فى عامة كرمان إلى مفازة سجستان وإلى حد فارس، وهم رجالة لا دواب لهم! والغالب على خلقتهم النحافة والسمرة وتمام الخلق...».

---

(١) يرجع إلى فتح الجزيرة ١٣٢ من هذا الكتاب.
(٢) فتوح البلدان ٩٦٨.
(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٦٢.
(٤) المسالك والممالك ٩٨.

والتقى النسير بهذا الحشد عند أول حدود إقليمهم فهزمهم وقتل مرزبانهم[1]، وسار سهيل بن عدى من طريق القرى[2] إلى جيرفت، فى حين تقدم عبدالله بن عبدالله من مفازة (صحراء) شير. وكانت غنائمهم عظيمة من الإبل والغنم.

ويبدو أن فتح كرمان لم يكن تاماً، إذ إننا نجد أخباراً أخرى بأن عبدالله ابن عامر لما توجه لفتح خراسان عام ٣٠هـ ولى[3] مجاشع بن مسعود السلمى كرمان، ففتح بيمند عنوة وأعطى أماناً لأهلها. ويذكر البلاذرى أن بها قصرًا يعرف بقصر مجاشع كأنما هو علامة على صدق هذه الرواية. وتمضى الرواية بأن مجاشع فتح بروخرة (لم نستدل على موقعها) ثم حاصر سيرجان (أو شيرجان) وأهلها متحصنون فيها، ثم خرجت إليه فرسانهم فقاتلهم وغلبهم وفتحها عنوة فجلا عنها أكثر أهلها.

(١) الطبرى ٤ / ١٨٠ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.
(٢) لم نستطع التأكد بشكل قاطع من هذا الطريق.
(٣) فتوح البلدان ٩٦٨.

فتح سجستان

يذهب رواة الطبرى[1] إلى أن عاصم بن عمرو التميمى سار على رأس لوائه إلى سجستان ولحق به عبدالله بن عمير الأشجعى (من غطفان) فالتقوا بجيش سجستان على أول حدودهم فى معركة هزموهم فيها ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ومخروا أرض سجستان ما شاؤوا، ثم طلب أهل سجستان الصلح على زرنج وما احتازوا من أرض فأجابهم عاصم، واشترطوا فى صلحهم أن تكون زراعاتهم حمى لهم لا يمسه المسلمون، فكان المسلمون إذا ساروا فيها حذروا خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيلتزموا به. يقول الرواة: «فتم أهل سجستان على الخراج والمسلمون على الإعطاء، فكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً، يقاتلون القندهار والترك وأمماً كثيرة. وكانت فيما بين السند إلى نهر بلخ بحياله، فلم تزل أعظم البلدين وأصعب الفرجين وأكثرهما عدداً وجنداً حتى زمان معاوية...»

وفى الواقع إنها رواية جد مقتضبة عن فتح قطر كبير يشغل الآن أجزاء من إيران ومن أفغانستان. وللبلاذرى[2] رواية أخرى تختلف عن هذه فى جوهرها وتفصيلها، ومفادها أن الذى فتح سجستان هو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان الحارثى بتكليف من عبدالله بن عامر بن كريز حين توجه إلى خراسان سنة ٣٠هـ، وأنه سار حتى نزل الفهرج ثم قطع خمسة وسبعين فرسخاً فى المفازة ثم أتى حصن زالق قبل سجستان بخمسة فراسخ ومنها إلى قرية كَرْكُويَه على خمسة أميال من زالق، ثم نزل رستاق هيسون ثم أخذ الأدلاء إلى زرنج فسار حتى نزل هندمند وعبر وادى نوق فأتى زوشت على حوالى كيلو متر من زرنج فقاتله أهلها قتالاً شديداً فهزمهم، ثم أتى ناشروذ فهزم جيشها فمضى منها إلى شرواذ ثم حاصر زرنج حتى فتحها صلحاً.. وبعد ذلك عبر وادى سناروذ فأتى القريتين ثم عاد إلى زرنج[3].

(١) الطبرى ٤ / ١٨٠ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.
(٢) فتوح البلدان ٩٧٠ - ٩٧١.
(٣) أكثر هذه المواقع لم نتمكن من تحديدها على الخريطة. ولذلك نعتذر عن رسم خريطة لفتح سجستان، اكتفاء بالخريطة العامة، وقد حددنا موقع زرنج بها من خريطة «إقليما خراسان وقوهستان مع قسم من إقليم سجستان» - قادة فتح فارس ٢٩٠.

ولو أن روايات الطبرى بصفة عامة أكثر مدعاة إلى الثقة من روايات البلاذرى، إلا أن رواية البلاذرى هنا أكثر تفصيلاً، فضلاً عن اضطراب رواية الطبرى، فقد ذكر الطبرى فتح سجستان على يدى عاصم بن عمرو من أحداث عام ٢٣هـ، فى حين ذكر – وجاء أيضاً فى الكامل فى التاريخ لابن الأثير – أن عاصماً توفى سنة تسع عشرة من الهجرة[١].

(١) عن قادة فتح فارس ٢٨٨.

فتح مُكران

يذكر البلدانيون مُكْران من بلاد السند (باكستان اليوم)، ولكن جانباً منها ضمن أراضى إيران بحدودها الحالية. وصفها الاصطخرى[١] فقال: «ومكران ناحية واسعة عريضة الغالب عليها المفاوز والقحط والضيق». وقد سارت إلى مكران عدة قولات[٢].. سار إليها الحكم بن عمرو التغلبى حتى إذا بلغها لحق به شهاب بن مخارق بن شهاب فانضم إليه، ثم لحق به مدد آخر هو سهيل بن عدى وعبدالله بن عبدالله بن عتبان فى قواتهما، واجتمعوا جميعاً قبل أن يصلوا إلى النهر (لا يذكر الرواة أى نهر هو). واجتمع جيش مكران على شاطئ النهر بقيادة «راسل» ملك السند، ثم زحف بهم نحو المسلمين فالتقوا على مسيرة أيام من النهر، ودارت المعركة بين الطرفين فانتصر المسلمون وأباحوا معسكره وأصابوه بقتلى كثيرين، واستمرت المطاردة أياماً يقتلون من أدركوا حتى انتهوا إلى النهر فرجعوا وأقاموا بمكران.

وكتب الحكم إلى عمر بالفتح وبعث بالأخماس مع صحار العبدى، فلما قدم عليه بالفتح والغنائم سأله عمر عن مكران، وكان هذا دأب عمر، لا يأتيه رسول إلا سأله عن الوجه الذى جاء منه، فأجابه صحار[٣]:

«يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل (قليل)، وتمرها دقل (الدقل أردأ التمر)، ولصها بطل وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شر منها».

فقال عمر: «أسجاعٌ أنت أم مخبر؟»

قال: «لا بل مخبر».

قال عمر: «لا والله لا يغزوها جيش لى ما أُطِعت».

(١) المسالك والممالك ١٠٥.
(٢) الطبرى ٤ / ١٨١ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو.
(٣) يذكر البلاذرى أن هذا الحوار جرى بين عثمان بن عفان وهو خليفة وبين حكيم بن جبلة العبدى – فتوح البلدان ١٠٠٧.

وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل بن عدى: «لا يجوزنّ مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر». وكانوا قد غنموا بعض الفيلة فأمره ببيعها وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

وقال الحكم بن عمرو:

لقد شبع الأرامل غير فخر	بفيء جاءهم من مُكَّرَان
أتاهم بعد مَسْغَبَةٍ وجَهْدٍ	وقد صَفِرَ الشتاء من الدخان
فإنى لا يَذُمُّ الجيش فِعْلى	ولا سيفى يُذَمُّ ولا سنانى
غداة أُدَفِّعُ الأوباش دفعاً	إلى السند العريضة والمدانى
ومهران لنا فيما أردنا	مطيعٌ غير مسترخى العنان
فلولا ما نهى عنه أميرى	قَطَعْناه إلى البُدُدِ الزَّوَانى

الطريق إلى مرو

ربما كان الجيش الذى بعث به عمر بن الخطاب إلى خراسان ذا أهمية خاصة، بل كان له أكبر الأهمية وذلك بالنظر إلى اعتبارين:

أولها: أن يزدجرد الثالث كان قد انتهى إلى خراسان واتخذها آخر الأمر مقاماً له يثير منه المجوس فى بقاع مملكته الزائلة ضد الفتح الإسلامى، فكان من شأن سقوط هذا المعقل أن يزيل آخر ملوك بنى ساسان عن ملكه، فتسقط بذلك الأسرة الحاكمة، حيث لا يقوم بعدها حكام آخرون غير المسلمين الغزاة الفاتحين.

أما الاعتبار الثانى: فهو أن مرو - التى أقام بها يزدجرد من أرض خراسان - كانت فى واقع أمرها آخر أطراف ملكه، وكان وصول المسلمين إليها يعنى أنهم قد أتموا غزو دولة الفرس إلى آخر شبر فيها.

من هنا نرى أن فتح خراسان كان هو المحور الأساسى فى كافة المحاور التى مخرت جبال إيران وهضابها من غربها إلى شرقها.

ما كان من أمر يزدجرد حتى بلغ خراسان واستقر فى مرو، لن نتعرض له هنا، وسوف نعود إلى ذلك فى فصل قادم نعرض فيه لمصير ذلك الملك البائس. وسنقتصر هنا على عرض التحركات الحربية ومسارات الجيوش. وهذا اللواء الذى قاده الأحنف[1] بن قيس التميمى

---

(١) الأحنف بن قيس الذى قاد هذا اللواء مر بنا ذكره فى هذا الكتاب من خلال معركة الأهواز حيث بعث عتبة بن غزوان وفداً إلى عمر كان بينهم الأحنف بن قيس، ثم ردهم عمر. كما ورد ذكره فى عملية طاوس، فكان من أبطال البصرة الذين تطوعوا لنجدة جيش العلاء المحصور بأرض فارس. كذلك كان ضمن الوفد الذى حمل هرمزان أسيراً إلى المدينة. و تحدث عمر إلى الوفد وسأل عن سبب انتقاض أهل الذمة، فأخبره الأحنف بأن ملكهم لا يفتأ يثيرهم فيستجيبوا له، وأقنع عمر بالانسياح فى أرض العجم.

وإذا كان العرب يحددون مكان كل منهم فى مجتمعه بنسبه إلى أبيه وقبيلته، وقد درجنا نحن تبعاً لذلك على نفس المنوال ابتداء من «الطريق إلى المدائن» لتحديد مكان الرجل من وحدات المسلمين المحاربة، فقد كان الأحنف هو الضحاك (وقيل صخر) بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال ابن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وأمه حبة بنت عمرو بن قرط بن ثعلبة بن باهلة. وقد أنجب الأحنف ابنه بحراً وبه كان يكنى، وتوفى بحر وانقرضت سلالته من الذكور. وقد ولد الأحنف وبه حنف (اعوجاج) فى رجله، فقالت أمه وهى ترضعه: «والله لولا حنف =

كان يستهدف الأغراض التى ذكرنا، وذلك حين أذن عمر لجيوش المسلمين بالانسياح فى أرض العجم، فخرجت من قاعدتى البصرة والكوفة حتى أثخنت فى الأرض.

=فى رجله ما كان فى الحى غلام مثله». فسمى الأحنف وغلب ذلك على اسمه حتى اختلف فيه.

وكان أحد الحكماء الدهاة العقلاء، وقد اشتهر بالحلم وفى ذلك يقول عن نفسه فى تواضع: «لست بحليم ولكنى أتحالم». (مسند أحمد باب الزهد عن الحسن). وقال له رجل: «بم سدت قومك وأنت أحنف أعور؟» قال: «بتركى ما لا يعنينى كما عناك من أمرى ما لا يعنيك». وقيل للأحنف: يا أبا بحر إن فيك أناة شديدة، قال: «قد عرفت من نفسى عجلة فى أمور ثلاثة: فى صلاتى إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتى إذا حضرت حتى أغيبها فى حفرتها. وابنتى إذا خطبها كفؤها حتى أزوجه».

وقد أدرك النبى (ﷺ) ولم يره ودعا له النبى. قال الأحنف: «بينما أنا أطوف بالبيت فى زمن عثمان، إذ أخذ رجل من بنى ليث بيدى فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: أتذكر إذا بعثنى رسول الله (ﷺ) إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه؟ فقلت أنت: إنك تدعو إلى خير وتأمر به وإنه ليدعو إلى الخير». فبلغ ذلك النبى (ﷺ) فقال: «اللهم اغفر للأحنف». فكان الأحنف يقول: فما شىء من عملى أرجى عندى من ذلك، يعنى دعوة النبى (ﷺ). (تفرد به على بن زيد، وفيه ضعف - الإصابة ٤٢٩).

وكان ثقة مأموناً قليل الحديث وروى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى ذر وابن مسعود والأسود بن سريع وغيرهم.. وروى عنه أبو العلاء بن الشخير والحسن البصرى وطلق ابن حبيب وغيرهم.. وقد ذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل البصرة. وله قصص يطول ذكرها مع عمر وعثمان ومع على ومع معاوية ثم مع من بعده حتى توفى. من ذلك أن عمر ذكر بنى تميم (قبيلة الأحنف) فذمهم، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين ائذن لى فأتكلم. قال: تكلم. قال: إنك ذكرت بنى تميم فعممتهم بالذم، وإنما هم من الناس فمنهم الصالح والطالح. فقال: صدقت. فعفا عمر بقول حسن من الأحنف، فقام الحتات وكان يناوىء الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين ائذن لى فأتكلم. قال عمر: اجلس، فقد كفاكم سيدكم الأحنف.

وقد قدم الأحنف على عمر فرأى منه عقلاً وديناً وحسن سمت، فاحتبسه حولاً كاملاً عنده ثم أحضره وقال له: يا أحنف. هل تدرى لم احتبستك عندى؟ إن رسول الله (ﷺ) خوفنا كل منافق عليم، فخشيت أن تكون منهم ولست منهم إن شاء الله. يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك. هذا مثال غريب من جد عمر فى اختبار من يريد أن يستعين به ويوليه أمورا فى دولته. لم يكن الأحنف من المهاجرين ولا من الأنصار ولم يكن عمر يعرفه فلما لقيه ولاحظ فيه كفاءة وإخلاصا لم يأخذ ذلك على ظاهره وإنما أراد أن يستوثق، وصبر عاماً على ذلك قبل أن يكاشف الأحنف أنه كان تحت رقابته.. وكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى: «أما بعد فأدن الأحنف بن قيس وشاوره واسمع منه». وكتب له: «الأحنف سيد أهل البصرة». فما زال يعلو من يومئذ.

وقال الحسن: ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف.

وكان الأحنف قل ما خلا بنفسه إلا دعا بالمصحف. وكانت عامة صلاته بالليل. وكان يضع إصبعه على المصباح الملتهب ويقول: «حش» من لسعة، ثم يخاطب نفسه فيقول: «يا أحنف ما حملك على أن صنعت كذا يوم كذا؟!» وفوق ما فى هذا من دلالة على الصلابة الروحية، فهى أيضاً تدلنا على احتماله وصبره وصلابة بدنه، يؤيد ذلك رواية أخرى أنه لما أتى فارس أصابته جنابة فى ليلة باردة، فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دماً، فوجد =

السير إلى خراسان

خرج الأحنف بن قيس فى جيشه من قاعدة البصرة إلى خراسان، فسلك طريق مهرجانقذق ومنها إلى أصبهان (انظر الخريطة ٢٠). وكان اجتياز الأحنف أرض أصبهان معاصراً لحصار عبدالله بن عبدالله بن عتبان لمدينة جى، وهذا يعنى أن هذه الحملة بدأت مسيرها عام ٢١هـ، غير أنها أتمت مهمتها خلال عام ٢٢هـ. وطلع الأحنف من أصبهان على طبس (ويقال عنها أيضاً طبسين) وأوغل حتى بلغ هراة فافتتحها عنوة.

وصف الاصطخرى[1] هراة فى حوالى ٣٠٠هـ فقال: إنها مدينة عليها حصن وثيق وحواليها ماء وداخلها مدينة عامرة ولها ربض (ما حولها من أرض ترعى فيه الإبل والماشية) وفى مدينتها قهندز (قلعة)... وبناؤها (هراة) من طين وهى مقدار نصف فرسخ فى نحوه - (٢٫٧٥٠×٢٫٧٥٠) ولمدينتها الداخلة أربعة أبواب: الباب الذى يخرج منه إلى بلخ مما يلى الشمال، والباب الثانى الذى يخرج منه إلى نيسابور غربى.. والباب الذى يخرج منه إلى سجستان جنوبى.. والباب الذى يخرج منه إلى الغور شرقى.. وأبوابها من خشب غير باب بلخ فإنه حديد.. وفى داخل المدينة والربض مياه جارية، وللحصن أربعة أبواب بحذاء كل باب من أبواب المدينة باب لهذا الحصن، وخارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله أطول من قامة وبينهما مقدار ثلاثين خطوة.. وهراة مطرح الحمولات من فارس إلى خراسان، وهى فرضة (حامية) لخراسان وسجستان وفارس، والجبل من هراة فرسخين على طريق بلخ.. وليس بهذا الجبل محتطب ولا مرعى، وإنما يرتفقون منه بالحجارة للأرحية والفرش وغير ذلك، وعلى رأس هذا الجبل بيت نار يسمى سيرشك وهو معمور، وبينه وبين المدينة كنيسة للنصارى وليس بينهما وبين المدينة مياه ولا بساتين إلا نهر المدينة على باب المدينة يعبر بالقنطرة ثم لا يكون بعدها ماء ولا خضرة. وعلى سائر الأبواب مياه وبساتين.. ومخرج

=الثلج فكسره واغتسل به! ولما كبر الأحنف قيل له: إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك، فقال: إنى أعده لشر طويل. وكان يدعو فيقول: «اللهم إن تغفر لى فأنت أهل ذاك، وإن تعذبنى فأنا أهل ذاك».

وكان الأحنف ممن اعتزل الحرب بين عائشة وعلى يوم الجمل، وشهد صفين مع على. وقد كان صديقاً لمصعب بن الزبير بن العوام فوفد عليه بالكوفة وهو أمير العراق لأخيه عبدالله فتوفى وهو عنده عام ٦٧هـ وسار مصعب فى جنازته.

(الإصابة ٤٢٩ / ١٦١ - أسد الغابة ٢٥٥٨ / ٥١ - الاستيعاب ١ / ١٣٥ - الطبقات الكبرى ٧ / ٦٦ - الأغانى ٧٤٩ - الطبرى - فتوح البلدان).

(١) المسالك والممالك ١٤٩.

مائهم من قرب رباط كروان، فإذا خرج عن الغور إلى هراة يتشعب منه أنهار (وعدَّ تسعة أنهر منها نهر آنجير يسقى مدينة هراة).

وبعث الأحنف من هراة مطرف بن عبدالله بن الشخير إلى نيسابور، فلم يلق قتالاً حتى بلغها. ونيسابور تعرف أيضاً «أبرشهر» وصفها أيضاً الاصطخرى[1] فقال: «إنها مدينة فى أرض سهلة أبنيتها طين ومقدار عرضها فرسخ فى فرسخ (٥ر٥×٥ر٥ كيلو متراً) ولها مدينة وقلعة وربض... وللقلعة بابان وللمدينة أربعة أبواب وقلعتها خارج المدينة ويحيط الربض بالمدينة والقلعة وللربض أبواب.. وليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أكبر من نيسابور».

كما بعث الحارث بن حسان السدوسى إلى سَرَخْس، وسرخس[2] فى أرض سهلة وليس لها ماء جار إلا نهر يجرى فى بعض السنة ولا يدوم ماؤه، وهو ما يفضل من مياه هراة وهى مدينة على نحو النصف من مرو، عامرة صحيحة التربة والغالب على نواحيها المراعى، قليلة القرى ومعظم أملاكهم الجمال ومياههم من الآبار وأبنيتها طين وأرحيتهم على الدواب.

واستخلف على هراة صحار بن فلان العبدى ليكون ردءاً ومؤخرة، أو قاعدة متقدمة لهم، وكان ذلك لازماً إذ أن المسلمين، ولو أنهم كانوا يغزون الرى وقومس وجرجان وآذربيجان وأرمينية وكافة المناطق الشمالية فى ذلك الوقت، إلا أنهم لم يخضعوا تماماً المناطق الجنوبية من فارس وكرمان ومكران وسجستان، ولا سيما أن يزدجرد كان يحاول الحصول على معونات حربية من شعوب أخرى من وراء حدوده، وبذلك ربما أمكن القول إن ميمنة الأحنف فى تقدمه كانت فى حاجة إلى تأمين، ويخفف من هذا الاعتبار أن الدولة كانت قد سقطت بالفعل، وأن العملية كانت ضمن الإجراءات النهائية لاستلام الميراث. حصيلة ذلك كله أن الأحنف ترك جانباً من قواته فى هراة بقيادة صحار بن فلان العبدى، وسار هو إلى مرو الشاهجان حيث يقبع يزدجرد الثالث.

ومرو الشاهجان[3] كانت قديمة البناء يقال إنها من بناء الإسكندر الأكبر، وكان لها قلعة يقال إنها من بناء طهمورث. والمدينة فى أرض مستوية بعيدة عن الجبال لا يُرى منها جبل وليس فى شىء من حدودها جبل، وأرضها سبخة كثيرة الرمال وأبنيتها من الطين. وللقلعة صحن مربع مرتفع سيقت له على ارتفاعه قناة ماء جار وكان يُزرع عليه البقول و البطيخ

(١) المسالك والممالك ١٤٥.
(٢) الاصطخرى ١٥٤.
(٣) الاصطخرى ١٤.

وغير ذلك. ولربوع المدينة أنهار تمر بها، فمنها نهر هرمزفَرَّه فى أول ما يدخل الداخل إلى المدينة من سرخس.. ومنها نهر الرزيق ومجراه على باب المدينة ومنه يشرب أهلها.. ومنها نهر أسعدى الخراسانى وعليه كانت دور مرازبة مرو. وكان يحيط بالمدينة والأنهار سور كما كان بداخلها سور آخر على بعض أجزائها. وكل هذه الأنهار كانت تتفرع من نهر المرغاب (أو مرو آب، ومعناها ماء مرو)، يجرى هذا النهر على مرو الروذ. وهى من أطيب بلاد خراسان أطعمة وخبزاً، فليس بخراسان أنظف خبزاً وألذ طعماً منه، واليابس من فواكهها كالزبيب يفضل على ما سواه، وبلدهم من النظافة وحسن الترصيف وتقسيم الأبنية والمحال فى خلال الأنهار والغروس، ومنها كان يُصَدَّر القز الكثير والقطن والثياب.

فى مرو الشاهجان كان يزدجرد قد اتخذ بيتاً أقامه فى بستان على فرسخين منها (١١ كيلو متراً)، كما بنى بيت نار للعبادة المجوسية وأقام آمناً مطمئناً من أن يصل المسلمون إليه على هذا البعد الشاسع من مملكته، ولكن الأحنف طوى إليه ذلك البعد. واقترب الأحنف من مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد كما اعتاد من قبل أن يخرج من المدائن و من الرى ومن سواها حتى نزل مرو الروذ[1]، ونزل الأحنف مكانه فى مرو الشاهجان. وحار يزدجرد فى أمره، لقد جرده هؤلاء الغزاة من كل أرضه وألجأوه إلى آخر شبر منها وهم على وشك أن يجردوه من ثيابه، فإلى أين يذهب وإلى من يلجأ؟

فكر يزدجرد فى ذلك، فكتب من مرو الروذ رسائل إلى ثلاثة ملوك: كتب إلى خاقان الترك وإلى ملك الصغد يستمدهما ويستنجد بهما. وكتب إلى ملك الصين يستعينه.. وخرجت رسله بالرسائل. ولكن الأحنف وقد لحقت به أمداد من الكوفة لم يمهله، بل استخلف حاتم بن النعمان الباهلى على مرو الشاهجان وزحف منها نحو مرو الروذ، وكان جيشه مقسماً إلى أربع فرق على كل فرقة أمير:

(١) ذكر ابن خرداذبة مرو الروذ على الطريق من مرو الشاهجان إلى طخارستان، وعلى ما ذكر تكون المسافة بينهما ٢٢٧ كيلو متراً. قال: من مرو الشاهجان إلى فاز ٧ فراسخ ثم إلى مهدى أباذ ٦ فراسخ ثم إلى يحيى أباذ ٧ فراسخ ثم إلى الرقينين ٥ فراسخ ثم إلى أسد أباذ ٧ فراسخ، على النهر إلى حوزان ٦ فراسخ، على النهر ثم إلى قصر الأحنف بن قيس ٤ فراسخ، على النهر ثم إلى مرو الروذ ٥ فراسخ ثم إلى ارسكن ٥ فراسخ ثم إلى الأسراب ٧ فراسخ ثم إلى كنجا باذ ٦ فراسخ ثم إلى الطالقان ٦ فراسخ ثم إلى كيسحاب ٥ فراسخ ثم إلى ارغين ٥ فراسخ ثم إلى قصر خوط ٥ فراسخ ثم إلى الفارياب ٥ فراسخ ثم إلى القاع من عمل الجوزجان ٩ فراسخ ثم إلى الشبورقان (شبرغان تظهر على الخريطة) ٩ فراسخ ثم إلى السدرة من بلخ ٦ فراسخ ثم إلى دست كرد ٥ فراسخ ثم إلى الغور ٤ فراسخ ثم إلى بلخ ٣ فراسخ. فمن مرو الشاهجان إلى بلخ ١٢٦ فرسخاً (حوالى ٧٠٠ كيلو متر). (المسالك والممالك ٣٣).

١ - علقمة بن النضر النضرى.

٢ - ربعى بن عامر التميمى.

٣ - عبدالله بن عقيل الثقفى.

٤ - ابن أم غزال الهمدانى.

ومرة أخرى خرج يزدجرد من الروذ إلى بلخ[١] فاستولى الأحنف على مرو الروذ، وبعث وحداته فى أثره إلى بلخ ثم تبعها.

كانت بلخ[٢] مدينة فى مستوٍ من الأرض بينها وبين أقرب الجبال إليها نحو أربعة فراسخ (٢٢ كيلو متراً) وهو جبل كور وعليها سور ولها ربض، وكانت فى حوالى ٣٠٠هـ نحواً من نصف فرسخ فى مثله، وبناؤها من الطين ولها أبواب ذكر الاصطخرى منها سبعة أبواب، ولها نهر (نهر دهاس) يجرى فى ربضها على باب النوبهار ويسقى رساتيق إلى سياه جرد، ويحف بأبوابها كلها البساتين والكروم، وكان سور المدينة من طين ولم يكن عليه خندق.

وفى بلخ التقى المسلمون لأول مرة منذ بدأت الفتوح بيزدجرد شخصياً فيمن بقى له من جند. وماذا كان ينتظر فى معركة كتلك غنية عن أى تعليق! انهزم يزدجرد بطبيعة الحال وانسحب فيمن معه فعبروا نهر بلخ (نهر جيحون) ووصل الأحنف إلى قواته وقد غلبت يزدجرد على أمره.

ورغم سقوط هراة ونيسابور وسرخس، إلا أن بعض شعب خراسان كان قد تحصن أو شذ عن الخضوع والتسليم فيما بين نيسابور إلى طخارستان[٣]، فلما خرج يزدجرد إلى بلخ[٤] تتابع جميع شعب خراسان على الصلح والدخول فى ذمة المسلمين، فاستخلف الأحنف على طخارستان ربعى بن عامر، وهو الذى امتدحه النجاشى الشاعر بقوله:

ألا رُبَّ من يدعى فتى ليس بالفتى   ألا إن ربعى بن كأس[٥] هو الفتى
طويل قعود القوم فى قعر بيته   إذا شبعوا من ثفل جفنته سقى

---

(١) من مرو الروذ إلى بلخ ٤٤٤ كيلو متراً.
(٢) الاصطخرى ١٥٥.
(٣) طخارستان أقصى إقليم خراسان نحو الشرق. وقد كانت خراسان أربعة أقسام هى: مرو الشاهجان، وبلخ وطخارستان، وهراة وابذغيش سجستان وما وراءالنهر. (ابن خرداذبة ١٨).
(٤) بلخ اليوم من أفغانستان، وهى على خط طول ٦٧ شرقاً وشمالى خط عرض ٣٦ شمالاً.
(٥) كأس هى أم ربعى بن عامر نسبة إليها.

أى مجد ذاك الذى حاز المسلمون؟ ومن كان ربعى بن عامر قبل الإسلام؟ ومن كان يبلغ القول عقله لو قيل له قبل ذلك بعشر سنوات إن ربعى بن عامر سوف يحكم طخارستان؟! وما نحسب أن ربعى أو أحداً من العرب كان قد سمع شيئاً حينذاك عن طخارستان تلك أو كان يعرف الطريق إليها، بل ما نحسب عموم المسلمين اليوم يعرفون ذلك... ولكنه الإسلام! ترك الأحنف فى طخارستان ربعى بن عامر وعاد هو إلى مرو الروذ، فكتب إلى عمر بفتح خراسان فسار رسوله حتى بلغ المدينة.

وبلغ كتاب الأحنف إلى عمر فعلم بغلبته على مرو الشاهجان ومرو الروذ وبلخ، فقال فى إعجاب شديد: «هو الأحنف، وهو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه». ثم كتب إليه[١]:

«أما بعد، فلا تجوزن النهر (نهر جيحون) واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأى شيء دخلتم خراسان، فداوموا على الذى دخلتم به خراسان يدم لكم النصر. وإياكم أن تعبروا فتُفَضّوا»[٢].

من الواضح هنا أن عمر لم يكن يود الالتحام بالترك أو الصغد اكتفاء بفتح فارس إلى أقصى حدودها، وحين نقول فارس فلا بد أن يحضرنا أنها كانت إحدى القوتين العظيمتين فى العالم، وقد صارت برمتها إلى المسلمين الذين قاموا يرثون الأرض وما عليها، فى حين كانوا يدوخون القوة الأخرى - الروم - ويقتطعون منها.

بلغ رسولا يزدجرد خاقان الترك وغوزك الصغد، فلم يتسن لأحدهما إنجاده حتى عبر إليهما نهر جيحون مهزوماً! وأقبل خاقان الترك فى جنده الذين حشدهم من أهل فرغانة والصغد، ثم خرج بهم وانضم إلى يزدجرد فكر راجعاً إلى خراسان وعبر نهر جيحون إلى بلخ. وانسحب المسلمون (جيش الكوفة) أمام هذا الزحف إلى مرو الروذ حيث انضموا إلى الأحنف فى قوات البصرة، وتبعهم يزدجرد وخاقان حتى نزلوا أمام الأحنف فى مرو الروذ.

---

(١) الطبرى ٤ / ١٦٨ س ش س عن عيسى بن المغيرة وعن الوازع بن زيد بن خليدة رجل من بكر بن وائل.
(٢) تذهب بعض الروايات إلى أن عمر قال حين كتب إليه الأحنف بفتح خراسان: «لوددت أنى لم أكن بعثت إليها جنداً، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار. فقال على: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأن أهلها سينفضون منها ثلاث مرات فيجتاحون فى الثالثة، فكان أن يكون ذلك بأهلها أحب إلى من أن يكون بالمسلمين (الطبرى ٤ / ١٦٨). ولا نميل إلى الأخذ بمثل هذه الروايات التى يبدو فيها عمر متنبئاً بالغيب.

هجوم مضاد

إنه هجوم مضاد بقوات جديدة جاءت من وراء الحدود. وخرج الأحنف ليلاً يمشى بين عسكره يتسمع لعله يسمع رأياً ينتفع به. فمر برجلين ينقيان علفاً (تبناً أو شعيراً)[1] لخيليهما، وأحدهما يقول لصاحبه:

– لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقاً وكان الجبل فى ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله.

وأعجب الرأى الأحنف فاكتفى به ورجع وكان فى ليلة مظلمة.. فلما أصبح جمع جيشه ثم وجه إلى جنده الخطاب فقال:

«إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنكم، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.. ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه وراء ظهوركم، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد».

كان المسلمون نحواً من عشرين ألفاً نصفهم من جند الكوفة ونصفهم من جند البصرة، وكانت قوات الترك ومن انضم إليهم يقتربون حتى يشتبكوا بالمسلمين، فإذا جاء الليل انسحبوا. وأراد الأحنف أن يعرف إلى أين ينسحبون ليلاً، فخرج بنفسه ليلة دورية استكشافية ولم يخبر بذلك أحداً من معسكره حتى وقف قريباً من معسكر خاقان يراقبه، وفى وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبلة ثم وقف أمام عسكره، فحمل عليه الأحنف فتطاعنا واختلفا طعنتين وطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز:

إن على كل رئيس حقـا … أن يخضب الصَّعْدة أو تندقا
إن لنا شيخا بها مُلَقّى … سيف أبى حَفص الذى تبقى

(١) وفى روايات البلاذرى أن القائل كان رجلاً يطبخ قدراً أو يعجن لأصحابه عجيناً، أو أنهم كانوا أهل خباء يتحدثون، (وربما كانت إحدى هاتين الروايتين أقرب إلى الصحة حيث نستبعد تنقية الشعير ليلاً)، وأن الرجل قال: «الرأى أن ينزل بين المرغاب والجبل فيكون المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقى من عدوه – وإن كثروا – إلا مثل عدة أصحابه» فرأى ذلك صواباً ففعله...
ويذهب البلاذرى إلى أن الأحنف كان فى خمسة آلاف من المسلمين: أربعة آلاف من العرب وألف من مسلمى العجم (فتوح البلدان ٩٨٦ و٩٨٧). والأرجح عندنا فيما يختص بعدد المسلمين ما ذكره رواة الطبرى من أنهم كانوا عشرين ألفاً، إذ لا نستسيغ بسهولة أن يوغل المسلمون إلى أطراف خراسان بخمسة آلاف فقط منهم ألف من العجم.

ثم وقف الأحنف موقف ذلك التركى وأخذ طوقه، فخرج له من المعسكر تركى آخر فضرب بطبلة ووقف أمام عسكره كما فعل الأول، فحمل عليه الأحنف فى مبارزة بالرماح فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف وهو يرتجز:

إن الرئيس يَرْتَبى ويطلُعْ … ويمنع الخلاءَ إما أربعوا

ثم خرج تركى ثالث ففعل فعل زميليه القتيلين، فكان مصيره كسابقيه وقتله الأحنف وهو يرتجز:

جَرْىَ الشموس ناجزاً بناجزْ … محتفلاً فى جريه مُشَارِزْ

وانصرف الأحنف عائداً إلى عسكره. وكان من عادة الترك فى حروبهم أنهم لا يخرجون فى زحفهم حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كهؤلاء كلهم يضرب بطبله ثم يتحركون بعد خروج الثالث. وفى ذلك اليوم فعلوا ذلك فخرج الترك للقتال، فمروا على فرسانهم صرعى فتشاءم خاقان، وفى الواقع إنها كانت معركة لا ناقة له فيها ولا جمل، فقال: «لقد طال مقامنا، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يصب بمثله قط، ما لنا فى قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا». فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئاً، ثم جاءهم الخبر بانصراف خاقان والترك معه إلى بلخ. هذا ما ذكره رواة الطبرى، أما البلاذرى[1] فيذكر أن الموقعة حدثت فعلاً، فهز الأحنف رايته وحمل على عدوه وحمل المسلمون معه، فقصد إليه ملك الصغانيان فأهوى له بالرمح، فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قتالاً شديداً، فكان يقصد من كان معهم الطبول حتى قتل ثلاثة منهم، ثم رجحت كفة المسلمين فقتلوا من عدوهم قتلاً ذريعاً ووضعوا السلاح أنى شاؤوا منهم.

هذا عن الترك.. فماذا عن يزدجرد؟

انفصل يزدجرد عن خاقان بمرو الروذ وسار إلى مرو الشاهجان، وكانت حامية المسلمين بها بقيادة حاتم بن النعمان وكانت قوات قليلة بالنسبة لما تحرك به يزدجرد، فتحصنوا منه واتخذوا موقفاً دفاعياً وحاصرهم يزدجرد. ماذا كانت وجهة يزدجرد فى زحفه على مرو الشاهجان وماذا كان غرضه وهدفه منها؟ كانت خزائنه مخبأة هناك حين أعجله الأحنف بالفرار منها، واستطاع فى حصاره للمسلمين بمرو الشاهجان أن يستخرجها من موضعها بينما أقام خاقان الترك له فى بلخ. هذا ما تذكره الروايات، والذى نظنه أن الرجلين قد اتفقا

(١) فتوح البلدان ٩٨٧.

على أن ينسحب خاقان إلى بلخ فيتبعه الأحنف وينشغل بمطاردته، فى حين يذهب يزدجرد لاسترجاع خزائنه وكنوزه من مرو الشاهجان.

وفى معسكر المسلمين قالوا للأحنف: «ما ترى فى اتباعهم؟»

قال: «أقيموا بمكانكم ودعوهم».

لماذا اختار الأحنف الإقامة؟ ربما وجدنا لذلك أكثر من تعليل، فلقد كانت تعليمات عمر واضحة للأحنف أن يقف عند حدود معينة لا يتجاوزها، هذه واحدة، والثانية أنه إذا سار فى أعقاب خاقان لوضع نفسه بين قوات خاقان التركية وقوات يزدجرد الفارسية مع الإيغال نحو بلاد الترك.

هذا فى حين اتجهت بعض الفلول إلى جوزجان فوجه إليهم الأحنف الأقرع ابن حابس التميمى فى خيل وقال لهم: «يا بنى تميم تحابوا وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم». وسار الأقرع فالتحم بعدوه فى جوزجان فبدأت الدائرة على المسلمين وكانت لعدوهم جولة، ولكن المسلمين كروا فهزموا عدوهم وفتحوا جوزجان عنوة. وقال كثير بن الغريزة النهشلى:

سقى صوب السحاب إذا استهلت	مصارع فتية بالجوزان
إلى القصرين من رستاق حوف	أفادهم هناك الأقرعان

وفى معسكر يزدجرد كانت خزائنه شيئاً عظيماً من أموال فارس، وأراد حملها واللحاق بخاقان، فقال له أصحابه: «أى شىء تريد أن تصنع؟»

قال: «أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين».

قالوا: «مهلاً، فإن هذا رأى سوء.. إنك إنما تأتى قوماً فى مملكتهم.. وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم (المسلمين) فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين، وهم يلون بلادنا.. وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا فى بلاده ولا دين لهم، ولا ندرى ما وفاؤهم».

فأبى يزدجرد أن ينزل على رأيهم، وأبوا عليه رأيه فقالوا:

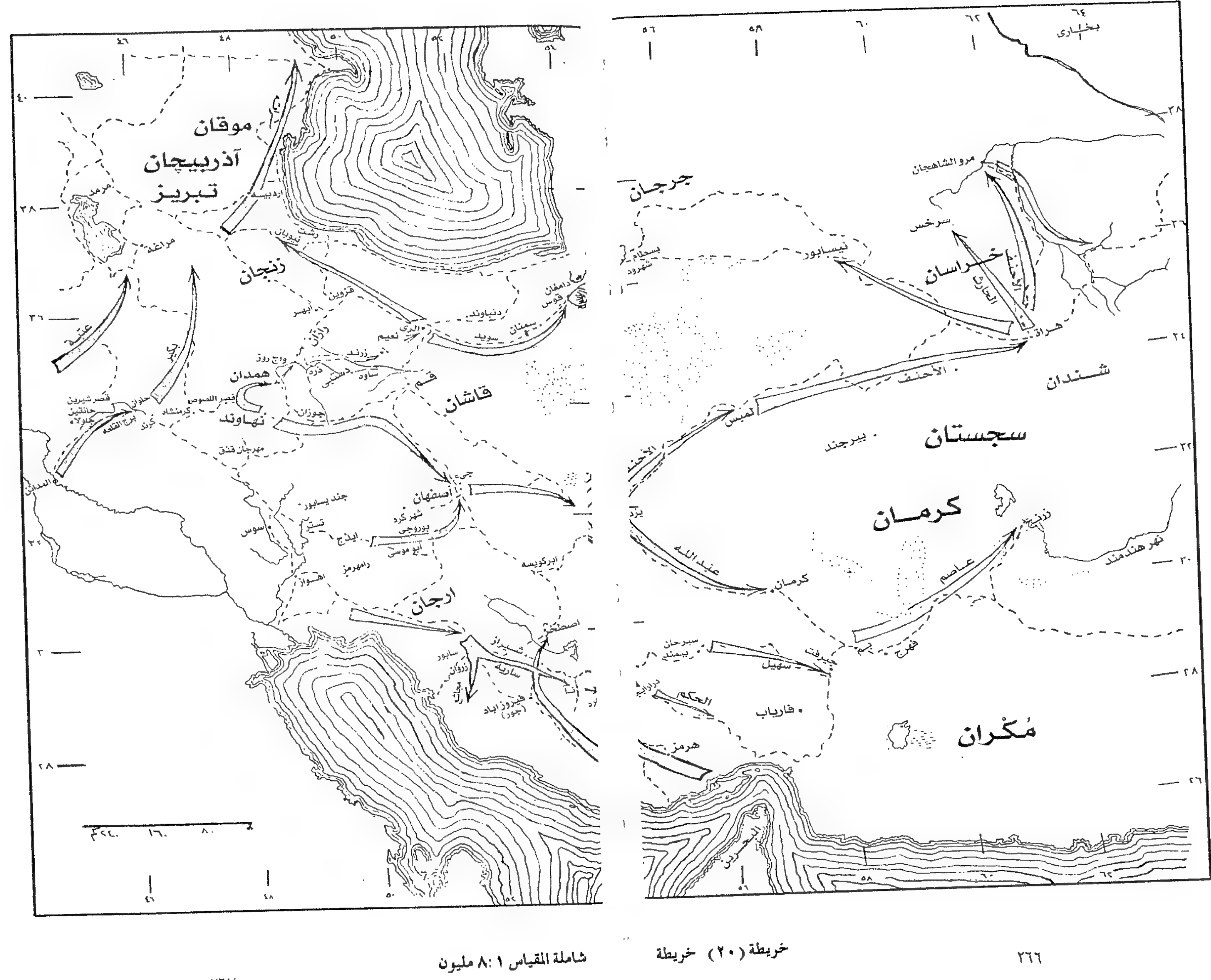
«فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها، ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها».

فرفض يزدجرد، فتمردوا عليه وقالوا له: «فإنا لا ندعك تذهب بها».

ولم يكن مع يزدجرد فى موقفه ذاك إلا حاشيته، ووقع التحام بين الطرفين فهزموه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها عنوة ونكبوه، وكتبوا إلى الأحنف بالذى كان، فأسرع نحوهم واعترضهم وهم يدافعون يزدجرد، فقاتله المسلمون وهزموه وأعجلوه عن أثقاله ومتاعه، فمضى هارباً ولاجئاً حتى عبر نهر جيحون إلى فرغانة والترك. وأقبل الفرس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه وأسلموا تلك الخزائن والأموال إليه، وانفضوا كجيش فرجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أمان من المسلمين، فكانوا على أفضل ما كانوا فى عهود الأكاسرة.. يقول الرواة: «فكانوا كأنما هم فى ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم، فاغتبطوا وغبطوا». وأصاب الفارس فى هذا اليوم (يوم يزدجرد) كسهم الفارس يوم القادسية. لقد كان سهم الفارس يوم القادسية ستة آلاف درهم، ومعنى هذا أن الخزائن المستولى عليها بلغت مائة وخمسين مليون درهم. وفتح الأحنف طالقان[1] صلحاً كما فتح فارياب، ثم سار إلى بلخ وهى عاصمة طخارا فصالحه أهلها على سبعمائة ألف درهم، فاستعمل عليها أسيد بن المُتَشَمِّس.

وأرسل الأحنف بالخبر وبالأنفال (خُمس الغنيمة ٣٠ مليون) إلى عمر بن الخطاب، فجمع الناس وخطبهم، وأمر بكتاب الفتح فقرئ ثم قال: «إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على أتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. فالحمد لله الذى أنجز وعده ونصر جنده. ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم. ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون! ألا وإن المصرين (الكوفة والبصرة) من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد، وقد أوغلوا فى البلاد، والله بالغ أمره، ومنجز وعده، ومُتْبِع آخر ذلك أوله، فقوموا فى أمره على رجل يُوفِ لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تبدلوا ولا تغيروا فيستبدل الله بكم غيركم، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم».

(١) على ٣٦٠ كيلو متراً من مرو الشاهجان. ويقول ابن خرداذبة: إن جبال الطالقان والفارياب والجوزجان على ذات اليسار على شط نهر جيحون (للقادم من مرو الشاهجان). (المسالك والممالك ٣٣).



خريطة (٢٠) خريطة شاملة المقياس ١:٨ مليون

الأخبار المعاصرة

وإذا مددنا أبصارنا بعيداً عن ذلك النطاق نحو الغرب وراء أهم الأخبار المعاصرة، وجدنا خالد بن الوليد قد توفى عام ٢١ أو ٢٢هـ بحمص (أو بالمدينة) وأوصى إلى عمر بن الخطاب بوصيته. وكان عمرو بن العاص يفتح الإسكندرية ويقيم مدينة الفسطاط عاصمة لمصر.

آثار سقوط بني ساسان

كان لسقوط الإمبراطورية الساسانية فى الشرق والهزائم المتتالية للإمبراطورية الرومانية فى الغرب وبسط سلطان المسلمين على منطقة الشرق الأوسط آثار نجملها فى الاتى:

١- سيادة السلام من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهندى وانتهاء الحرب العالمية الدائمة التى شملت المنطقة قروناً بين الفرس والروم، فاطمأن الناس من كافة الأجناس والأديان إلى دمائهم.

٢- إلغاء كافة أنواع الضرائب والاكتفاء بالجزية والخراج وتحديد قيمتها تحديداً ثابتاً، فاطمأن الناس اقتصادياً وعمهم رخاء لم ينعموا به من قبل.

٣- إلغاء امتيازات الطبقات وإعلان حقوق الإنسان وتحقيق المساواة بين الناس لأول مرة فى التاريخ، فتمتعت هذه الشعوب بحريتها الاجتماعية.

٤- كفالة الحرية الدينية لكافة الناس فى الديار المفتوحة، فاطمأن الناس على أديانهم وعقائدهم. لا يجبرهم أحد على عقيدة معينة، لأن عقيدة الفاتحين كانت (لا إكراه فى الدين).

٥- ظهور الإسلام كدولة لها مكانتها وقوتها وسطوتها فى العالم، ولها تشريعها وقوانينها، ولها قيمها ومثلها، ولها حضارتها وعلومها ومعارفها التى سادت العالم، فأدت دورها الذى لا ينكسر فى تاريخ الحضارة وازدهار العلم والمعرفة.

البائس يزدجرد

هذا ما كان من أمر التحركات العربية فى ميادين القتال . فماذا عن الشاهنشاه؟ لقد كان يظهر لنا من حين لآخر ونحن نتابع تلك الفتوح ابتداء من «الطريق إلى المدائن» إلى «القادسية» ثم إلى هذا الكتاب . ومن حيث كان لهذا الملك أهمية خاصة فى موضوعنا ، فإننا نورد هنا مختصراً لما سبق ذكره فى هذه الكتب مع استكمال سيرته ، حتى يتضح تاريخه كاملاً من مولده إلى مصرعه .

ميلاد عجيب

ويزدجرد هو ابن شهريار بن كسرى بروىز ، وكان شهريار ابنًا لشيرين الزوجة المفضلة المحظية لدى برويز . كان لكسرى برويز ثمانية عشر ولداً ذكراً وبنتين هما : بوران وآزرميدخت ، وكان شهريار أكبر إخوته . كان المجوس يؤمنون بالتنجيم ، فقال المنجمون لكسرى : إنه يولد لبعض ولده غلام يكون خراب الملك وزواله على يديه ، وعلامته نقص فى بعض بدنه . فأمر كسرى بحبس أولاده عن النساء حتى لا ينجبوا ، ومكثوا حيناً لا يصلون إلى امرأة حتى بعث شهريار إلى أمه شيرين أن تُدخل عليه امرأة وإلا قتل نفسه . فأجابته : إنى لا أصل إلى إدخال النساء عليك إلا أن تكون امرأة لا يؤبه لها ولا يجمل بك أن تمسها . فقال : لست أبالى ما كانت بعد أن تكون امرأة . فأرسلت إليه بجارية لها كانت تحجّمها فحملت ، فأمرت شيرين بها فحبست حتى ولدت يزدجرد ، فكتمت أمر مولده خمس سنوات .

الطفل فى المنفى

ورأت شيرين من كسرى رقة للصبيان حين كبر ، فقالت له : هل يسرك أن ترى ولداً لبعض بنيك على ما كان فى ذلك من المكروه؟ فقال : لا أبالى . فأمرت شيرين بيزدجرد فطيب وحلى وأدخلته عليه وقالت : هذا يزدجرد بن شهريار . فأجلسه فى حجره وأحبه حباً شديداً

حتى كان يبيته معه . فبينما هو يلعب يوماً بين يديه ذكر قول المنجمين ، فدعا به فعراه من ثيابه وأخذ يفحصه ظهراً وبطناً حتى استبان نقصاً فى أحد وركيه ، فاستشاط غضباً وحمله ليجتلد به الأرض ، ولكن شيرين تعلقت به وقالت : إنه إن يكن أمر قد حضر فى هذا الملك فليس له مَرَدّ .

قال : هذا المشئوم الذى أخبرت عنه فأخرجيه فلا أنظر إليه . فأمر به فحُمِلَ إلى سجستان ، وقيل : بل كان بسواد العراق .

مذبحة ملكية

وثار الفرس على كسرى بعد أن حكمهم ثمانياً وثلاثين عاماً ، وقتله ابنه شيرويه بن مريم الرومية الذى مَلَك بعده . وقتل شيرويه إخوته الذكور السبعة عشر ، وكانوا ذوى أدب وشجاعة ومروءة ، وذلك حتى لا ينافسه أحد منهم على عرش فارس ، فكان شهريار والد يزدجرد من هؤلاء القتلى . وأباد شيرويه من قدر عليه من أهل بيته ، وجمع نساء آل كسرى فحبسهن فى القصر الأبيض بالمدائن . فلما كان اليوم التالى دخلت عليه أختاه بوران وآزرميدخت فأغلظتا له القول فقالتا : حملك الحرص على مُلك لا يتم ، على قتل أبيك وجميع إخوتك وارتكبت المحارم ! فبكى وجزع ورمى التاج عن رأسه ، ولم يزل أيامه كلها مهموماً حتى مات بعد ثمانية أشهر . فى تلك المذبحة قامت أم يزدجرد بتهريبه وإخفائه عند أخواله فى إصطخر ، وكان حينذاك دون العشرين من عمره .

المسلمون يغزون العراق

فى عهد شيرويه هذا بدأ زحف خالد بن الوليد على العراق ، ومات شيرويه وخالد يدق أبواب الحيرة ، ومازال يزدجرد مختبئاً عند أهل أمه . وملك أردشير بن شيرويه وكان طفلاً ابن سبع سنين ، فثار عليه شهربراز أحد قواد الفرس وقتل الملك الطفل ونصّب نفسه ملكاً أربعين يوماً قتله بعض الفرس بعدها وسحلوه وملّكوا بوران بنت كسرى عمة يزدجرد . ثم توالى الملوك والمؤامرات على عرش بنى ساسان والمعارك مشتعلة بين الفرس والمسلمين ، حتى أحرز المثنى بن حارثة نصره الكبير على الجيش الفارسى يقوده مهران فى معركة البويب ، وراح يغير على كافة أنحاء العراق من تكريت شمالاً إلى شط العرب جنوباً ، وعبر الفرات وعبر دجلة

وتجاوز فى غاراته تلك المدائن، فاتجه ساسة الدولة إلى الرجلين الأولين فيها - رستم وفيرزان - وأنْحَوْا عليهما باللائمة فى كل ما وقع لفارس.

يزدجرد ملكاً

وأراد الرجلان إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وإذ كانوا يفتقدون رجلاً من بنى ساسان، فقد طلبا من بوران بنت كسرى قائمة بنساء أبيها وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم، فأتوا بهن جميعاً وصبوا عليهن العذاب يستدلوهن على ذكر من آل كسرى. واعترفت إحداهن بوجود ذلك الذكر يزدجرد، فطلبوه من أمه حتى جاؤوا به ونصبوه ملكاً بعد أن توجوه فى بيت نار أردشير بإصطخر ثم أتوا به المدائن وهو ابن إحدى وعشرين سنة، واجتمعوا عليه وتباروا فى طاعته. حدث ذلك فى ذى القعدة ١٣هـ - ديسمبر ٦٣٤ / يناير ٦٣٥م. وشرع يزدجرد فى العمل بمعاونة جميع رجال فارس، وقد نبذوا خلافاتهم للوقوف فى وجه الفتح الإسلامى. وحدد يزدجرد المسالح والثغور التى كانت لكسرى وخصص لكل قطاع جنداً، وقام رستم بتدبير هجوم مضاد للمسلمين، فانسحب المثنى من العراق إلى الصحراء.

ورستم قائد

ثم جاءت حملة سعد بن أبى وقاص ونزلت القادسية فى ١٦ صفر ١٥هـ - ٢٩ مارس ٦٣٦م، وراحت تُغير على سواد العراق حتى استغاث أهله بيزدجرد، فبعث إلى رستم فدخل عليه. قال يزدجرد: إنى أريد أن أوجهك فى هذا الوجه، وإنما يعد للأمور على قدرها. وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولى آل أردشير. وتظاهر رستم بقبول هذه المهمة الثقيلة آملاً فى أن يجد بعد ذلك مخرجاً، ولكن يزدجرد أرغمه على قيادة الجيش.

وفد سعد إلى يزدجرد

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص، فأرسل وفداً من المسلمين إلى يزدجرد ليدعوه إلى الله ويشرح له مطلب المسلمين. واختار الوفد من نفر ذوى أصل وحسب ورأى ومظهر، وكان النعمان بن مقرن المزنى أمير ذلك الوفد الذى بلغ عدده أربعة عشر، فيهم

عاصم بن عمرو والمثنى بن حارثة والمغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وغيرهم.. وقد أوردنا ما دار من حوار بين وفد سعد وبين يزدجرد فى كتاب «القادسية».

وعاد يزدجرد يستحث رستم للتقدم إلى القادسية، وعاد هذا يتلكأ عسى أن يجد مخرجاً من هذه المهمة الثقيلة على نفسه، ولكنه فى آخر الأمر لم يجد مناصاً من الانصياع. ووضع يزدجرد نظاماً لوصول الأخبار من يوم بعث رستم من المدائن، فوضع رجلاً على باب الإيوان، ووضع آخر من الدار حيث يسمعه الرجل الأول، ثم وضع ثالثاً حيث يسمعه الرجل الثانى.. وهكذا. فلما نزل رستم بساباط صاح الذى عند رستم «قد نزل»، فتناقلها الذى بعده ثم الذى يليه.. وهكذا.

هزائم منكرة

وأخيراً وقعت موقعة القادسية ومنى رستم بأنكر هزيمة وقتل بها.. وتقدم جيش المسلمين نحو المدائن حتى حاصر بهرسير إحدى المدائن السبع، وكانت على الشاطئ الأيمن لدجلة. فى هذا الحصار أرسل يزدجرد رسولاً أشرف على المسلمين من فوق الأسوار وقال لهم: «إن الملك يقول لكم، هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم!» فأجاب أبو مفزر الأسود بن قطبة من صفوف المسلمين: «لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل إفريذين بأترج كوثى» (إفريذين على بحر قزوين، وكوثى بين دجلة والفرات، والأترج نوع من التمر).

وسقطت بهرسير فى أيدى المسلمين، فشرع يزدجرد ينقل كنوزه وأمواله ونساءه وحريمه وعياله من المدائن. فجعل بيت ماله فى النهروان، وأرسل عياله إلى حلوان على أكثر من ٢٠٠ كيلو متر من المدائن، وبقى بنفسه فى الإيوان بالمدائن ووكل أمر المعركة إلى مهران الرازى ونخيرجان معتصماً من المسلمين بدجلة وقد علا فيضانه. ولكن المسلمين فاجأوه بعبور غريب على ظهور الخيل فأصابه الذعر حتى خشى الخروج من أبواب القصر، فدلاه قومه فى زبيل (مقطف) من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض، ومضى هارباً إلى حلوان ومعه وجوه أساورته وما استطاع حمله مما بقى بالمدائن، وكان معه - على ما ذكر الثعالبى - ألف طباخ وألف مطرب وألف مدرب حيوانات وألف بازيار (عازف) فضلاً عمن سواهم.. واستولى سعد على المدائن.

مزيد من الهزائم

واصل جيش المسلمين زحفه فى أثر يزدجرد الذى أعاد حشد ما استطاع من قوات وضعها فى جلولاء على الطريق بين المدائن وحلوان. وبجلولاء دارت معركة من معارك الفتوح الكبيرة منى فيها الفرس بهزيمة أخرى. واستمر المسلمون فى تقدمهم، فلما بلغت أخبار الهزيمة يزدجرد وعلم بمصرع قائده مهران ووصول المسلمين إلى خانقين، خرج من حلوان سائراً فى الجبال شمالاً نحو الرى بشمالى إيران، وقد بعث خسروشنوم على ما بقى عنده من قوات لتعطيل المسلمين حتى يمعن فى الفرار. ودحر المسلمون هذه القوة وفتحوا حلوان وطهروا ما حولها فى دائرة بلغ نصف قطرها نحواً من مائتى كيلو متر.

وجعلوا ليزدجرد فى رحلته إلى الرى محملاً واحداً على ظهر بعيره، فكان من عجلته ورغبته فى سرعة الوصول ينام فيه أثناء السير دون أن ينزل. فاعترضتهم مخاضة وهو نائم فى محمله فأيقظوه حتى لا يفزع إذا خاض به البعير، فعنفهم وقال: بئس ما صنعتم! والله لو تركتمونى لعلمت ما مدة هذه الأمة. إنى رأيت فى المنام أنى ومحمداً تناجينا عند الله، فقال له: املكهم مائة سنة، فقال: زدنى، فقال: عشراً ومائة سنة، فقال: زدنى، فقال: عشرين ومائة سنة، فقال: زدنى، فقال: لك... وأنبهتمونى، فلو تركتمونى لعلمت ما مدة هذه الأمة.

وجاست جيوش المسلمين مملكة يزدجرد كالأسد يتناول من فريسته التى سقطت بين أنيابه ما يشاء، ففتحت ماسبذان والأهواز واستولت على الجزيرة ودحرت جيشاً كبيراً للمجوس بنهاوند قوامه مائة وخمسين ألفاً حشده يزدجرد من كافة أنحاء دولته وأمده بكل ما أتيح له من إمكانيات. ثم أمر عمر جيوش المسلمين بطلب جيوش العجم وتعقبها وسحقها حيث كانت. فمخرت أرض فارس من الغرب إلى الشرق على محورين أساسيين.. أحدهما من قاعدة البصرة، والثانى من جند الكوفة.

هوان

وصل يزدجرد إلى الرى وعليها حاكم من قبله يدعى آبان جاذويه استقبله، وقد هان فى عينه بعد ما منى به من هزائم، فانقض عليه فأخذه، فقال: يا آبان جاذويه تغدر بى؟ قال: لا،

ولكن قد تركت ملكك وصار فى يد غيرك فأردت أن أكتب على ما كان لى من شىء وما أردت غير ذلك.. وأخذ آبان من يزدجرد خاتمه عنوة، فكتب لنفسه بعض الوثائق والصكوك والسجلات بكل ما أعجبه وختمها بالخاتم ثم رده إليه. وأحس يزدجرد بمزيد من الهوان وعدم الأمان على نفسه إن بقى بالرى، فخرج منها إلى أصبهان.

واتجه المسلمون لفتح أصبهان فخرج منها يزدجرد إلى اصطخر. وأرسل المسلمون فى أثره عبدالله بن بديل بن ورقاء بعد فتح أصبهان لاتباعه فلم يقدر عليه. وكان مرزبان طبرستان قد أرسل إلى يزدجرد أن يأتيه وأخبره بحصانة بلاده، غير أن يزدجرد بدا له أن يلجأ إلى كرمان. وجلس ذات يوم وهو بكرمان، فدخل عليه مرزبانها فلم يكلمه يزدجرد تيهاً وكبراً، فأمر به فجروه من رجله وقال له: ما أنت بأهل لولاية قرية فضلاً عن الملك، ولو علم الله فيك خيراً ما صيرك إلى هذه الحال. فعاد يزدجرد يحس بهوان أكبر مما ناله فى الرى، فخرج من كرمان إلى سجستان فأكرمه ملكها وأعظمه. فلما مضت أيام سأله يزدجرد عن الخراج فتنكر له.

نهاية الطريق

ومرة أخرى خرج الملك الشريد من سجستان وسار إلى خراسان، فلما صار إلى حد مرو (فى الأراضى الروسية اليوم) استقبله مرزبانها ما هويه معظماً مبجلاً، وقدم عليه نيزك طرخان فرحب به وأعطاه وأكرمه، وأقام نيزك عند يزدجرد شهراً ثم رحل إلى عمله.. ويقال إن يزدجرد حين دخل مرو كان معه أربعة آلاف فارس لا يصلحون للقتال (ولو أصاب لقيل راكب فرس، فليس كل من ركب فرساً صار فارساً)، وكانوا من الكتاب والطباخين والفراشين والحريم وغيرهم من نساء وشيوخ وأطفال الأسرة الساسانية، ولكن لم يكن معه محارب واحد، ولم يكن معه من الموارد ما يفى بإعالة هذا العدد.

وكانت جيوش المسلمين مازالت تزحف وتفتح. ودخل الأحنف بن قيس خراسان وافتتح هراة عنوة ثم سار إلى مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور قوة استولت عليها كما استولت قواته على سرخس. فلما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد ونزل مرو الروذ، فاستولى الأحنف على مرو الشاهجان. لقد بلغ يزدجرد آخر حدود مملكته، فكتب وهو بمرو الروذ إلى خاقان الترك يستغيث به ويستمده، وكتب إلى ملك الصغد وإلى ملك الصين يستعينهما. وتقدم الأحنف بن قيس بالمسلمين من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ،

فاضطر يزدجرد إلى الخروج منها إلى بلخ. وسار المسلمون إلى بلخ والتقوا به فيها فانهزم يزدجرد وعبر بمن بقى معه من الفرس نهر جيحون إلى خاقان الترك، قبل أن يتسنى له ولا لملك الصغد إنجاده حتى عبر إليهما مهزوماً. وكان الملوك يرون على أنفسهم إنجاد الملوك، فأقبل خاقان الترك فى جيشه وحشر معه أهل فرغانة والصغد، ورجعوا ومعهم يزدجرد إلى خراسان وعبروا النهر إلى بلخ، ثم خرجوا منها فى جيش كبير إلى مرو الروذ حيث كان الأحنف فى جيش المسلمين الصغير. ولكن الترك انهارت معنوياتهم فى حرب لا شأن لهم بها فعادوا إلى بلخ. وتركهم يزدجرد بمرو الروذ واتجه بمن معه من الفرس إلى مرو الشاهجان حيث كانت خزائنه، فحاصر المسلمين واستخرج خزائنه من موضعها.

جواب ملك الصين

وعاد رسول يزدجرد إلى ملك الصين بهدايا وجواب وسألوه عما وراءه فقال: لما قدمت على ملك الصين بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون - وأراهم هديته! - ثم قال لى: قد عرفت أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصف لى صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإنى أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذى تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم.

فقلت: سلنى عما أحببت.

فقال: أيوفون بالعهد؟

قلت: نعم.

قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم؟

قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أوالجزية والمنعة، أو المنابذة.

قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟

قلت: أطوع قوم لمرشدهم.

قال: فما يحلون وما يحرمون؟ فأخبرته.

فقال: أيحرمون ما حلل لهم أو يحلون ما حرم عليهم؟

قلت: لا.

قال: فإن هؤلاء قوم لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم.. ثم قال: أخبرنى عن لباسهم، فأخبرته، وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العراب (الأصيلة) - ووصفتها - فقال: نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل وبروكهاوانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق.

وكتب معه إلى يزدجرد: «إنه لم يمنعنى أن أبعث إليك بجيش أوله عندك وآخره بالصين الجهالة بما يحقّ علىّ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لى رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدّوها، ولو خلى سربهم أزالونى ماداموا على ما وصف، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهجهم ما لم يهيجوك!».

انفضاض أنصاره

كانت الخزائن التى استعادها يزدجرد من مرو الشاهجان أمراً عظيماً من أموال أهل فارس، فأراد أن يحملها ويلحق بخاقان ليكون معه أو بالصين. ولكن الفرس الذين معه قالوا له: «مهلاً، فإن هذا رأى سوء، إنك إنما تأتى قوماً فى مملكتهم وتدع أرضك وقومك، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم (المسلمين) فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين، وهم يلون بلادنا، وإن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا فى بلاده ولا دين لهم، ولا ندرى ما وفاؤهم».

ورفض يزدجرد، فقالوا له: «فدع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يليها ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها». فأبى، فقالوا: «فإنا لا ندعك»، واعتزلوا وتركوه وكتبوا إلى الأحنف بن قيس، فجاء المسلمون لقتاله فأعجلوه عن أثقاله، فمضى لاجئاً حتى عبر النهر إلى فرغانة والترك، وغنم المسلمون خزائنه.

مصرع يزدجرد

وكتب نيزك طرخان إلى يزدجرد يخطب ابنته. فأحفظ ذلك يزدجرد وقال: «اكتبوا إليه إنما أنت عبد من عبيدى فما جرّأك على أن تخطب إلىّ؟!» وأمر بمحاسبة ماهويه مرزبان مرو وسأله عن الأموال، فكتب ماهويه إلى نيزك يحرضه عليه ويقول: «هذا الذى قدم مفلولاً طريداً

فمننت عليه ليرد عليه ملكه». وتكاتبا وتضافرا على قتله. وأقبل نيزك فى الأتراك حتى نزل الجنابذ، فحاربوه فتكافأت، وفى رواية إن يزدجرد أثخن فى الترك، وكان ما هويه يتظاهر بأنه معه، فلما خشى انهزام الترك انحاز إليهم فى أساورة مرو، فدارت الدائرة على يزدجرد وقتل أصحابه ونهب عسكره وعُقر فرسه عند المساء، فمضى ماشياً هارباً حتى انتهى إلى بيت طحان فيه رحى على شاطئ نهر المرغاب، فمكث فيه ليلتين وماهويه يبحث عنه، فلما أصبح اليوم الثانى دخل صاحب الرحى بيته ورأى يزدجرد بهيئته، قال: ما أنت؟ إنسى أو جنى!

قال: إنسى، فهل عندك طعام؟

قال: نعم.

فأتاه بطعام فأكل وبشراب فشرب حتى سكر. فلما كان المساء أخرج تاجه فوضعه على رأسه فبصر به الطحان فطمع فيه، فى رواية. وفى رواية أخرى أنه ذهب فأخبر إسواراً (ضابطاً) من الأساورة، فأدخله على ما هويه فقال: هذا يزدجرد، اذهبوا فجيئونى برأسه. فقال له الموبذ (رجل الدين المجوسى): ليس هذا لك، قد علمت أن الدين والملك مقترنان لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر، ومتى فعلت انتهكت الحرمة التى لا بعدها. وتكلم الناس وأعظموا ذلك، فشتمهم ماهويه وقال للأساورة: من تكلم فاقتلوه. وأمر عدداً منهم فذهبوا مع الطحان وأمرهم أن يقتلوا يزدجرد، فانطلقوا فلما رأوه كرهوا قتله، وتدافعوا لذلك فقالوا للطحان: ادخل فاقتله. فدخل عليه الطحان وهو نائم ومعه حجر فشدخ به رأسه ثم احتزه بفأس، وقيل بل قتله بالفأس، فدفعه إليهم وألقى جثته فى المرغاب.. وتختلف الروايات كثيراً فى كل جزئية من تفاصيل مصرع يزدجرد. وفى رواية أن ماهويه قال: «ما ينبغى لقاتل ملك أن يعيش». وأمر بالطحان فقتل. وفى رواية أخرى أن قوماً من أهل مرو خرجوا فقتلوا الطحان وهدموا رحاه.

وفى رواية أن يزدجرد وهو ببيت الطحان أُنذر برسل ماهويه وهم قادمون إليه فهرب ونزل الماء. فطُلب من الطحان فقال: قد خرج من بيتى. فوجدوه فى الماء، فقال: خلوا عنى أعطكم منطقتى وخاتمى وتاجى. فتغيبوا عنه. وسألهم شيئاً يأكل به خبزاً، فأعطاه بعضهم أربعة دراهم، فضحك وقال: لقد قيل لى إنك ستحتاج إلى أربعة دراهم وأضطر إلى أن يكون أكلى أكل الهر، فقد عاينت وجاءنى بحقيقته. ثم انتزع أحد قرطيه من أذنه فأعطاه الطحان مكافأة له لكتمانه عليه.

ثم أتاه رجال ماهويه وهجموا عليه، فقال لهم: «ويحكم! إنا لنجد فى كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق فى الدنيا مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلونى وآتونى الدهقان، أو سرحونى إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلى من الملوك».

فأخذوا ما كان عليه من الحلى فجعلوه فى جراب وختموا عليه، ثم خنقوه بوتر قوس وطرحوه فى نهر مرو (المرغاب).

الرثاء الوحيد

وحمل الماء جثة يزدجرد حتى فوهة الرزيق فتعلق بعود. وكان مطران مرو رجلاً من الأهواز اسمه إيلياء، وقد بلغه مقتل يزدجرد، فجمع من كان قبله من النصارى وقال لهم: «إن ملك الفرس قد قتل، وهو ابن شهريار بن كسرى، وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التى عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها من غير وجه، ولهذا الملك عنصر فى النصرانية مع ما نال النصارى فى ملك جده كسرى من الشرف، وقبل ذلك فى مملكة ملوك من أسلافه من الخير، حتى بنى لهم بعض البيع وسدد لهم بعض مِلّتهم، فينبغى لنا أن نحزن لقتل هذاالملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدّته شيرين، كان إلى النصارى، وقد رأيت أن أبنى له ناووساً (ضريحاً) وأحمل جثته فى كرامة حتى أواريها فيه».

فقال النصارى: «أمرنا لأمرك أيها المطران تبع، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون». فأمر المطران فبنى فى جوف بستان المطارنة بمرو ضريحاً، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفنها فى طيلسان له معطر بالمسك وجعلها فى تابوت من الخشب، وحمله من كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به قبره فواروه فيه وردموا بابه... وفى رواية لا نعقلها أنهم حملوه إلى إصطخر.

وكان مقتل يزدجرد عام واحد وثلاثين من الهجرة ولما يبلغ الثامنة والعشرين من عمره على ما تذهب إليه الروايات، ولكن إن صح أنه اعتلى عرش فارس عام ١٣هـ وهو فى الواحد والعشرين من عمره، لوجب أن يكون قد بلغ التاسعة والثلاثين عند مقتله، ولو صح أنه قتل عام ٣١هـ وهو ابن ٢٨ عاماً فإنه يكون قد ملك وهو ابن عشر سنوات.

وذكر المسعودى أنه كان ليزدجرد ابنان هما: بهرام وفيروز، وثلاث بنات هن: أدرج وشهربانو ومرداوند. وقد توفى فيروز فى الصين عام ٥٣هـ - ٦٧٢م بعد أن حاول عبثاً

استرجاع إيران بعون من جند الصين مع الاعتراف بسيادة ملكه. وفى رواية شيعية غير وثيقة أن شهربانو تزوجت الحسين بن على.. وفى ١١٠هـ= ٧٢٨ - ٧٢٩. تحالف أمير اسمه كسرى من نسل يزدجرد الثالث، مع الترك لكى يستردوا دولة آبائه، ولكنه لم يوفق.

وقد درج الفرس على بدء تقويمهم بتاريخ جلوس كل ملك، وإذ لم يل عرش إيران أحد بعد يزدجرد الثالث، فإن الزردشتيين قد استمروا حتى اليوم فى احتساب السنين تبعاً لسنة ارتقائه العرش، وهو ما يسمى بالتقويم اليزدجرى.

سعد فى المدينة

مرشح للخلافة

بقى سعد فى المدينة مع أمير المؤمنين عمر، وزيراً من وزرائه ومستشاراً من مستشاريه، حتى حدث ذات يوم أن اغتال أبو لؤلؤة المجوسى مولى المغيرة بن شعبة، عمر بن الخطاب فى صلاة الفجر وطعنه بخنجره عدة طعنات، فحملوه إلى بيته بين الحياة والموت. وطلب عمر من عبدالرحمن بن عوف أن يدعو له علياً وعثمان والزبير وسعد بن أبى وقاص. فلما حضروا قال لهم: «إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض.

إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس. فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم».

فلما قاموا لينصرفوا قال لهم: «لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً».

وراحوا يتداولون ويتناقشون وعلت أصواتهم، فصاح بهم عبدالله بن عمر:

«سبحان الله، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد».

فدعاهم عمر وقال لهم:

«ألا أعرضوا عن هذا أجمعين، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب. ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم. ويحضر عبدالله ابن عمر مشيراً ولا شىء له من الأمر، وطلحة شريككم فى الأمر - وكان غائباً - فإن قدم فى الأيام الثلاثة فاحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ومن لى بطلحة؟»

قال سعد: «أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله».

قال عمر: «أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلى إلا أحد هذين الرجلين: على أو

عثمان. فإن ولى عثمان فرجل فيه لين، وإن ولى على ففيه دعابة وأحر به أن يحملهم على طريق الحق. وإن تولوا سعداً فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن خيانة ولا ضعف. ونعم ذو الرأى عبدالرحمن بن عوف مسدد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه».

وانطلق عمر إلى جوار ربه، فانطلق سعد وعلى وعثمان وعبدالرحمن والزبير إلى داره فجهزوه، ثم حمله الناس إلى المسجد فصلوا عليه يؤمهم صهيب، فحمله الخمسة: سعد ورفاقه، ونزلوا به القبر. واجتمع رهط الشورى بحجرة عائشة، ونظر سعد فرأى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة يجلسان على بابها، فأقامهما وأبعدهما وقال لهما:

«تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى أهل الشورى!»

لم تكن المناقشات داخل الحجرة تسير سيراً حسناً، فقال عبدالرحمن بن عوف: «أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟»

فسكتوا. فقال عبدالرحمن: «أنا أنخلع منها».

ورضى الاخرون بذلك.

وبعد مفاوضات ومداولات بين عبدالرحمن وبين كل من إخوانه أهل الشورى، أعلن تولية عثمان بن عفان.

يعتزل الفتنة

وعزل عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص مرة أخرى فعاد إليها سعد، وكان عبدالله بن مسعود على بيت مالها. وحدث بين سعد وعبدالله سوء تفاهم غضب له عثمان فعزلهما، ورجع سعد إلى المدينة وبقى بها حتى اندلعت الفتنة وقتل عثمان، وسعد يحاول جهده تهدئتها، ثم بايع الناس علياً. واختار سعد لنفسه موقف الاعتزال وعدم المشاركة فيما وقع بين المسلمين من خلاف وفرقة، فلم يبايع علياً. وجاء هاشم بن عتبة إلى سعد يقول:

«يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر».

فقال سعد: «أريد من المائة سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً وإذا ضربت به الكافر قطع».

سعد يلقى الله

بقى سعد معتزلاً فى بيته بالعتيق على عشرة أميال من المدينة، فلما بلغ الثمانين أو الثمانية والسبعين من عمره - وهو الأرجح - وكان ذلك عام خمس وخمسين من الهجرة، وقد ضعف ومرض واشتد به الوجع، رأى ابنه مصعباً يبكى متأثراً من حاله، فقال له:

«ما يبكيك يا بنى؟ والله إن الله لا يعذبنى أبداً وإنى من أهل الجنة.. إيتونى بتلك الجبة الصوف التى قابلت بها المشركين يوم بدر، فما خبأتها إلا لهذا اليوم».

فلما جاؤوه بها قال: «كفنونى فيها».

وتوفى سعد، فجاء رجال من أهل المدينة فجهزوه وكفنوه فى جبته التى شهد بها بدراً، ثم حملوه على أكتافهم فصلوا عليه فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة. وطلب أزواج النبى ﷺ أن يدخل به إلى حجرهن وأن يترك بها ليصلين عليه. ثم دفنوه فى البقيع حيث دفن أكثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

وقد أحصى ابن حزم[1] ٢٧١ حديثاً رواها سعد عن رسول الله ﷺ، كما عده من أصحاب الفتيا.

(١) قادة فتح العراق والجزيرة - عن أسماء الصحابة وأصحاب الفتيا ملحقين بجوامع سيرة.

الباب التاسع

الباعث والمشروعية وعوامل النجاح

١- الباعث على حركة الفتح الإسلامى

كتاب مغرضون أم جهلاء

لم تكن حركة الفتوح حركة صغيرة أو ضعيفة الأثر فى تاريخ البشرية، وإنما كانت حركة سقطت بها ممالك واسعة وتهاوت عروش وتيجان، وتلاشت لغات وحلت محلها لغة أخرى، وانحسر ظل أديان ليقوم مقامها دين جديد. فحق علينا أن نتساءل عن البواعث وراء خروج العرب من شبه جزيرتهم لغزو ما غزوا.

ولم نكن ابتداء نظن أننا بحاجة إلى هذا التساؤل يقيناً منا بوضوح الباعث، غير أننا لاحظنا أن أقلام بعض المستشرقين وكُتاب الغرب المغرضة تزّاور عن الحق تحاول عبثاً أن تلوى عنانه حتى يتبع أهواءهم.

يقول جورج كاستلان[١] عن الجيش الإسلامى:

«... كان الجيش يتكون فى أساسه من قبائل البدو، وهمها السلب والمغامرة».

ويقول: «... قرر - الخليفة عمر - أن يترك الإدارات القائمة فى هذه البلاد - المفتوحة - كما هى، وأن يقتصر على الإبقاء عليها فى ظل الاحتلال العسكرى، فكانت الأقاليم تحكم بقواد استطاعوا أن ينشئوا حقاً مدناً حصينة يستطيعون أن يتجنبوا بها تفرق القوات، كالكوفة والبصرة فى العراق، والفسطاط فى مصر...»

ويقول آرثر كريستنسن[٢]، بعد أن استعرض فساد الأوضاع الداخلية فى فارس:

«... هذا هو حال إيران حين أغارت جيوش البدو السذج عبر الصحراء العربية يذكيها التعصب للدين وروح الغزو، وقد نظمها الخليفة عمر الحاكم الفذ لكى تغزو إيران فى روح لا يقاوم...»

---

(١) الجزية والخراج فى الإسلام ٤٨ و ٤٩.
(٢) موجز تاريخ الشرق الأوسط ٢٤.

ويقول: «... وبعد الفتح العربى لم يستطع الغزاة - رغم عنفهم - أن يستولوا على ما فى إيران من النقود التى جمعها ملوك الساسانيين، دون أن يتحالفوا مع الدهاقين».

ويقول دانيت كنيث[1]:

«... وقد لاحظ كايتانى مصيباً أن نية العرب لم تكن إسقاط إمبراطورية وإنما الحصول على الغنائم والأسلاب، وربما إلى جانب ذلك تحويل القبائل العربية فى المنطقة إلى الإسلام».

ويقول: «... هذا وقد كان تصرف خالد مبنياً على عاملين: أحدهما عملى والآخر قانونى، فقد كان جيشه صغيراً وكان هدفه الغنائم والأسلاب، وكانت معلوماته عن الحكومة أولية وفكرته عنها محدودة، لذلك كان تصرف خالد واقعاً عملياً وكانت أمامه السورة التاسعة آية ٢٩[2] مستنداً شرعياً».

ويقول جورج كيرك[3]:

«وكانت بعض جموع المسلمين قد خرجت فى عهد محمد فى غارة على بعض أطراف الدولة البيزنطية إلى ما وراء نهر الأردن من الجنوب فلقيت صدمة عنيفة. فلما انتخب الآن الخليفة الثانى عمر، قام قواده العظام بقيادة غارات كثيرة إلى فلسطين والشام والعراق ومصر، فكان ما لقوه من سهولة الإغارة وقلة المقاومة يعد من المدهشات. واستحال ما كان الغرض منه فى الأصل مجرد السطو والغنم - على نمط ما ألفه العرب - إلى غزوات وفتح دائم».

وغير كاستلان وكريستنسن ودانيت وكيرك كثير، ولا غرابة فى ذلك، ولكن العجب أن نجد من كتابنا العرب والمسلمين من ينساق فى غير تبصر وراء ترّهات أمثال هؤلاء. فنجد كاتباً عربياً مسلماً يتطوع فيقول[4]:

«لا نوافق بعض المستشرقين (يقصد المستشرق ايرفنج فى كتابه حياة محمد) فى قولهم: إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتح بالحماس الدينى، وإن الحروب التى قاموا بها تعتبر حروباً دينية.. فنحن لا نظن أن العرب - ومعظمهم من البدو - كانت تسودهم الروح الدينية

(١) الجزية والخراج فى الإسلام ٤٨ و٤٩.

(٢) يقصد قوله تعالى: ﴿ قاتِلُوا الَّذين لا يُؤْمِنُون بِاللَّهِ ولا بِالْيوْمِ الآخِرِ ولا يُحرِّمُون ما حرَّم اللَّهُ ورسُولُهُ ولا يدِينُون دِين الْحقِّ مِن الَّذِين أُوتُوا الْكتاب حتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْية عن يدٍ وهُمْ صاغِرُون ﴾.

(٣) موجز تاريخ الشرق الأوسط ٢٤.

(٤) التاريخ السياسى للدولة العربية - الدكتور عبدالمنعم ماجد.

والرغبة فى نشر الإسلام. فقد رأينا كيف انتقضت العرب وأنها لم ترجع إلى الإسلام إلا بحد السيف. ومهما تكن البواعث الدينية قوية عند الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين فى المدينة ومكة، فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوى - وهو الذى لا يهتم بالدين - لنشر الإسلام، بل جاء القرآن بنص صريح فى حرية العقيدة (لا إكراه فى الدين..)».

ثم يسترسل الكاتب ليصل إلى النتيجة التى أرادها، وهى أن العرب وقد ارتفعت معنوياتهم بالدين الجديد (الإسلام) أرادوا أن يلموا شمل جميع العناصر العربية حتى تلك التى كانت ماتزال تحت سيطرة الفرس أو بيزنطة، أو يحولوا من لم يسلم منهم إلى الدين العربى!! وإن هذا هو الذى جرّ إلى حركة الفتوح...

حقيقة حروب الردة

فأستاذ باحث كصاحب هذا الرأى كان حَرِيّاً به أن يعلم أن شبه الجزيرة دخلت فى الإسلام طائعة مختارة بعد فتح مكة، حين وفدت وفودها على النبى ﷺ عام ٩هـ تعلن إسلامها، حتى عرف ذلك بعام الوفود.. ونزل قوله تعالى: ﴿ ... وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾. فلما توفى النبى ﷺ انتقض من كل قبيلة كبير يتمرد على الحكم المركزى فى المدينة، بعضهم اقتصر على رفض سداد الزكاة وبعضهم ذهب إلى حد ادعاء النبوة، هؤلاء حملوا الناس - وأكثرهم كان حديث عهد بالإسلام - على الردة، وافتنّوا فى تعذيب من ثبت على إسلامه، فرضخوهم بالحجارة وأحرقوهم بالنار وخزقوهم بالسهام وألقوا بهم من شواهق الجبال. فإذا قام الخليفة أبو بكر رضى الله عنه ليقمع هذا التمرد ويحمى المسلمين ويقتص من المعتدين ويعيد الأمن والنظام إلى ربوع دولته، يأتى هذا «الأستاذ الباحث» بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، فيكتشف أن العرب ارتدت باختيارها وأنهم لم يعودوا إلى الإسلام إلا بحد السيف!.

ومع ذلك نقول - قفلاً لباب الجدل -: إن أبا بكر رضى الله عنه اشترط فى تعبئته لقوى الدولة وتجييش جيوش الفتح، ألا يغزو إلا مسلم لم تسبق له ردة.. ولم يُسمح للمرتدين - بعد أن ثبتت توبتهم وحسن إسلامهم - بالغزو إلا فى عهد عمر بن الخطاب، وبشرط ألا يتولوا رئاسات. فلا معنى إذاً ألا يصدق «الأستاذ» أن الغزاة الفاتحين كانت تحفزهم روح الدين.

ونشير إلى تلك النماذج الفريدة من أولئك المرتدين الذين عادوا إلى الإسلام وحاربوا تحت

لوائه. وما أظن القارئ، وهو يقلب صفحات هذا البحث من أوله إلى آخره، قد فاته أن يتابع بإعجاب شديد وتقدير لإيمانهم وحسن إسلامهم، مواقف أمثال طليحة بن خويلد وعمرو بن معدى كرب والأشعث بن قيس.. أما قوله: إن خروج العرب من شبه جزيرتهم للغزو إنما كان بهدف القومية، فهو نوع من مسايرة دعاوى حديثة فى زمن تأليف الكتاب، لم يكن لها وجود فى زمن الفتوح، أراد المؤلف أن يجعل منها رداء لحركة ارتدت فى عصرها زياً أبهى وأجمل على الدهر كله، منذ خلق الله الأرض ومن عليها إلى أن تقوم الساعة.. ومن المعلوم أن كافة الدعاوى القومية دعاوى حديثة لم تكن ولدت فى عصر الفتوح.

الدعوة إلى الله

إن القارئ لصفحات ذلك التاريخ ليجد أن الفاتحين كانوا دعاة قبل أن يكونوا غزاة.. دعا خالد هرمز إلى الإسلام أو الجزية قبل أن يقاتله. ودعا سعد بن أبى وقاص يزدجرد الثالث ودعا وزير حربه وقائد جيشه رستم. ومن قبل دعا رسول الله ﷺ كسرى برويز حين أرسل إلى هرقل الروم ومقوقس القبط بمصر وغيرهم. كتب النبى ﷺ إلى كسرى برويز مع عبدالله بن حذافة السهمى فى العام السادس من الهجرة[1]:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فمزق كسرى الكتاب، وبلغ ذلك رسول الله فقال: «مزّق الله ملكه».

فلم يكن اتجاه المسلمين بأبصارهم إلى خارج شبه الجزيرة من رسم أبى بكر، ولا كان فكرة ارتجالية وليدة الساعة نشأت متطورة عن حوادث قمع الردة. أبداً، وإنما بدأت فى حياة النبى عام ٦هـ - ٦٢٨م. ثم كانت غزوة مؤتة ٨هـ. وتبوك ٩هـ على تخوم الشام، وكذلك جيش

(١) الطبرى ٢ / ٦٥٤ عن محمد بن عمر.
وعن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن يزيد بن حبيب.
» » » » » عبدالله بن أبى بكر عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبدالرحمن بن عوف.

أسامة ١٠هـ. كانت هذه الغزوات والبعوث بدء الطَّرْق على أبواب جيران شبه الجزيرة. وقد بشر رسول الله ﷺ المسلمين أكثر من مرة أن الله سيفتح لهم أرض كسرى وقيصر. بشر سراقة بن جعشم حين أدركه فى تعقب قريش له يوم خرج مهاجراً من مكة وقال له:

«كيف بك يا سراقة إذا سُوِّرت بسوارى كسرى؟»

قال: «كسرى بن هرمز؟»

قال: «نعم».

وكتب له بذلك كتاباً. وتحقق موعود الرسول، فلبس سراقة سوارى كسرى بعد ستة عشر عاماً.

وأعاد النبى ﷺ ذكر هذه النبوءة وهو يحفر الخندق مع المسلمين حول المدينة فى غزوة الأحزاب... بشرهم بقصور الحيرة وقصور المدائن وقصور الروم وقصور صنعاء، وكان ذلك عام ٤ أو ٥ من الهجرة.

ويروى البخارى[1] عن عدى بن حاتم الطائى أنه قال:

«بَيْنَا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال النبى: يا عدى، هل رأيت الحيرة؟

قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها.

قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة (المرأة) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله.

فقلت - فيما بينى وبين نفسى - : فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد؟»

بل لقد كانت هذه النبوءات مستقرة فى القلوب والأذهان إلى الحد الذى جعل الكذابين الذين ادعوا النبوة قد تابعوها، فكان مما زعم طليحة بن خويلد أنه وحى يوحى به إليه قوله: «والحمام واليمام، والصُّرَد الصوام، قد صمن قبلكم بأعوام، ليبلغن ملكنا العراق والشام».

لم تكن قومية، ولم يكن الإسلام ليفرق بين عربى وعجمى، ورسول الله ﷺ هو الذى قال فى خطبة الوداع:

«... إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من

(١) شرح صحيح البخارى للكرمانى ٢ / ١٧٨.

تراب. لا فضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى».

فلا تعصب للأجناس ولا تعصب للألوان. لا مكان لذلك بين عقائد المسلمين. وإنما دأب الغزاة الفاتحون يقولون لأهل البلاد المفتوحة: «فإن أجبتم إلى الإسلام رجعنا عنكم ولكم ما لنا وعليكم ما علينا».

الإسلام تحرير من العبودية

كان جيش المسلمين أو جيش الفرس لافتة ساخنة عما وراءه. فى فارس حكم استبدادى ساحق يقوم على تأليه الفرد وعلى سلطانه المطلق المستمد من نظرية الحق الإلهى فى الملك، وعلى طبقات من المنتفعين المستبدين وأخرى من العبيد الأذلاء. وقد قام الإسلام للقضاء على ذلك وتحطيمه دون أن يقيم مكانه طبقة أخرى تتميز على من سواها من عباد الله. ميزة الإسلام على سائر الحركات التحررية والإصلاحية أنه حركة عقيدة ومبدأ، وأى عقيدة؟ المتصلة بالله التى تؤمن به وباليوم الآخر.. تؤمن بالبعث والحساب والجزاء.. حتى أن الفاتحين لم يجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة فوق أهل البلاد المفتوحة، وهو ما لم يحدث قط فى أى غزو آخر فى التاريخ.

لقد كان من أعجب الأحداث أن تنتقل عاصمة الخلافة بعد قليل، من شبه الجزيرة إلى عواصم بالبلاد المفتوحة فى الشام ثم فى العراق، وأن يقوم نظام الحكم والإدارة فى الدولة العباسية على عناصر من الفرس، وهو ما لم يكن ليحدث قط لولا أن عقيدة الفاتحين كانت تسمح بهذا بمساواتها التامة بين الناس، هذا مع ما للمدينة من قداسة خاصة لكونها مهبط الوحى، ولوجود قبر الرسول ﷺ ومسجده الذى تشد إليه الرحال بها، ولأنها موطن الأنصار ومهجر المهاجرين، ولدورها الخالد فى تثبيت دعائم الإسلام.. فلا أجناس متميزة البتة، وإنما باب مفتوح لمن شاء أن يدخل.. وحينئذ يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

لم تكن الفتوح إلا لحماية تبليغ الرسالة. فإذا أبى آلهة الدول والشعوب فتح باب تبليغها، فلا سبيل لمقاومة الصد عن سبيل الله بالقوة إلا بالقوة. ولذلك شرع الجهاد فى سبيل الله. الإسلام رسالة عالمية وليست عربية موضعية، فكان لابد لها من الخروج خارج جزيرة العرب. جاء الإسلام ديناً عاماً عالمياً وتمتاز شريعته بأنها عالمية أنزلها الله على رسوله ليبلغها إلى الناس كافة من عرب وعجم شرقيين وغربيين على اختلاف مشاربهم وتباين عاداتهم

وتقاليدهم وتاريخهم، فهى شريعة كل أسرة وشريعة كل قبيلة وشريعة كل جماعة وشريعة كل دولة[1]. ولن يعوزنا كثير من الأدلة للتدليل على عموم فكرة الإسلام، وحسبنا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

يقول عبدالرحمن تاج[2]: «فإنها شريعة خالدة وعامة. عامة فى المرسل إليهم تخاطب كل أصناف البشر، وعامة فى المرسل به، أى إنه روعى فيها حاجة الأمم فى جميع العصور، فوجب أن تكون أحكامها وافية بهذه الحاجة فى كل عصر وكل أمة».

فوجب إذاً، تبعاً لاعتبار فكرة الإسلام فكرة عامة للبشر كافة، أن ينشرها المسلمون خارج شبه جزيرتهم التى آمنت بها.. فى العراق وفى غير العراق. وكما اتجه المسلمون إلى غزو العراق ثم فارس، اتجهوا فى الوقت نفسه إلى الهند والصين، وغرباً حتى بلغوا أبواب فرنسا وأطراف إيطاليا. فلم تكن حوادث الردة وما أسفرت عنه حتى تطورت إلى دق أبواب العراق، لم تكن إلا المناسبة التى أثارت المسلمين نحو تحقيق هدفهم الذى أنزله الله على نبيه قبل ذلك بسنوات..

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه.
(٢) السياسة الشرعية والفقه الإسلامى ٥٣.

٢- مشروعية القتال (١)

الإسلام دين الرحمة

الإسلام شريعة السلام ودين المرحمة. واسمه مشتق من مادة السلام. والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من أن يكونوا المسلمين. وتحية أهله فيما بينهم السلام. وختام الصلاة عندهم سلام على اليمين وسلام على اليسار. وقد أنزل القرآن في ليلة وصفها بأنها سلام. ولن يتأخر المسلم عن الاستجابة لدعوة السلام ولن يردها أبداً عملاً بقوله تعالى:

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾(٢).

وليست فى الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعى فرض السلام تدريباً عملياً واعتبره شعيرة من شعائره وركناً من أركانه كما فرض السلام بالإحرام فى الحج، فمتى أهل المسلم فقد حرم عليه أن يقص ظفراً أو يحلق شعراً أو يقطع نباتاً أو يعضد شجراً أو يقتل حيواناً أو يرمى صيداً أو يؤذى أحداً بيده أو لسانه.

ومع ذلك، فإن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة دفاعاً عن النفس والوطن، أو لردع المعتدى وكف الظالم ونصرة الحق. والإسلام دين لا يفر من الواقع، ولذلك اعتبر الحرب شراً لابد منه، وعمل على تنظيم قواعدها وأحكامها.

أغراض الحرب فى الإسلام

لذلك حدد الإسلام أغراض الحرب بما لا يخرج عن الآتى:

١- رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والدين والوطن: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(٣). ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ

(١) مختصرة عن السلام فى الإسلام – حسن البنا.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٢.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾(١).

٢- تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون فتنتهم عن دينهم: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾(٢). ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾.

٣- حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً ويرفع الحجر عن بلوغها لكافتهم. فلابد أن تزول من طريق إبلاغها وبيانها كل عقبة، ثم يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ. وعلى ضوء هذا التحديد تكون معاملة الإسلام والمسلمين، فالمؤمنون إخوانهم والمعاهدون لهم عهدهم وأهل الذمة يوفى بذمتهم والمحاربون ينبذ إليهم، فإن عدلوا عن خصومتهم فبها وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم، حتى لا يكونوا عقبة فى طريق الدعوة أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها.. وليس فى هذا بتاتاً أى إكراه لهم على تدينهم بدين الإسلام، فالقرآن الكريم يقرر ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(٣). ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٤).

لقد كانت حركة الفتوح الإسلامية نوعاً من هذا.

٤- تأديب ناكثى العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين، المتمردة على أمر الله التى تأبى حكم العدل: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٥). ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾(٦).

٥- إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

(١) الحج: ٤٠.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٧.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية ٧٤.
(٥) التوبة: ١٢ – ١٣.
(٦) الحجرات: ٩.

يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١).

هذه أغراض إنسانية إصلاحية حقة. وكل ما سواها من المقاصد فإن الإسلام لا يجيز الحرب من أجلها بأى حال من الأحوال. وذلك واضح من إضافة لفظ «القتال» أو «الجهاد» المشروع دائماً إلى سبيل الله، فلا نجده إلا «القتال فى سبيل الله» أو «الجهاد فى سبيل الله».

ويقرر الإسلام إيثار السلم ما أمكن. فالمسلم لا يحارب إلا مكرهاً على القتال بعد استنفاد الوسائل السلمية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٢).

ويؤكد الإسلام الأخذ بالرحمة فى الحرب ومراعاة آدابها الإنسانية. فإذا رجحت كفة المسلمين وظهرت الغلبة لهم فعليهم - بحكم القرآن - أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر، ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته أو يفتدوا به أساراهم: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾(٣). والمسلم فى قتاله لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا يمثل بقتيل ولا يقتل امرأة ولا طفلاً ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين ولا يقصد أن يضرب وجهًا، وقد ورد نهى عن ذلك كله. كما فرض الإسلام الوفاء بالعهود والمواثيق والشروط: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٤). ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾(٥).

الجزية

أما عن الجزية فقد أولع خصوم الإسلام بالخوض فيها. والجزية ضريبة تجبى على الأشخاص نظير مقابل وهو الحماية والمنعة والإعفاء من ضريبة الدم، فهى أشبه بالبدلية. وقد قرر الإسلام الجزية على غير المسلمين فى البلاد المفتوحة مقابل حراسة أوطانهم وأموالهم والدفاع عنها فى

---

(١) الأنفال: ٧٢.
(٢) الأنفال: ٦١.
(٣) سورة محمد، الآية ٤.
(٤) التوبة: ٤.
(٥) الإسراء: ٣٤.

الوقت الذى أعفاهم من الجندية تخفيفاً عليهم ورحمة بهم، ومن باب عدم إحراجهم بالدفاع فى صفوف المسلمين عن عقيدة لم يؤمنوا بها. فالجزية امتياز فى صورة ضريبة، كما أنها احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوى العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة. وقد جرى العمل فى كثير من البلاد التى فتحها المسلمون، أنهم إذا تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية وفى حمص رد أمراء الجند، بأمر أبى عبيدة بن الجراح، ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها حين جلوا عنها لقتال الروم، وقالوا لهم: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك الآن. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم؟».

فكان جوابهم: «ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء، لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم». وكذلك فعل مع أهل دمشق.

هل انتشر الإسلام بالسيف؟ (١)

هذا اتهام باطل أغرم خصوم الإسلام بتوجيهه إليه، ويظهر هذا البطلان من ثلاثة أوجه:

١- باطل بشهادة التاريخ وواقعه. فقد لبث النبى ﷺ والمسلمون يُضطهدون ويضطهد دينهم فى مكة ثلاث عشرة سنة، لا يقابلون أهل العدوان بسيف ولا عصا إلا الصبر على الأذى. ولم يأذن الإسلام بالقتال إلا فى السنة الثانية من الهجرة، ليدفع عن المسلمين كيد المشركين واليهود.

كذلك فتح الصحابة البلاد بدينهم وبأخلاقهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم. ولا يعقل أن ثمانية آلاف من المسلمين يفتحون مصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وأدبهم وحضارتهم بالإكراه والجبروت. وقد رأينا فيما تقدم أن كثيراً من أهل البلاد المفتوحة كانوا يتمنون عودة المسلمين إليهم بعد جلائهم عنهم.

٢- وباطل بآيات القرآن الكريم التى تقرر حرية العقيدة. ولم يكن المسلمون منفصلين عن قرآنهم، كما نجد كثيراً من ذوى السلطان منفصلين عن ما يعلنون من قوانين ومبادئ: ﴿ لا

---

(١) السلام فى الإسلام - حسن البنا.

إكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(١) . ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(٢) . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾(٣) . وهذا إلزام للمؤمنين إن استجار بهم أحد من المشركين أن يبلغوه الدعوة ويوضحوا له مقاصد الإسلام ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمنه ويتركوه، حتى إذا أسلم كان ذلك عن رغبة واقتناع لا عن خوف ورهبة وإكراه وترويع .

٣- وباطل لأن قواعد الإسلام وما جرى عليه العمل منها تأباها . فأساس الإيمان فى الإسلام النظر والفكر واطمئنان القلب . وأساس المؤاخذة بلوغ الدعوة على وجه يدعو إلى النظر . والتقليد فى الإيمان ليس أساساً صحيحاً فضلاً عن الإكراه .

وقول المكره فى الإسلام مردود عليه ولا يؤاخذ على عمله . فالدين الذى يقوم على العقل والحرية لا يمكن أن ينتشر بالسيف والإكراه . فإن كان قد شرع الحرب والقتال فلما تقدم من أغراض لا ينكرها إلا مكابر . وعلامة الإيمان الحق الاطمئنان إليه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(٤) .

خلاصة القول : إنه وإن كانت البلاد والممالك قد فتحت بالسيف، وهذا حق، فإن الإسلام كدين لم ينتشر بالسيف، وإنما بالإيمان والاقتناع وانفتاح القلوب وانشراح الصدور له .

الحرب والشرائع السابقة

ليس الإسلام وحده هو الذى أشار إلى القتال والحرب والجهاد كوسيلة لحماية الحق، بل إن الشرائع السابقة واللاحقة كلها جاءت بذلك .

فأسفار التوراة التى يتداولها اليهود وتعترف بها الطوائف المسيحية طافحة بأنباء القتال والحرب والتخريب والتدمير والهلاك والسبى، وهى تقرر شريعة القتال والحرب والتخريب بما لا نجد له مثيلاً فى الإسلام . فقد جاء فى سفر التثنية بالاصحاح ٢٠ عدد ١٠ وما بعده ما نصه :

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٦ .
(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩ .
(٣) التوبة : ٦ .
(٤) الرعد : ٢٨ - ٢٩ .

«حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ذلك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، فإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً - الحيثيين والأموريين والمنعانيين والفيرزيين والحويين والبوسيين - كما أمرك الرب إلهك» .

وفى إنجيل متى المتداول بأيدى النصارى فى الاصحاح العاشر عدد ٢٥ وما بعده يقول :

«لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض بل سيفاً . فإننى جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حماتها . . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها» .

والقانون الدولى العصرى قد اعترف بالظروف والأحوال التى تشرع فيها الحرب ووضع لها قواعد ونظمها . وما جاء به الإسلام أفضل وأدق وأرحم .

هذا وقد كان الإسلام أول وأكمل تشريع خطا فى سبيل إقرار السلام العالمى أوسع الخطوات ووضع لذلك ضمانات :

١- تقديس معنى الإخاء بين الناس والقضاء على روح التعصب .

٢- الإشادة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح، وفرض الوفاء وتحريم الغدر ونقض العهود .

٣- حصر فكرة الحروب فى أضيق الحدود وتحريم العدوان بكل صوره وإشاعة العدل واحترام القانون حتى فى الحرب نفسها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١) .

٤- بعد كل ما تقدم فالتأمين المسلح هو أفضل ضمان للسلام ورد العدوان .

(١) سورة المائدة، الآية ٨ .

٣- عوامل نجاح الفتح

تكمن العوامل التى أدت إلى نجاح حركة الفتوح الإسلامية تفصيلاً فى كل معركة خاضها المسلمون وفى كل خطوة خطوها، مما عنى هذا البحث بتبيانه. ونتناول فى هذا الفصل إجمال ذلك، بعد أن فصلناه فى مواضعه من الكتابين الأول والثانى، «الطريق إلى المدائن» و«القادسية».

مزاعم

ذهب بعض الكتّاب فى تعليل هذه الظاهرة الفريدة فى التاريخ مذاهب خاطئة.. فمنهم من زعم عوامل لا تمت إلى الصواب بأدنى صلة، ومنهم من جسّم عوامل أقل شأنا من أن تكون هى الحاسمة، فجعل منها قطب الرحى فى تعليل ذلك الظفر الذى أحرزه المسلمون. وهم فى هذا وذاك ينصرفون عمداً أو عفواً عن العامل الحاسم الفعال الذى له سيطرته دائماً على ميدان المعركة.

العصبية العربية

يرجع بعضهم ذلك النجاح إلى أسباب عصبية، فيذهب إلى أن عرب الحيرة وعرب الشام - وإن كانوا على غير دين عرب شبه الجزيرة - إلا أنهم كانوا يشعرون بأن العرب قومهم وفئتهم التى يرجعون إليها[1]. ولذلك فقد مهدوا للفتح سبيله وأعانوا عليه بما مكن للمسلمين من عدوهم. ويبدو هذا الرأى اتفاقاً مع الرأى القائل بأن القومية كانت هى الباعث على حركة الفتح.

(١) قال بذلك كثيرون، منهم: جورج كيرك فى «موجز تاريخ الشرق الأوسط»، وعبدالوهاب النجار فى «الخلفاء الراشدون»، والعقيد محمد فرج فى «المثنى بن حارثة الشيبانى» وفى «الفتح العربى للعراق وفارس»، ومحمد حسين هيكل فى «الصديق أبو بكر»، ومحمد أحمد حسونة فى «الجغرافيا التاريخية الإسلامية»، وعبدالحميد جودة السحار فى «سعد ابن أبى وقاص».

وهذا قول يناقضه الواقع التاريخى وينفيه. ولقد وجدنا فى هذه الصفحات أن عرب العراق كانوا يقاتلون إلى جانب الفرس فى كثير من الأحيان، كما كانوا يقاتلون المسلمين منفردين أحياناً أخرى. وجدناهم إلى جانب الفرس يقودهم أندر زغر[1] فى الولجة فى صفر ١٢هـ، وهزمهم المسلمون وأكثروا فيهم القتل. ثم وجدناهم يجتمعون مرة أخرى فى أليس[2] فى نفس الشهر، عليهم رؤساؤهم جابر بن بجير وعبدالأسود العجلى ومالك بن قيس، على بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة، فكان هؤلاء العرب هم ميمنة الجيش وميسرته وكان قلبه من الفرس يقودهم جميعاً جابان الفارسى ضد خالد بن الوليد. وهزمهم المسلمون يقودهم خالد.

واتجه خالد نحو الحيرة ليفتحها، وتحصن أهلها العرب فى أربعة حصون يرمون المسلمين. وحاصرهم خالد وقد انسحب الفرس عنهم حتى أنزلهم على حكمه، وطلبوا الصلح فصالحهم على الجزية فى ربيع الأول ١٢هـ. وأن فى كلام خالد لهم ما يؤكد نفى ذلك الزعم، إذ يقول لهم[3]: «ويحكم ما أنتم؟ أعرب فما تنقمون من العرب، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل». ثم حدث بعد خروج خالد إلى الشام أن نقضوا عهدهم.

وتكاتب الفرس وعرب الجزيرة وتجمعوا فى شمال العراق لقتال المسلمين، وسار إليهم خالد وقاتلهم فى الأنبار[4] وفى عين التمر، وكان عليهم عقة بن أبى عقة، وهزمهم خالد. ثم خرج إلى دومة الجندل فحاصرها وفتحها عنوة وعاد إلى الحيرة وخرج منها حيث التحم بالفرس فى حصيد[5] والخنافس ثم بالعرب الموالين لهم الذين احتشدوا لنصرتهم فى المصيخ، وكان عليهم الهذيل، فأبادهم خالد. ثم أغار على عرب تغلب الموالية للفرس فى الثنى ثم فى الزميل، وعليهم ربيعة بن بجير، فأبادهم بها. ثم علم خالد أن جمعاً آخر من العرب أيضاً يتجمع له فى الرضاب، وما أن سار إليهم حتى انفضوا خوفاً قبل أن يدركهم. ثم اتجه إلى الفراض وقد اجتمعت بها قوات مشتركة من الروم والفرس والعرب غير المسلمين، فاشتبك معهم جميعاً وهزمهم.

(١) الطريق إلى المدائن ١٨٤.
(٢) الطريق إلى المدائن ١٨٧.
(٣) الطريق إلى المدائن ٢٠٣.
(٤) الطريق إلى المدائن ٢٢٦، ٢٣٠.
(٥) الطريق إلى المدائن ٢٤٠، ٢٤٩.

وحين زحف سعد بن أبى وقاص نحو العراق بعد ذلك، كان مما كتب إلى عمر فى عام ١٥هـ: «... وإن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلى ألب(١) لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا...».

فأى عون هذا الذى قدمه عرب العراق لأبناء عمومتهم عرب شبه الجزيرة؟ وأية عصبية تلك التى يتحدث عنها أولئك الكتاب المؤلفون؟ إنها موقعة واحدة فى البويب التى وردت عنها رواية (فى الطبرى) تقول: إن عرباً من نصارى تغلب عليهم أنس بن هلال النمرى حاربوا الفرس مع المثنى، وإن أحد هؤلاء النصارى هو الذى قتل مهران. ولم تذكر هذه الرواية عددهم حتى نستطيع أن نتبين إن كانوا قوة حقيقية أو قوة رمزية. غير أن الأحداث كلها تؤكد أن هذا الحادث - جدلاً على فرض حدوثه - لم يتكرر قط لا قبلها ولا بعدها، فهو إن صح يكون أقرب إلى الحوادث الفردية التى يستحيل أن يؤخذ بها على أنه اتجاه عام يبرر لنا نجاح الفتوح. هذا فى حين أن ذلك الحادث لم يصح، بل تنفيه كل الأحداث الأخرى.

إننا نجد فى مصادرنا التاريخية والمراجع والأمهات ما ينفى تلك الواقعة، فنجد أن البلاذرى لم يذكرها بتاتاً لا تصريحاً ولا تلميحاً. وفى جمهرة أنساب العرب لابن حزم، أن المثنى بن حارثة هو الذى قتل مهران(٢). وفى فتوح البلدان (٣) أن جرير بن عبدالله والمنذر بن حسان الضبى هما اللذان قتلا مهران. وقد أورد ابن حجر العسقلانى فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» ترجمة تحت اسم أنس بن هلال النميرى، فنسبه إلى نمير وليس إلى نمر. فإن كانت نمر من تغلب وكانت تغلب من نصارى العرب القاطنين بالجزيرة بشمال العراق، فلم تكن نمير كذلك وإنما نجد فى قبائل العرب بطنين تحملان اسم نمير، فنمير الأولى كانت من عامر بن صعصعة من هوازن من قيس عيلان، وكانت مساكنهم بنجد إلى الشرق من مكة والمدينة، وقد أسلمت كافة شبه الجزيرة قبل الفتوح، فنمير هذه كانت من المسلمين بكل تأكيد. أما نمير الثانية فهى التى نرجح أن ينتسب إليها أنس بن هلال إذ إنها من بجيلة. ولقد أكدت الرواية التى ذكرت أنس بن هلال أنه كان تحت قيادة جرير بن عبدالله البجلى أمير بجيلة، وكانوا مسلمين. وقد ذكر ابن حجر أنس بن هلال فى القسم الذى نفى عنه صحبة النبى ﷺ

(١) الألب: القوم تجمعهم عداوة واحد. ألب يألب: تجمع وتحشد، وألب بينهم: أفسد بينهم. (المنجد).
(٢) الفتح العربى للعراق وفارس ١٤٨.
(٣) فتوح البلدان ٦٣٠.

ثم قال إن عمر بن الخطاب أمد به المثنى بن حارثة فى فتوح العراق وإنه استشهد مع أخيه مسعود بن حارثة يوم البويب. فهو بهذا يؤكد أنه نفس الشخص المذكور فى رواية الطبرى ونفى عنه النصرانية وأكد أنه من المسلمين، ولكنه لا تثبت له صحبة للنبى ﷺ(١).

روايتان أخريان أوردهما الطبرى فى معرض معركة القادسية، الأولى تقول: إن أناساً من الحمراء استجابوا للمسلمين فأعانوهم، أسلم بعضهم قبل القتال وأسلم بعضهم بعده، فأشركوا فى الغنيمة وفرضت لهم فرائض أهل القادسية ألفين ألفين، وسألوا عن أمنع قبائل العرب(٢) فكانوا مع تميم. والثانية عن بعد معركة القادسية تقول: «قال الديلم ورؤساء أهل المسالح الذين استجابوا للمسلمين وقاتلوا معهم على غير الإسلام: إخواننا الذين دخلوا فى هذا الأمر من أول الشأن أصوب منا وخير، ولا والله لا يفلح أهل فارس بعد رستم إلا من دخل فى هذا الأمر منهم فأسلموا..»(٣).

وقد أيد البلاذرى هذه الروايات، فروى رواية عن انحياز أربعة آلاف من الديلم إلى المسلمين بعد مقتل رستم(٤). هذه الرواية وتلك وما أيدهما لا تتحدثان عن عرب العراق، وإنما تتناولان أقواماً من الديلم والعجم لم يكونوا من العرب، فهما تنصبان على من آمن من المجوس بالإسلام إيماناً حقاً من أول الأمر، مثل مسلم وضخم وعَشَنَق، أو إيمان صدق أو مصلحة بعد الفتح، فهما نصان على تضعضع الجبهة المجوسية أمام زحف الإسلام ولا تذكران شيئاً عن نصارى العرب.

فإذا أسلمت بطون من أياد وتغلب والنمر وانحازت إلى المسلمين فى فتح تكريت، فقد كان ذلك مؤخراً عام ١٦هـ بعد القادسية وبعد فتح المدائن. بعد انهيار الدولة فقط بدأ إسلام من أسلم من قبائل العرب من تغلب وأياد والنمر، وبدأ تعاونهم مع جيش سعد. ولا يمكن بأى حال أن يعتبر ذلك الحادث المتأخر فى زمنه سبباً يفسر لنا انتصار المسلمين السابق عليه.

هذا العامل من عوامل نجاح الفتوح ننفيه وننكره ونعيب على أصحابه أن تبعوا المستشرقين على غير بصيرة وبينة، فقالوا به وخالفوا به الواقع وناقضوا أحداث التاريخ الثابتة وما فصلته المصادر.

(١) الإصابة ٤٩١.
(٢) الطبرى ٤ / ١٠٢ س ش س عن أبى عمرو عن أبى عثمان النهدى.
(٣) الطبرى ٤ / ١٣٤ س ش س عن محمد وطلحة وزياد.
(٤) فتوح البلدان ٧٠٨ عن أبى مسعود الكوفى عن بعض الكوفيين عن مسعد بن كدام.
فتوح البلدان ٧٠٩ عن المدائنى.

اختلال أحوال فارس

سبباً آخر يذكرون فى تعليل نجاح الفتوح، هو ما كانت عليه أحوال فارس والروم من الاختلال الداخلى، وإن حال كل من الدولتين كان فى انحطاط وتدهور.

يقول جورج كيرك[1]: «ويعزو مؤرخو العرب ما أحرزه أسلافهم من هذه الانتصارات العظيمة إلى الروح التى نفحهم بها الإسلام. ومع أننا لا ننكر أن الدين الجديد قد كان له أكبر الأثر فى إيجاد رابطة اجتماعية جمعت لمدة ما شمل تلك القبائل المتدابرة، فإن العامل الأساسى فى تيسير فتوح العرب إنما كان فى ضعف القوات التى وقفت فى طريقهم». وبمثل ذلك أيضاً قال كريستنسن.

وهو عامل لا ننكره وإن كنا لا نتعدى به حدوده المعقولة وآثاره المقبولة. نعم لقد كانت ملوكهم هدفاً للانقلابات والقتل وأن تُفقأ أعينهم وتقطع أوصالهم، وهذا هو ما عناه الكتّاب باختلال أحوال الدولة الداخلية. ولكن هذا العامل لا يتعدى ما يحدثه فى أرض المعركة وميدانها والمتعاركين فيها مادياً ومعنوياً، ولا يجوز التجاوز بذلك عن هذه الحدود. وباستقراء المعارك التى دارت على أرض العراق، نجد أن خالداً هَزَم فى أول الأمر هرمز أمير الأبلة فى كاظمة ولم تكن للخلافات الداخلية بفارس دخل فى ذلك. ثم علمت المدائن بزحف خالد فأرسلت جيشاً يقوده قارن ضم إليه فلول كاظمة، وانتصر عليه خالد بالمذار. ووصل الخبر إلى شيرويه الملك بالمدائن، فأخرج جيشاً آخر يقوده أندرزغر وأرسل وراءه مدداً عليه بهمن جاذويه، ولم تقصر المدائن فى شيء ومع ذلك انتصر خالد على أندرزغر قبل أن يدركه جيش بهمن. وقدم بهمن مقدمته يقودها جابان إلى أليس على الفرات، ورجع هو إلى المدائن لمقابلة الملك فوجده مريضاً فبقى إلى جانبه، والتحم جابان مع خالد فهزمه[2] خالد.

وزحف خالد نحو الحيرة. وهنا مات شيرويه وانسحب مرزبان الحيرة بجيشه إلى ما وراء الفرات، فحاصر خالد حصون الحيرة وحارب أهلها حتى استسلمت له، وربما كانت هذه أول مرة نجد للظروف الداخلية فى المدائن (موت الملك) أثراً فى المعارك، ولكنه ليس بحجة فى الهزيمة. ولو جاز لنا أن نحتج بهذا لجاز لنا أن نتوقع هزائم للمسلمين بعد وفاة الخليفة أبى بكر مثلاً، ولكن أحداً لم يقل بذلك ولم يحدث. ثم شغلت الأحداث الداخلية الفرس فترة

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ٢٤.

(٢) كافة التفاصيل فى «الطريق إلى المدائن».

عن القيام بهجوم مضاد على المسلمين، بينما حالت ظروف أخرى بين المسلمين وبين الاستمرار فى الغزو، فهدأت العمليات بعض الوقت حين انتظر خالد قدوم عياض.

ثم اتجه خالد شمالاً ففتح الأنبار، وكان حماتها من العرب يرأسهم القائد الفارسى شيرزاد. واتجه بعدها إلى عين التمر حيث اجتمعت بها جموع كبيرة من الفرس والعرب الموالين لهم، ففتحها ثم اتجه إلى فتح دومة الجندل وعاد إلى الحيرة. وكان الفرس وعرب الجزيرة قد اتفقوا، فتجمع العرب فى مسالحهم وخرج جيش فارس من بغداد فى اتجاه الأنبار، والتحم المسلمون بهذه الجموع الجمع تلو الجمع، وهزمهم جميعاً فى حصيد ثم الخنافس ثم المصيخ ثم الثنى والزميل والفراض.

بعد ذلك خرج خالد بنصف الجيش نحو الشام وبقى النصف الثانى بقيادة المثنى، فأخرج له شهربراز جيشاً فارسياً من عشرة آلاف ومعه فيل عليهم هرمز جاذويه، فهزمه المثنى فى بابل وكان فى تسعة آلاف. وهنا قامت فتنة فى بلاط فارس أتاحت للمسلمين هدنة اتجه المثنى خلالها إلى المدينة وأقنع الخليفة أبا بكر بإرسال مدد. وتوفى أبو بكر رضى الله عنه وولى الخلافة عمر، ولم يحدث هذا أى أثر على حركة الفتوح، فأرسل عمر أبا عبيد على مدد جديد.

وولى رستم شئون الحرب والقيادة العامة فى فارس، فأخرج جيشين من وسط السواد إلى أسفل العراق وإلى جهة الحيرة، والتحم أبو عبيدة بالجيش الأخير وهزمه فى النمارق، ثم بالجيش الآخر وهزمه فى السقاطية، ثم تحرك من فوره لمصادمة جيش ثالث خرج مدداً للجيشين الأولين فهزمه أيضاً. وبعث رستم ثمانين ألفاً معهم عشرون فيلاً بقيادة بهمن جاذويه، والتقى بالمسلمين فى المروحة، فانتصر الفرس وقتلوا أبا عبيد، وانسحب المثنى بمن بقى إلى الصحراء حتى أمده عمر بحشود جديدة فى حين أخرج له الفرس مهران فى جيش كثيف دعمه رستم بكل طاقات فارس، فهزمه المثنى فى البويب، وراح بعدها يغير على أنحاء العراق.

وأخيراً ولى ملك فارس يزدجرد الثالث، وبولايته انتهت الخلافات الداخلية فى فارس، وتبارى الجميع فى طاعته. وأثار رستم أهل السواد بالمسلمين ووجه إليهم جيوشاً فى جهات مختلفة، فانسحب المثنى إلى تخوم البادية دون أن يشتبك حرصاً على قواته، وطلب المدد من عمر، فأرسل سعد بن أبى وقاص الذى خاض معركة حاسمة فى القادسية بقوة قوامها أكثر من

ثلاثين ألفاً هزم بهم جيشاً مجوسياً قوامه مائتين وأربعين ألفاً يقوده رستم بنفسه.

فلئن قامت أحوال فارس الداخلية عذراً جزئياً لبعض انتصارات المسلمين وهزائم المجوس، وسلمنا بذلك جدلاً. فقد حدثت معركة القادسية الحاسمة ثم جلولاء، وكذلك معركة نهاوند والفرس مجتمعون، قد عبأوا كل طاقاتهم لحرب المسلمين ودفع غزوهم.. وقعت وقد هدأت الفتن فى بلاط فارس، واجتمع ساسة العجم منشرحة صدورهم حول يزدجرد متساندين لدفع ذلك الخطر الداهم. حينئذ انقصم ظهرهم وتم ضرب القوة الأساسية لهم، وانفتحت أبواب ديارهم ليستولى المسلمون على كل شيء فيها، حتى إيوان كسرى بما حوى على تاجه وثيابه ودروعه وأسيافه وبسطه وفرشه وتحفه وجناته ونعيمه كله. يقول[1] العقاد: «.. وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين».

من هذه الزاوية، زاوية حشد جيوش ذات أعداد ضخمة من المقاتلين وتجهيزها بالعتاد والعدة والانفاق عليها وتوجيهها لصد الغزو ومقاومة الفتح، نخلص إلى أن الخلافات الداخلية للتنازع على السلطة فى فارس لم يكن لها الأثر الفعال فى هذا الشأن. فإن كان أثر فهو محدود للغاية، ولا يبرر بأى حال نجاح المسلمين الساحق فى إسقاط الدولة الساسانية.

الظلم يقوض الدول

غير أن هناك أمر آخر فى الكيان الفارسى، لابد وأن يكون له أثره المحسوس على ميادين القتال، هذا العامل الخفى كثيراً ما يتواجد في كيانات أخرى غير الكيان الفارسى فيحدث فيها نفس الأثر تماماً كما تحدث الميكروبات وأنواع الفطر المخربة وآثارها المدمرة على الأجسام التى تحل عليها.

لقد مر بنا فى «الطريق إلى المدائن» أن المجتمع الفارسى قام على نظام طبقى ظهرت فيه سبع طبقات هى الملوك والعائلات السبع الممتازة ورجال الدين والأساورة الفرسان وكتاب الدواوين والدهاقين رؤساء القرى، وأخيراً طبقة عموم الشعب. الطبقتان الأولى والثانية، هى التى كان منها قائد الجيش والقادة الكبار مثل قواد الميمنة والميسرة والمقدمة والفرسان. أما رجال الدين فلم يكن لهم فى القتال إلا التحريض وبعض المراسم، كحمل النار المقدسة مع الحملة وإطلاق

(1) عبقرية خالد ٩.

أول سهم. فى حين كان الفرسان هم عماد الجيش وقطب الرحى فيه، ولم يكن لكتاب الدواوين ولا الدهاقين وجود فى صفوف المقاتلين، غير أن الدهاقين كان عليهم المعول فى جمع الفلاحين للتجنيد الإجبارى، ولقد وجدناهم دائماً فى أماكن مسئولياتهم يعرضون صلحاً أو يطلبون أماناً أو يعقدون جسراً أو يقدمون شيئاً من الأطعمة والعلف للغالب، فكانوا كما قال عنهم عمرو بن عبدالمسيح: «إنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب».

كانوا كأى مسئول مدنى فى إقليمه الصغير حين تجتاحه جحافل الغزاة. أما الطبقة السابعة فهى جمهور الشعب، ومنهم كان مشاة الجيش وهم كثرته العددية وكانت مؤخرة الجيش دائماً منهم، وكثيراً ما كانوا يُربطون بالسلاسل للحيلولة دون فرارهم، ويؤخذون إلى القتال دون تدريب كاف.

فإذا أردنا أن نرى جيش الفرس فى ضوء هذه الطبقات وجدنا:

١- قيادة عليا من أفراد قلائل معدودة من أعلى الطبقات.

٢- فرساناً من الأسر الممتازة كانوا غالباً من ملاك الأراضى وكانوا معافين من الضرائب. هؤلاء كانوا من المنتفعين الحقيقيين بالنظام القائم فى الدولة.

٣- مشاة من الفلاحين البؤساء الذين لا ناقة لهم ولا جمل فى شيء من هذه الحروب ولا يعود عليهم أى نفع فى حالة النصر ولا يتقاضون على تجنيدهم أجراً ولا حتى كلمة شكر.

الفرسان من المترفين، والمترفون من أحرص الناس على حياة.

والمشاة من البائسين، والبائسون لا صالح لهم فى الموت فداء لأسيادهم.

ولقد كانت الضرائب فادحة يقع عبؤها على عاتق عامة الشعب الفقراء وحدهم، فى حين أعفى منها الطبقات الممتازة القادرة فعلاً على الدفع.

كما بلغت القوانين حداً من الصرامة يتجاوز الحدود المقبولة، كانت تصل فى عقاب جرائم معارضة الملك أو الخروج على الدين المجوسى إلى الإعدام، بتقطيع الأوصال عضواً عضواً أو سلخ الوجه أو سَمْل العيون بإبر محماة بالنار... ويبدو أن هذه العقوبات قد بدأ العمل بها من وقت مبكر، وربما صاحبت بدء قيام الدولة الساسانية نفسها منذ عام ٢١٢م. ومما يروى أن «مانى» نبى المانوية الذى ظهر فى إيران فى القرن الثالث الميلادى، حكم عليه بالكفر فأدخل السجن حيث عُذب عذاباً مميتاً توفى على أثره فى عام ٢٧٦م. وفى رواية أنه صلب

وسلخ حياً ثم قطعت رأسه وحشى جلده وظل معلقاً على أحد أبواب مدينة جندى سابور(١) فى الأهواز، فسمى هذا الباب بعد ذلك باب مانى، هذه العقوبات امتد العمل بها إلى آخر العهد الساسانى، ولقد كان شهريار بن كسرى برويز والد يزدجرد الثالث واحداً من الإخوة السبعة عشر الذين قطع أخوهم شيرويه أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم، كما مر بنا كيف قَتَلت آزرميدخت فرخزاد والد رستم، وكيف قتل رستم آزرميدخت بعد أن خزق عينيها.

هذه العقوبات الصارمة الرادعة حقاً، وإن أدت غرضها فى إخافة الناس وإخضاعهم، فقد أدت أيضاً دوراً أكثر خطورة وأهمية، وهى قتل الروح المعنوية وقبر الإيجابية المحركة لعامة الشعب. بعبارة أخرى إنه لكى يؤمّن الحاكم الظالم نفسه ضد تحرك الناس ليتحرروا من ظلمه، قتل فيهم النخوة والحمية، حتى إذا جاء عدو خارجى لم يجد من يقاومه لأنه لم يعد عدواً مشتركاً لهم جميعاً بل عدو للحاكم وحده، وقد انفصلت عنه أحاسيس جمهور شعبه وشعوره باستثناء طبقة المنتفعين.

ما صالح المحكوم فى أن يبذل دمه ليمنع تغيير السلطة الحاكمة أو شخص الحاكم إذا كان فى أسوأ الظروف يؤدى إلى استبدال ظالم بظالم؟ بينما فى أحسنها يؤدى إلى حلول عادل محله. لماذا يكره الناس الاستعمار ويقاومونه؟.. لأن المستعمر لا يسعى إلا وراء مصالحه المادية وحدها، فى سبيل ذلك يستذل الناس ويبطش بهم. من أجل ذلك يسعى الناس إلى التحرر والتخلص من الاستعمار الأجنبى فى كل مكان، ليقيموا مكانه حكماً وطنياً يشعر بشعور المواطنين ويعمل جاهداً على قضاء حوائجهم لأنه منهم. فإذا استقى منهم ضرائب فلصالحهم، وإن حشدهم إلى حرب فلصالحهم ومصالح أبنائهم وذويهم. أما إذا تحول هذا الحاكم المواطن إلى بطش وجبروت أشد من بطش المستعمر وجبروته، ترحمت الشعوب على أيام الاستعمار! إذا قام الحكم على دعائم من القتل والسلخ والتعذيب والسجن وأنواع البطش والتنكيل، فإنه يكون أكثر سوءاً أو أبعد أثراً فى قتل معنوية أمته وإيجابيتها، لأنها لم تعد ترى صالحاً عاماً. إن استطاع الفرد أن يكسب شيئاً لنفسه فبها، وإن لم يجد ما يكسبه لذاته فلا حافز له.

شتان فى مجال الدفاع والأمن القومى بين ديار يسود فيها العدل والطمأنينة بين الناس، وبين ديار تحكم بطشاً واستبداداً وظلماً وعتواً. شتان بين دولة أساس الحكم فيها السجن

(١) كريستنسن ١٨٧.

والكرباج والتعذيب، وبين دولة يقول حاكمها لولاته: «لا تضربوا المسلمين فتذلوهم»، وحين يبلغه أن ابناً لأحد ولاته ضرب أحد أترابه من أبناء مصر المفتوحة فى لعب بينهما، يقتص منه ويقول لأبيه: «يا عمرو، متى تعبَّدتُّم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً!».

ونذكر فى هذا المقام خطاب أبى بكر الصديق(١) رضى الله عنه بعد أن بويع بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال: «أما بعد، أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى منكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله».

لقد داس ملوك فارس العدالة بأقدامهم وأهدروا حرمات مواطنيهم، فحطموا بذلك أقوى خطوط الدفاع عن مملكتهم العتيدة ذات الحضارة الضاربة فى أعماق التاريخ. وما أصوب القاعدة التى يقررها ابن خلدون إذ يقول: «إن الظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران». وما أكثر تقرير هذه القاعدة فى القرآن الكريم:

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾(٢).

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾(٣).

﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾(٤).

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(٥).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٦).

(١) الطبرى ٣/٢٠٣ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن الزهرى عن أنس بن مالك.
(٢) سورة هود، الآية ١١٧.
(٣) سورة الأنبياء: ١١ - ١٥.
(٤) النمل: ٥٢.
(٥) العنكبوت: ٤٠.
(٦) هود: ١٠٢.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[1].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾[2].

من هذه الزاوية نقبل ظلم الحكام وفساد نظام الحكم فى فارس كعامل من عوامل هزيمة العجم. بعبارة أخرى هزيمة جيش يسيره القمع فى مواجهة جيش يبتغى ما عند الله لا يحركه سوى ذلك: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3] جيش يؤمن أفراده فرداً فرداً أنهم يقاتلون فى سبيل الخير، خير الدنيا والآخرة: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[4]. وبعبارة ثالثة هزيمة النظام الداخلى فى فارس فى مواجهة التشريع الإسلامى المتحرر.

التجنيد الإجبارى المستند إلى الجبروت نجح فى حشد عشرات الألوف بل ومئاتها إلى ميادين القتال. والخوف من حكامهم نجح فى جعلهم يقاتلون. ولكن للمعارك مراحل وتأرجحات، فما أن تبدأ المعركة تميل فى غير صالحهم ويفقد المسئولون سيطرتهم الفعلية عليهم ويتطلب الأمر شيئاً من الصمود حتى يجدوها فرصتهم للفرار من ذلك كله. وهكذا رأينا قتالهم يبدأ على حفيظة وحنق وربط بالسلاسل، ثم لا يلبث أن ينهار فجأة. وهذا يفسر لنا – ويفسره لنا – وصف الضابط الرومى[5] مارسلين بأنهم ذوى تسليح ممتاز، ولكنهم غير ذوى بأس فى الحروب ولم يتعودوا النضال فى جسارة. ووصف الإمبراطور الرومى جوليان بأنهم مَعِزٌ مسختهم القذارة يلقون السلاح ويولون الأدبار قبل أن يبتدرهم أحد بالحرب. لقد فقدوا العناصر المنشئة للمعنوية واكتسبوا العناصر التى تذيبها وتحللها. ولقد وصفهم المثنى بعد معركة البويب فقال: «... إن الله أذهب مصدوقتهم ووهّن كيدهم، فلا يَرُدَعَنَّكم زُهاءٌ ترونه ولا سواد ولا قِسِيّ فج ولا نبال طوال، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما

(١) الحج: ٤٥.
(٢) القصص: ٥٨ - ٥٩.
(٣) القصص: ٨٣.
(٤) النحل: ٣٠.
(٥) إيران فى عهد الساسانيين.

وجهتموها اتجهت».

لقد بدأ زحف المسلمين نحو العراق عام ٦٣٣م، وقبل ذلك بسنوات خمس فقط انتصر الروم على الفرس ذلك النصر الكبير الذى تنبأت به سورة الروم، ولكن فارس لم تركع له على ركبتيها رغم الأحوال الداخلية ذاتها. أما الفتح الإسلامى فقد أزال الدولة من الوجود وأسقط الحكم الذى بدأ قبل ذلك بأكثر من أربعة قرون، ومازلنا نبحث عن علة ذلك وكيفية حدوثه فلنستمر فى رحلة البحث عن العامل الحاسم.

معجزة

وذهب بعضهم إلى أن حركة الفتوح الإسلامية إنما كانت جهاداً فى سبيل الله، ولا يعلل النصر فيها واستطراده فى جانب المسلمين إلا بأنه تأييد من الله لأوليائه. وكأنما يريد أصحاب هذا القول أن يذهبوا إلى أنه شيء – من حيث هو حرب – هو شيء شاذ غير قابل للدراسة، لا يقاس على غيره ولا يقاس غيره عليه.

أما أن الله يؤيد عباده المؤمنين فقد ورد فى آيات القرآن الكريم الذى نحن به مؤمنون ما يفيد هذا المعنى.. من ذلك قوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]. وقوله: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3]. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[4]. وقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا

(١) سورة الأنفال، الآية ٩-١٠.
(٢) آل عمران: ١٢٤-١٢٦.
(٣) النور: ٥٥.
(٤) الحج: ٣٨.

وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[١] . وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٢] .

هذه الآيات وأمثال لها كثير فى كتاب الله ، فهل تعى أن تلك الفتوح كانت من خلق الله ولم تكن من صنع البشر ؟ نبادر فنقول : إننا نذهب إلى أنه يمتنع أن نفهم من الآيات أن النصر حق على الله سبحانه للمسلمين حيثما وجدوا وكيفما كانوا . بل إن الواقع والتاريخ ينفيان ذلك ، وسيرة الرسول أيضا تنفى ذلك ، فقد هزم ﷺ والمسلمون فى أُحُد وقتل جمع غفير من خيار صحابته وكسرت حلقات المغفر فى وجهه الكريم وكسرت أسنانه الأمامية (رباعيته) ، وكان الذين انتصروا مشركين وثنيين يحملون صنمهم ويهتفون له «أعلُ هُبَل ! !» .

ونجدها فى الكتاب الكريم فى صراحة ووضح : ﴿ ... ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ... ﴾[٣] . ويعيب على نوع من الناس أن يعيشوا على أمل لا يتخذون له أسبابه ، فيقول : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[٤] . وأنكر أشد الإنكار فى أسلوب لاذع على بنى إسرائيل ادعاءهم بأنهم شعب الله المختار ، حيث قال : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ... ﴾[٥] . ويحكى عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[٦] .

إذاً فالله سبحانه لا يحابى أحداً من خلقه ولا خليله إبراهيم عليه السلام ولا رسوله ﷺ ، ولو كان سبحانه وتعالى فاعلاً لكان رسوله أولى الخلق بمحاباته ، ومن باب أولى سائر خلقه بما فى ذلك عباده المؤمنين . وما كان القرآن لينكر على بنى إسرائيل منطقاً ويقبل أن يتخذه المسلمون .

---

(١) غافر : ٥١ .
(٢) الأحزاب : ٩ .
(٣) سورة محمد : ٤ .
(٤) الحجر : ٣ .
(٥) المائدة : ١٨ .
(٦) البقرة : ١٢٤ .

الأخذ بالأسباب

إن الإسلام يربط ربطاً تاماً بين الأسباب ونتائجها ويؤاخى بينهما ، فلا يخرق ما وضع الله للكون من سنن . لقد خلق الكون بقدرته واستخلف بنى آدم فى الأرض ، ثم لم يَدَع ذلك كله يخبط خبط عشواء وإنما فطر سننه التى تسير بمقتضاها وقوانينه التى لا تتعداها : ﴿ .. فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[١] . وقيل فى تفسير قوله : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾[٢] : إنه من يتق الله فى أمر ما يجعل له مخرجاً فيه . فالطالب الذى يتقى الله فى استذكاره وتحصيله لعلومه يجعل له مخرجاً بالنجاح فى امتحانه ، وحاشا أن ينصرف معناها إلى أن الطالب الذى يتقى الله بكثرة الصيام والقيام والصدقة وينصرف عن تحصيل العلم ، أن يجعل له مخرجاً بالنجاح فى امتحانه والفلاح فى دنياه ! ! وذلك لسببين : الأول : أنه لم يتخذ الأسباب الكفيلة بالنجاح ، وكأنما يريد من الله أن يحابيه فيستثنيه مما وضع للكون من قوانين وسنن . والثانى : أنه أخطأ فهم معنى التقوى التى أمرَنا الله بها ، فهم منها الأمر بالأخذ بالعبادات ولم يفهم منها الأمر بالأخذ بالأسباب ، فهو بهذا الفهم الناقص والإدراك الفاسد مع ترك العمل الواجب قد استوفى أسباب الرسوب والفشل . وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : «ومن أحسن تدبير معيشته رزقه الله»[٣] .

غزا المشركون مدينة الرسول ﷺ بجموع لا قبل للمسلمين بها ، فماذا فعلوا ؟ لم يركنوا إلى موعود الله بالنصر .. ولم يقولوا له أين الألف وأين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف من الملائكة ؟ ولم يقولوا لنبيهم اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ... ولو فعلوا لبادوا ، وبحق . ولكنهم ذهبوا يبحثون عن الوسيلة الكفيلة برد ذلك العدوان ، فكان أن أقاموا خط دفاع فحفروا خندقاً وتحصنوا وراءه وأخذوا بكل ما قدروا عليه من أسباب الدفاع ، ولولا ذلك لاستأصل المشركون شأفتهم . فهموا جيداً أن الله يطالبهم بالعمل دفاعاً عن أنفسهم ، فعملوا بقوله : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ... ﴾ فهم بتقديرهم السليم لموقفهم ودراستهم له وحفرهم الخندق ووقوفهم وراءه فى خط دفاعى قوى ، والعمل السياسى الناجح للحيلولة دون اتفاق المشركين واليهود ، بكل هذا قد أعدوا ما استطاعوا واستحقوا النجاة مما

---

(١) سورة فاطر : ٤٣ .
(٢) الطلاق : ٢ .
(٣) أسد الغابة ٢٩٩ .

أعد لهم. جمع العجم للمسلمين بالقادسية ما قد مر بنا ذكره، وأمدوهم بثلاثين من أفيال القتال، فما وجدنا المسلمين جلسوا يقرأون سورة الفيل، وإنما عالجوا الأمر بما يلزم من مقاومة وفكر وعمل من أساليب الحرب.

حتى حين ينزل الله معجزة لتأييد نبى من أنبيائه - والمعجزة فى طبيعتها أمر خارق للعادة يشذ على ما يجرى من سنن الكون - حتى فى هذا يأبى إلا أن يصاحب المعجزة عمل ما. يأمر مريم أن تهز بجذع النخلة حتى تساقط الرطب، والذى جعل جذع نخلة يهتز بيد سيدة فى حالة وضع، كان سبحانه قادراً على إسقاط الرطب دون أن تهزها. ويأمر موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر، وكان سبحانه قادراً على تفجير الماء دون ضرب الحجر. ويأمره أن يضرب بعصاه البحر لينفلق، وكان سبحانه قادراً على فلقه دون عصا موسى. وكأنما يشير الخالق سبحانه إلى أن العمل فى كل الظروف واجب وأنه من عناصر النتيجة.. وبهذا الإيمان خفق عمر بدرته المتبتلين فى المسجد وهو يقول: «لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله، ولا تقعدوا عن طلب الرزق تقولوا يا رب يا رب وتعلمون أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

يقول الأستاذ محمد الغزالى: «جرت حياة الرسول الخاصة والعامة على قوانين الكون المعتادة، فلم تخرج - فى جملتها - عن هذه السنن القائمة الدائمة... وقد كان محمد من هذه الناحية بشراً كاملاً، وكانت حياته متسقة مع سنن الله الكونية فى البطولات الممتازة..

«وقد سرت فى المسلمين لوثة شنعاء فى نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم، وحتى كادت جمهرتهم تقرن بين علو المنزلة فى الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات..

«هذا فتح الباب الموصد من غير مفتاح، وهذا طير فى الهواء بغير جناح، وهذا بال على حجر فانقلب ذهباً.. وأمثال هذه السخافات كثير.. وهى تدل على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا، وتدل على أن مروّجيها أضل عقولاً وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله وسير أصحابه.

«ما كان محمد رجل خيال يتيه فى مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافة، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها، فإذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وبذل فى تهيئتها - على ضوء الواقع المر - أقصى ما فى طاقته من حذر وجهد. وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد أو تنشط له حيث يكسل أو تحتاط له حيث يفرط، ولم تكن خوارق العادات ونواقص الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاءً فى بناء رجل عظيم وأمة عظيمة..

«إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا وخاصموا وسالموا وانتصروا وانهزموا ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق، وهم على كل شبر من الأرض يكافحون لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم وحملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم، فكانوا فى ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين. ولقد لقنهم الله هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر فى أى صدام، وإن كانوا أحصف رأياً من أن يتوقعوا هذا».

صراع البقاء

لا يجوز لنا اعتقاداً كمسلمين ولا علماً كباحثين ولا خلقاً كرجال جادين غير عابثين ولا هازلين، أن نتغافل عن أسباب ذلك النصر العسكرى الساحق الذى أحرزه المسلمون على الروم وعلى الفرس على السواء. ولابد أن نجد الأسباب على أرض ميادين القتال، ومن العبث أن نذهب نبحث عن الأسباب فى غير أرض المعركة، حتى وإن كانت لها جذور من خارجها، فأى تعلات يتعلل بها المتعللون ليس لها أكثر مما تحدثه فى أرض المعركة وفى أشخاصها. وإذاً فمن أراد لجيوشه النصر، عليه أن يعد لذلك كل عدته، وإلا فلا يلومن إلا نفسه إذا أصابته فى الميدان هزيمة. وإذا رأينا جيشاً ينتصر أو جيشاً ينهزم، فلابد أن يكون لذلك أسبابه من أرض المعركة. لا شك أن الإيمان بالله من عناصر الغلب - لا بذاته المجردة - ولكن بما يفرضه ويصاحبه من طاعة الله بالعمل والأخذ بالأسباب وبما يحدثه من رفع للمعنوية أى رفع، ومن الإيمان بالقضاء والقدر ومن الرجاء فى اليوم الآخر وما عند الله لمن يستشهد. ولقد كان من صفات أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيداً للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيداً للإيمان[1].

بهذا نحسب أننا أوضحنا المقصود. وحتى لا يظن ظان أننا نلاشى أثر الإيمان وما يفرغه من قوة على أصحابه، نسوق هذه الفقرة من كتاب عمر إلى سعد والمسلمين، وقد أتى بتمامه فى موضعه:

«أما بعد، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحروب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من

(١) عبقرية خالد ٩.

المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله. ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم فى مسيركم حَفَظَة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم. ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم»(١).

وفى خطاب أبى بكر إلى جيوش الشام: «... ولن يؤتى مثلكم من قلة، و إنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عليها بذنوبهم فاحترسوا من الذنوب...»(٢).

خلاصة القول عبارة ذكرها العقاد: «إن العقيدة قوة لا تغنى عنها قوة سواها لمن فقدها، ومع ذلك فهى وحدها لا تغنى عن الأخذ بالأسباب».

وإذا بحثنا عن هذه العوامل بين الأسباب الحربية، نجد أن المسلمين كانوا الأقل عدداً، الأقل عدة فى جميع المعارك، فكان هذا وذاك مما يضاعف من قيمة ذلك العامل الفعال الذى لم يكن سوى الكفاءة الحربية والمعرفة بعلم الحرب وتطبيق ذلك بمهارة فى الميدان على كافة المستويات.

هذه الحقيقة المعبرة عن نفسها يريد بعضهم أن ينفيها دون مبرر مقبول. يقول باحث عربى(٣): «... وأما الأساليب الحربية التى اعتمدها العرب فلم تكن شيئاً قط غير إيمانهم وشجاعتهم وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال، ولو كان من سبيل إلى الحديث فى الأساليب لكان هذا الحديث من نصيب الروم (!) هؤلاء الذين كان تاريخهم سلسلة من الحروب أفادتهم الدربة والمعرفة بفنون القتال وعلمتهم استعمال الإبل والخيل على حد سواء، لأنهم حاربوا الفرس فى هذه الأرض التى حاربهم بها المسلمون.. فلم يكن هناك مجال لهذه التعلات لا بطبيعة الأرض ولا بأدوات الحرب ولا بأساليبها، فذلك كله مما ألفه البيزنطيون وعرفوه تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة التى عاشوها فى هذه البلاد والحروب الوبيلة التى أشجوا بها وشجوا».

(١) سعد بن أبى وقاص ٧١.

(٢) سيف الله خالد ١٤٣.

(٣) حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، الدكتور شكرى فيصل.

لا شك أن هذه نظرة غير صائبة إلى حركة الفتح من الناحية الحربية، فقد كان المؤلف يهدف من بحثه هذا إلى بيان أثر الفتح الإسلامى على اللغة والأدب ونشأة المجتمعات الإسلامية، ولم يكن من منهجه التعرض للنواحى الحربية.

جمود التكتيك الفارسى

لقد كانت فارس والروم دولتين ذواتى نظم حربية عريقة، قد يظن أن المسلمين العرب كانوا متخلفين عنهما كثيراً، ولكن الذى أظهرته لنا معارك الفتوح أن العكس هو الصحيح. لقد كان لكل من الفرس والروم نظمه الموروثة التى جمدوا عليها وتطبعوا بها، فلم يكن من السهل عليهم أن يتطوروا لمواجهة أساليب حديثة لم يألفوها من قبل.

كان الفرس يعتمدون على جيوش كبيرة ثقيلة الوزن كثيرة المشاة بطيئة الحركة، وجنودها من الفلاحين المجندين المقيدين بالسلاسل، وقادتها يشترط فيهم أول ما يشترط أن يكونوا من بيوتات الشرف، فكان لكل ذلك نتائجه فى الميدان. نتج عن ذلك بطء التحرك وثقل الحركة وكثرة القتلى وانعدام المرونة والتزام الدفاع دون الهجوم غالباً، والدفاع وحده لا يحقق النصر إذ لا يكفل لنا النصر سوى العمل الهجومى: ﴿... ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

نتج عن ذلك أيضاً ضعف التدريب وهبوط المستوى القتالى للجندى وانعدام الكفاية للقادة. كان جيش الفرس جيشاً عجوزاً لإمبراطورية شمطاء، يعنى كثيراً بالزينة والمظاهر دون الجاد والجواهر، كان يعنى كثيراً بالرايات والأعلام والطبول والرتب والنياشين والقلانس.. لكنها كانت كلها مظاهر جوفاء لا تنطوى على نظر فى الحرب وكفاءة فيها، فكانت هزيمتهم أمام المسلمين هزيمة النظم التقليدية الجامدة أمام الفكر الحربى الصحيح المتحرر من أى قيد.

خفة حركة المسلمين

هذا بينما كان المسلمون ذوى نشاط، خفيفى الأثقال يألفون خشونة العيش وشظفه، يكفيهم الكفاف ويتجافون عن الترف ويألفون فى جملتهم سكنى البادية، بيوتهم من الوبر

(١) سورة المائدة، الآية ٢٣.

أو الشعر أو الجلد، ليس الجوع ولا العطش طارئاً عليهم يجتزئون بما يمسك الرمق. فكانت قواتهم أقل عدداً وأخف حركة وأهون مؤونة، وأكثر من اعتمادها على المشاة، فاستطاعت أن تحقق المرونة وأن تحرز المفاجأة وأن تحوز المطاردة قبل أن يسترد العدو أنفاسه.

لقد كانت عمليات عبور السماوة من أبرز الأمثلة على ذلك، حين احتاج الأمر إلى تحويل جيش خالد من العراق إلى الشام ليدرك معركة الشام، ثم حين رجع هذا الجيش إلى العراق ليدرك معركة القادسية معتمداً فى هذا على الإبل، ثم انطلاق القعقاع من الكوفة لمعاونة أبى عبيدة حين حشد الروم ضد حمص. استطاع المسلمون بذلك أن يحققوا التناسق التام بين جبهة العراق وجبهة الشام، ولولا خفة حركتهم ومرونتها ما استطاعوا. كذلك كان انطلاق جيش عتبة ابن غزوان على البغال لإنقاذ جيش العلاء من طاوس. كل ذلك كان أمثلة لانقضاضات صاعقة خاطفة أهم ما يميزها السرعة والخفة لم نر لها أى مثيل عند المقاتل الفارسى.

الجندية الممتازة

وكان خامة هذه القوات الجندى المؤمن المتطوع الذى لم يجبره أحد على خوض الحرب ولم يربطه بالسلاسل خوف الفرار كما كان يفعل الفرس والروم. هذا الجندى، راجلاً كان أو فارساً، هو الذى رأينا فى الباب الخاص بأثر البيئة[1] كيف تكون كمقاتل وكفارس قبل أن ينزل إلى حومة الحرب. كان الجندى المسلم أقدر من خصمه على تصريف الأعنة وعلى سداد الرمى، حتى لنجد ضرار ابن الأزور الأسدى فى حصاره أحد حصون الحيرة يأمر رجاله أن يرموا أهل الحصن وقد أطلوا من فوق جدرانه يرمون المسلمين، فرشقهم المسلمون حتى أعروا رءوس الحيطان. وفى فتح الأنبار أمر خالد رماته أن يرموا حماة الحصن المشرفين من أعلاه وأن يتوخوا العيون، ففقأوا يومها ألف عين حتى عُرفت تلك الموقعة بـ«ذات العيون». وكان المسلم أمهر لعباً بالسيوف والرماح، ولذلك كان دائماً يفوز على مبارزه.، ولقد مر بنا كثير من الأمثلة على ذلك، مثل إغارة طليحة بن خويلد الأسدى ليلاً على معسكرات رستم قبل التحام القادسية، ومثل مبارزات عاصم والقعقاع وعمرو بن معدى كرب وغيرهم.. كان المسلمون أغنياء بهذا النوع من المقاتل الكفء، ولقد أفردنا فصولاً للتدريب على الفروسية وكافة أسلحة القتال فى الجزء الأول من «الطريق إلى المدائن».

---

(١) الطريق إلى المدائن.

انصراف المسلمين عن المظاهر

لقد توفر لجيوش المسلمين كل ما يلزمها من جوهر، وانصرفت بعد ذلك عن كل مظهر، فلا رتب ولا بيوتات شرف ولا طبول ولا مبالغة فى الأعلام والرايات ولا زياً واحداً ولا سلاحاً متشابهاً، وإنما لكل ما اتفق له. نعم لقد كان لجيوش المسلمين تنظيمها الذى وجدنا بمقتضاه عرفاء العشرات ورؤوس القبائل وأصحاب الرايات وأمراء الأعشار وغير ذلك، ولكن ذلك كله كان تنظيماً إدارياً بحتاً لإمكان تحريك القوات وفقاً لمسئوليات معلومة وواجبات محددة، ولم يكن من قبيل الرتب المعروفة فى الجيوش الأخرى. لم تكن رتباً تمثل طبقات، بل كانوا سواء فيما بينهم من علاقات، سواء فى العطاء، دون أن تشكل هذه الإمارة لبعضهم على بعض أى طبقة حقيقية أو حتى مظهرية. فلم يمكن أى رئيس ليتميز بملبس معين أو شارة مميزة ولم تكن له حقوق تزيد عن حقوق مرؤوسيه، بل لقد وجدنا بعض جند سعد بن أبى وقاص ينقده ويهجوه بالشعر ويشكوه إلى أمير المؤمنين عمر. ولم يكن هذا ولا أقل منه بكثير ليتصور فى جيش الفرس.

الإعاشة والشئون الإدارية

كان التعقيد فى جيش فارس يتبعه مشاكله الإدارية فيما يختص بالإعاشة فى الميدان. كان جيشاً يأكل الرقاق ويطعم العسل، وكان يضاعف من أثر ذلك كثرة العدد. كان جيش الفرس فى القادسية مائتين وأربعين ألفاً نصفهم فى مرتبة الخدم والتبع، بينما لم يظهر لذلك مقابل يُذكر فى جيوش المسلمين. كان طعامهم التمر ولبن الإبل ولحومها والقمح، وكان لحم البعير يكفى لإطعام مائة فى اليوم. وكانت إبلهم معهم فى حروبهم كما كانت معهم فى حلهم وترحالهم تطعم من مراعى الصحراء أو من تخوم السواد. كذلك كانت خيلهم تشرب لبن الإبل وتطعم التمر وكانت أنجب من خيل الفرس والروم، تدرك خصمها إذا كرَّت وتفوته إذا فرَّت.

ومن حيث كان المسلمون قادمين نحو العراق من صحرائهم الشاسعة، فقد كان ريف العراق أمامهم يغيرون على ما شاؤوا من أطرافه أو يوغلون فيه وفق ما تقضى به الأحوال، ينتزعون من يد عدوهم ما يقتاتون به من مختلف أنواع الأطعمة النباتية والحيوانية، فكان جل اعتمادهم على هذا.

شئون الحملة

بالرغم من أن القتال بين المسلمين والعجم قد دار على أراضى الدولة الفارسية بعيداً عن المواطن الأصلية التى نزحت منها جيوش المسلمين، فقد كان هذا الانتقال بعيد المدى يتم بأيسر مما كان يتيسر لسواهم من الأمم، وذلك بفضل استحواذهم على ذلك النوع من الركائب الذى يستطيع اجتياز المفاوز والمسافات الطويلة مهما كان الجو حاراً أو بارداً صاف أو عاصف، دون الحاجة إلى تموين عاجل سريع، ونعنى بها الإبل. وقد كانت هذه الجيوش من الفرسان والمشاة، وكانوا جميعاً يعتمدون فى تنقلهم وحمل أثقالهم من بيوت ومراجل الطهى وما إلى ذلك على الإبل دون الخيل، ثم لا تستعمل الخيل إلا فى الميدان، فلا تكون أنهكت أو استخدمت فى شىء غير القتال. وقد أفردنا فى الجزء الأول باباً خاصاً بالخيل عند العرب وكذلك بالإبل. وحين خرج ميدان القتال عن النطاق المألوف للإبل وانتقل إلى السير من خلال الجبال، كانت جيوش المسلمين من المرونة بحيث استبدلت بالإبل البغال.

أما العجم فلم يعرفوا الإبل ولم يكن لهم من ركائب سوى الخيل للفرسان، أما المشاة فكانوا يسيرون على أقدامهم من مواطن تجنيدهم إلى ميادين القتال مهما بعدت. فلا شك أنهم كانوا يصلون إلى هذه الميادين وقد هدهم الجهد والمشقة أكثر مما جهد خصمهم العربى المسلم الذى قطع مسافات أبعد. هذا بالإضافة إلى أن جمهرة جيوش المسلمين كانت من الأعراب سكان البادية ولم يكونوا من أهل الحضر، فهم ممن ألف دوام الحل والترحال، بخلاف الفلاحين المجوس الذين ارتبطوا بأرضهم وكأنهم نباتات نمت عليها شأن الفلاحين فى أى مكان.

ولنا أن نفترض مثل هذا بالنسبة لخيول الفرس التى كان عليها أن تقطع المسافات الطويلة محملة بالفرسان والأثقال على السواء، فلا بد أن ينال منها الجهد بالإضافة إلى برى حوافرها، فضلاً عن اعتيادها استخدامات غير الفروسية مما يفقدها الكثير من الصلاحية للحرب. شتان ما كان بين خيول المسلمين وخيول المجوس فى مجال القتال المتلاحم وفى شئون الحملة على السواء، وقد أجاد المسلمون فى استخدامها على الحالين. وما أروع ما قام به سعد ابن أبى وقاص من استخدامها كمركبات برمائية عبر عليها ستون ألفاً نهر دجلة فى فيضانه لاقتحام المدائن.

عفة المسلمين

كان جيش الفرس ضيفاً ثقيلاً حيث حل، ينتهك الحرمات ويغتصب النساء ويسلب الأموال من مواطنيه، ولقد مر بنا ما كان من جيش رستم فى هذا الشأن، فى حين كان المسلمون شرفاء أمناء حتى لأهل البلاد المفتوحة. وكان لهم من دينهم ما يعصمهم ويردعهم، ومن أهلهم ونسائهم القريبين وراء الجبهة ما يفى بحاجاتهم. خطب رستم فى جيشه فقال: «... والله للعرب فى هؤلاء وهم لهم ولنا حرب أحسن سيرة منكم. إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء بالعهود والإحسان، فأما إذا تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع سلطانه منكم».

قيادات ممتازة

من صفوف هؤلاء الجنود بزغ قادتهم عن امتحان وتجربة لا عن شرف موهوم ونسب موروث. وكما كان خامة جيش المسلمين من الجنود المهرة الممتازين الذين لا يبالون وقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، كذلك كانوا ذوى ثروة واسعة فى عظماء الرجال من القادة المحنكين المدربين. استطاعوا أن يطوروا فى أساليب القتال، بالجمع بين طريقة الكر والفر وطريقة الزحف بالصفوف المتراصة، وبالاستخدام المتبادل للخيل والإبل أو الخيل والبغال. كانوا أصحاب نظرات سديدة فى الحروب، يعرفون متى يتقدمون ومتى ينسحبون ومتى ينتظرون عدوهم ومتى يدهمونه وفى أى مكان وعلى أى أرض وبأى تكتيك يديرون معاركهم، ولا يفوتهم فى كل ذلك ما يلزم من حماية ظهرهم وأخذ حيطتهم والإمساك بعنصر الأمن لجيوشهم.

يتحدث كلاوز فيتز (١) عن وجه الاختلاف بين نوعين من القادة فيقول:

«... ويأتى هذا الاختلاف فى معظم الحالات من قيام البعض بدور المخترعين والمعلمين لأفضل الأساليب واكتفاء البعض الآخر بدور المقلدين. ونحن نرى أن الجنرالات وقادة الفيالق والفرق يتبنون فى كل مكان تقريباً الآراء والأساليب ذاتها، لدرجة تجعل من الصعب تفوق

---

(١) فى الحرب ١١.

جيش على آخر إلا إذا تمتع أحد الجيشين بقائد موهوب بالصدفة التى لا علاقة لها بدرجة ثقافة الشعب أو الجيش أو كان هذا الجيش متمرساً على فنون الحرب متعوداً على خوض غمارها».

هذا رأى رائد الاستراتيجية فى القرن التاسع عشر. وفى الواقع أنه بالنسبة للعصور الوسطى، بينما نجد انحطاطاً واضحاً فى الاستراتيجية الأوربية والفارسية واقتصار حروبهم على مصادمات مباشرة بالمواجهة بين جيوش أكثرها من الفلاحين بقيادة أمراء الاقطاع من هنا أو الأساورة من هناك، نجد أن القادة المسلمين أمثال خالد بن الوليد كانوا يطبقون الأساليب الاستراتيجية بمهارة وإتقان فى المناورة والحركة والخداع والمفاجأة على أوسع نطاق، مما دفع ليدل هارت، رائد الاستراتيجية فى القرن العشرين، إلى وصف معاركهم بأنها فاقت ما سبقها من معارك فى التاريخ[1].

لقد تعددت صفات القيادة وكتب عنها كثير من الكتّاب والقادة. وبعض هذه الصفات من البديهيات التى لا يعوزها الذكر، من مثل قولهم: الشجاعة وقوة الإرادة.. إلخ. ومنهم من أعد قوائم مزدحمة بالفضائل، فما ترك مكرمة أو خلقاً إلا جعله شرطاً للقيادة. ونقتصر هنا من ذلك كله على ما نراه يضع أصابعنا على السمات الهامة للقيادة من وجهة نظر كبار القادة المحدثين.

ففى نظر مونتجومرى ينبغى أن يتحلى القائد بأن يكون موضع ثقة رجاله واعتمادهم، ذا كفاية عسكرية عالية، متفائلاً لا ييأس، يحرص على معنويات قواته، يحسن اختيار الرجل المناسب للعمل المطلوب، متتبعاً لما يستجد من المعارف العسكرية، قادراً على اتخاذ القرار السليم، عالماً بمبادئ الحرب، هادئاً مستعداً للمجازفة عند الحاجة، ملتزماً إلى أبعد الحدود بالدين[2].

ويقول: «هل من علاقة للدين بالقيادة؟ إن القائد لابد من أن يكون متمسكاً بمثل عليا وبالفضائل الدينية».

ويقول: «مَن هم أعظم القادة فى كل الأزمان؟ إنهم ولا شك مؤسسو الديانات العظمى: المسيح ومحمد وبوذا. هل كانت الحياة الخاصة لهؤلاء القادة الثلاثة أحد الأسباب لنفوذهم ونجاحهم؟ وهل يجب أن تكون حياة القائد الخاصة فوق الشبهات؟ فى رأيى الخاص فى هذه

---

(1) من دراسة أعدها مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بجريدة الأهرام، عدد ٢٩ / ١ / ١٩٧١.
(2) الفاروق القائد ٧٣ و ٧٥ عن كتاب مونتجومرى - السبيل إلى القيادة.

القضية بعينها بل وجميع القضايا الأخرى، إن العامل الأكبر هو إخلاص المرء ونفوذه وكونه قدوة خاصة فيما يتعلق بالفضائل الدينية.. إننى لا أدرى كيف يستطيع امرؤ أن يكون قائداً إن لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات، فإن لم تكن كذلك لا يحترمه الذين يقودهم وسيسحبون ثقتهم منه، وإذا ما حدث ذلك فستفقد قيادته تأثيرها».

ويقول: «إنى أعتقد أنه يجب أن يكون لدى القائد يقين باطنى مبنى على العقل، لكنه مع ذلك فوق العقل».

بينما يقول ويفل: «يجب أن يكون القائد عفيفاً وقوراً يتحمل المشاق من الأعمال، متوسط العمر، فصيحاً ورب عائلة وأن ينتمى إلى بيت مجد له شهرة (!) وأن يكون مؤدباً ودوداً سهل الاقتراب منه رزين الطبع».

وقال نابليون: «إن أول ما يجب أن يتوفر فى القائد رأس هادئة، وبذلك تظهر له الأشياء على حقيقتها وفى مظهرها الصحيح، ويجب ألا يتأثر بالأخبار الحسنة أو السيئة».

وقال: «إن تطورات فن القتال والعلوم الهندسية وفنون المدفعية يمكن أن تدرس من الكتب، ولكن القيادة تجيء من التجارب ومن دراسة معارك كبار القادة».

أما روميل فيؤكد فى مذكراته على صفة تحمل المسئولية وأن يكون قادراً على تقدير الموقف وإصدار القرارات الصحيحة، ويقول: «وثبت لى أثناء التحرك إلى الخيل (بالصحراء الغربية) أننى لم أطلب الكثير، لأنه ظهر لى أن القادة الذين استغلوا قدراتهم تمكنوا من تنفيذ كل ما طلبته منهم، وظهر فى بعض الأحيان أن طاقات القائد وقدراته النفسية أهم من استعداده العقلى ومعلوماته العسكرية، وهو أمر غير مفهوم جيداً للمفكرين العسكريين بالرغم من أنه مفروغ منه بالنسبة للرجل العملى. فى هذه العمليات توفرت لى الفرصة لتدعيم علاقاتى مع الجنود، فنتج عن ذلك أن حققوا كل ما طلبته منهم على الدوام».

ويقول: «يجب على القائد أن يدرك أن مكانه ليس فى الخلف مع هيئة أركانه وإنما فى الأمام مع قواته، فالجنود لا يشعرون بالصلة بينهم وبين قائد يجلس فى الخلف بمقر قيادته، والذى يرغبون فيه هو الاتصال به فعلاً. ومن السخف القول إن واجب قائد الكتيبة وحده هو المحافظة على الروح المعنوية لرجاله، واتضح لى أنه كلما ارتفعت الرتبة كلما زاد أثر المثل المعطى، وخاصة فى لحظات الذعر والإرهاق أو الانحلال أو عندما يلزم الأمر مجهوداً غير عادى. فالمثل الذى يضربه القائد بوجوده تحت نفس الظروف يفعل المعجزات، خاصة إذا كان

القائد على قدر من الذكاء وكان قادراً على خلق أسطورة حول شخصيته».

لعل وجهة نظر كل من هؤلاء القادة قد انصبت على الصفات التى رآها فى نفسه قبل سواها، ومع ذلك فهى نظرات حقة.

نستطيع إذن أن نحدد صفات القيادة الممتازة فى الآتى:

١ - القدرة على اتخاذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب.

٢ - الشجاعة الشخصية.

٣ - الإرادة القوية الثابتة.

٤ - تحمل المسئولية بلا تردد.

٥ - معرفة مبادئ الحرب والخبرة بأصولها.

٦ - نفسية ثابتة مستقرة لا تهتز ولا تتبدل فى حالتى النصر والهزيمة.

٧ - بُعد النظر والتوقع السديد وصدق التنبؤ بما سيكون.

٨ - معرفة نفسيات الجنود وإمكانياتهم.

٩ - الثقة المتبادلة بين القادة والجنود.

١٠ - المحبة المتبادلة بين القيادة والقوات.

١١ - شخصية قوية نافذة.

١٢ - اللياقة البدنية.

١٣ - ماض مشرف وسابقة ناصعة مجيدة.

إن عوامل النصر تتركز فى ثلاثة أسباب نقول إنها توفرت جميعاً لدى المسلمين:

١ - قيادة ممتازة.

٢ - جنود ممتازون.

٣ - قضية عادلة يقاتلون من أجلها.

الإيمان بالقضاء والقدر

ثم كان شرف الغاية ونُبل المقصد واعتقاد المسلم أن قتاله فى سبيل الله من أهم عوامل ثباته واستماتته واستهانته، فليس أمامه إلا إحدى الحسنيين: إذا انتصر فذاك، وإن قتل فإلى الجنة. ثم ليس الموت أو الإصابة إلا بقضاء من الله وقدر. هذا الإيمان بالقضاء والقدر الذى اتخذه الناس من دواعى التواكل معيناً على الخمول والكسل، إنما ذلك لجهلهم به، فإن الإيمان بالقضاء والقدر الذى جاء به الإسلام مفروض على المؤمنين فى النتائج لا فى الأسباب[١]. فالناس مطالبون بالأسباب مفروض عليهم السعى لها والأخذ بها، ثم مطالبون بعد هذا الأخذ الصحيح بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون.

من هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر من أسرار عظمة المسلمين الأولين لأنهم أخذوا فى الأسباب وبذلوا جهدهم فى استقصائها إنفاذاً لأمر الله، ولم يتهيبوا النتائج المؤلمة رضى بقضاء الله ففازوا بالحسنيين، ولسان أحدهم يقول:

أىَّ يومَىَّ من الله أفر ... يوم لا يُقْدَرُ أو يوم قُدِرُ

يوم لا يُقْدَرُ لا أرهبه ... ومن المقدور لا يُنْجِى الحذَرْ

قذفت هذه العقيدة كل معانى البطولة والشجاعة والاستبسال، فى الوقت الذى لم يكن لها الأثر المثبط فى إعداد العدة وتحين الفرص والخروج إلى الصف ومقارعة الأبطال.

وما ابتلى الناس بهذا التواكل والكسل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً، فأخذوا بها فى الأسباب فلم يستعدوا، ونسوها فى النتائج فجزعوا ولم يرضوا.

وإذاً...

نستطيع القول بأن أسباب هزيمة الفرس فى مواجهة المسلمين كانت قائمة، وأن أسباب النصر عند العرب قبل الإسلام كانت ناقصة حتى أتمها الإسلام...

فوجدت العقيدة الحقة التى هب بها المؤمنون لنشرها والذود عنها.

وقامت بها بين المسلمين وبين الأمم المجاورة القضية العادلة التى يجاهدون من أجلها والتى لم

---

(١) السلام فى الإسلام. حسن البنا.

تكن من قبل.

وصاغ الإسلام - وفق ظروف البيئة - من أفراد هذه الأمة أعلى نموذج في العالم للجندى المقاتل المؤمن صاحب العقيدة الذى يبذل نفسه من أجلها.

ومن بين هؤلاء الجنود المتازين برزت - فى ظل من نظام الإسلام - أكفأ القيادات، دون أن تحول أى حوائل طبقية أو اجتماعية أو غيرها دون هذا الظهور.

وبحكم الإسلام أيضاً تم توحيد شبه الجزيرة العربية فى وحدة سياسية، واعتبر جميع سكانها أمة واحدة انبعثت فى حشد لم يكن فى الإمكان قبل ذلك حشده.

هذا هو دور الإسلام كرسالة ودين فى الفتوح...

أقام العقيدة والمعتقدين.

ولن يصلح أمر آخر هذه الأمة بغير ما صلح به أولها.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟! ﴾

نأمل.

فهارس الكتاب

دليل الخرائط

دليل الأعلام

أ – المسلمون

ب- المجوس

دليل الأماكن

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٥٥	أمان ووفاء فى جندى سابور
١٥٧	حشود بنهاوند
١٥٨	عزل سعد
١٥٨	شكوى وتحقيق
١٥٩	دعوة سعد المستجابة
١٥٩	سعد يعود إلى المدينة
١٦١	**الباب السادس: نهاوند وما بعدها**
١٦٣	نهاوند
١٦٣	مقدمات
١٦٤	هرمزان يشير وعمر يستشير
١٦٨	النعمان أمير الجيش
١٦٩	توغل فى بلاد العجم
١٧٠	السير فى الجبل
١٧٢	استكشاف
١٧٢	تعبية وتقدم
١٧٣	تعبية العجم
١٧٥	تكبير
١٧٥	سفارة المغيرة
١٧٧	حصار نهاوند
١٧٩	مؤتمر حربى
١٨١	القعقاع يتحرش
١٨٤	النعمان تلميذ سعد
١٨٥	خطاب النعمان

الصفحة	الموضوع
١٨٦	هجوم وشهادة ونصر
١٨٨	قدوة لمن بعدهم
١٨٩	لله جنود من عسل
١٨٩	همذان تستسلم
١٩١	غنائم نهاوند
١٩٢	الخبر والغنائم فى المدينة
١٩٥	توقيت نهاوند
١٩٧	**الباب السابع: انسياح من الكوفة**
١٩٩	انطلاق إلى الشرق
٢٠٠	فتح أصبهان
٢٠١	رستاق الشيخ
٢٠١	مبارزة وصلح
٢٠٤	مدد من البصرة
٢٠٥	مدد إلى كرمان
٢٠٦	جيوش الكوفة
٢٠٧	فتح همذان
٢١٠	فتح الرى
٢١٣	صلح دنباوند
٢١٥	فتح قومس
٢١٦	صلح قومس
٢١٨	جرجان
٢٢٠	فتح طبرستان
٢٢١	فتح آذربيجان

الصفحة	الموضوع
٢٢٦	فتح الباب
٢٣٠	فتح موقان
٢٣٢	غزو الترك
٢٣٥	**الباب الثامن: انسياح من البصرة**
٢٣٧	جيوش البصرة
٢٣٨	فتح فارس
٢٤١	فتح توّج
٢٤١	أمانة
٢٤٢	حملة بحرية
٢٤٣	فتح اصطخر
٢٤٣	مدينة اصطخر
٢٤٤	سقوط اصطخر
٢٤٦	فتح فسا ودرابجرد
٢٤٨	هذه المعارك
٢٤٩	فتح كرمان
٢٥١	فتح سجستان
٢٥٣	فتح مكران
٢٥٥	الطريق إلى مرو
٢٥٧	السير إلى خراسان
٢٦٢	هجوم مضاد
٢٦٨	الأخبار المعاصرة
٢٦٩	آثار سقوط بنى ساسان
٢٧٠	البائس يزدجرد

الصفحة	الموضوع
٢٧٠	ميلاد عجيب
٢٧٠	الطفل فى المنفى
٢٧١	مذبحة ملكية
٢٧١	المسلمون يغزون العراق
٢٧٢	يزدجرد ملكاً
٢٧٢	ورستم قائداً
٢٧٢	وفد سعد إلى يزدجرد
٢٧٣	هزائم منكرة
٢٧٤	مزيد من الهزائم
٢٧٤	هوان
٢٧٥	نهاية الطريق
٢٧٦	جواب ملك الصين
٢٧٧	انفضاض أنصاره
٢٧٧	مصرع يزدجرد
٢٧٩	الرثاء الوحيد
٢٨١	سعد فى المدينة
٢٨١	مرشح للخلافة
٢٨٢	يعتزل الفتنة
٢٨٣	سعد يلقى الله
٢٨٥	**الباب التاسع**
٢٨٥	الباعث والمشروعية وعوامل النجاح
٢٨٧	١ - الباعث على حركة الفتح الإسلامى
٢٨٧	كتّاب مغرضون أم جهلاء
٢٨٩	حقيقة حروب الردة

المؤلف فى سطور

- مصرى من مواليد القاهرة ١٩٢٦.
- بكالوريوس تجارة - جامعة فؤاد الأول ١٩٤٦.
- البنك الأهلى المصرى ١٩٤٦ - ١٩٧٩ مدير عام.
- بنك فيصل الإسلامى المصرى حتى أغسطس ١٩٨٧ نائب المحافظ.
- المصرف الإسلامى الدولى حتى فبراير ١٩٨٩ عضو مجلس الإدارة المنتدب.
- وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ١٩٧٩.
- عضو نادى الأهرام للكتاب.